خاتم النبيين

محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم

سيرة ورسالة

بقلم الصحفي

محمد خالد

صاحب المصريات



الناشر

دار الكتاب العربي بمصر

محمد حلمي المنياوي

الطبعة الأولى

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م



بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم وأشكرك ، وأصلى وأسلم على محمد بن عبد الله نبيك ، وأسألك أن تغدق علىّ من القوة والبركة ما يجعلنى أهلاً لما تصديت له من عمل تحبه ، وجهد ترضاه ؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بك ، ولا معول إلا عليك .

وبعد : فإنه لا بد للضارب فى مفازة الحياة من وقفة يستعرض فيها ما خلفه من عمل ، وما ينتظره من أمل ، فإذا رأى فى الماضى خيراً حمد الله على ما وفق وأعان ، واتجه إلى المستقبل منشرح الصدر ، منتعش الوجدان ، أما إذا كان الأمر على غير مايرضى فإن عليه أن يجدّ فيما بقى ويُشَمِّر ، حتى يستطيع أن يعوض ما فاته ، ويستصلح ما بينه وبين الله .

وقد طوّف بى الفكر متصفحاً الماضى والحاضر ، متشوفاً إلى المستقبل والآجل ، ثم انقلب من جولتيه هاتين بحقيقة لا ريب فيها ، ألا وهى أن ليس من حق امرئ أن يطوى جوانحه على رضا منه على نفسه ، مهما لوحت له بطمأنينة ؛ فإن النفس أمارة بالسوء ، وهى فيما تمارسه من ألوان الأمر والنهى ، قد تُموّه بشبهة ، وتلبِس بخُدعة ، وتهضم حقاً ، وتزين باطلا ، ومن ثَمّ وجب التحرز وحق التحنث ، وأصبح الجنوح إلى الاتهام أحوط ، والأخذ بالحذر أضبط .

وحين انتهى بى النظر والتأمل إلى هذه الحقيقة ، وما تفضى إليه من ضيعة فى الماضى وغرور فى الحاضر ، أخذت أفتش عن عمل يحبه الله كثيراً ، ويرضى عنه رضاً عظيما ، فأخلص له وأنهمك فيه ، وأصفيه عقلى وجهدى وأمحضه نفسى وفكرى ، وأتخذه عبادة خالصة ، نقية لله تعالى حتى يكفر سيئاتى ويمحو خطيئاتى ، ويبيض وجهى وصحيفتى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فلم أجده إلا فى عبادة الله عز وجل ،

ممثلة فى تحرير سيرة مهذبة لحياة خاتم أنبيائه وسيد رسله : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ورسم الخطوط العريضة لرسالة الإسلام وتعاليمه المحمدية .

وأقولها صريحة : إننى لم أجد فيما مارسته من عمل أو حاولته من جهد ، أمراً هو أحوج إلى عون الله العلى القدير وجميل توفيقه من هذا الأمر الذى نصبت له نفسى ، ولست أول من حاوله ، ولا آخر من تمناه ؛ فقد عكف على هذه العبادة السامية من عباد الله الصالحين خلْق لايعد ولا يحصى ، وانقطع إليها من أوليائه المتقين جمْع لايبارى ولا يجارى ، وقد كان الأسلم — والشأن هكذا — أن يتقى التعرض لهذا الميدان ، امرؤ لم يُؤتَ مالم يُؤْتَه الأوائل ، ولا أُوتِرَ بما عَزّ على من قبله من أئمة العلماء ، وفحول الأدباء ، ولكنى وقد أجريت هذا العمل مجرى التعبد فى ذات الله والتقرب إليه ، أحسست فيضاً من القوة يشيع فى نفسى وأبصرت نوراً يضىء لى طريقى ، فدلفت منتظم الخطى ، ومضيت مجتمع القوى ، وماتوفيقى إلا بالله .

ولقد كان مما يسر وأعان على هذا العمل الجليل ، أن سيرة الرسول الكريم ، فيها من مصادر العظمة وموارد الخير ، ما لا نفاد له ولا آخر لمنتهاه ، ذلك إلى أن وِرْدَها قريب وجَنَاها دانى القطوف ، وعظمتها جامعة شاملة ، ودولتها واسعة كاملة ، وكلما أمعن الطالبون البحث فيها تكشفت لهم جوانب جديدة ، وظهرت لهم معادن نفيسة ، فهم منها بقدر طاقتهم، وحظهم فيها بحسب مايسعهم ، ولكل مجتهد نصيب.

ومهما يكن من كثرة الوراد على هذا المنهل العذب ، فإنه من الوفرة والغزارة بحيث أن كل من يدلى بدلوه فيه ، صادر عنه بما يروى ويشفى ، وكل مغترف منه راجع بما يغنى ويهدى ، وعلى ذلك لاوجه للإشفاق أو التردد نظراً لكثرة الوراد والطلاب ، مادام النبع غزيراً والخير كثيراً .

ومهما يكن من كثرة المؤلفات التى شرفت بتدوين سيرة الرسول الكريم ، فإنها لم تف عظمته حقها ، ولا قاربت من ذلك أو دانته ؛ وأنَّى لها ذلك وهو رسول الله ومصطفاه ، وحامل كلمته وناشر هداه ، إنما هى محاولات أو عبادات ، منها مايقف

عند الفروض ومنها مايتجاوز ذلك إلى بعض النوافل ، فأما الإحاطة والاستيعاب ، والإلمام بله الإطناب ، فذلك أمر تقصر عنه المدارك وتعجز عنه الأفهام ، ولا تبلغ مداه الأوهام .

هذا كاتب ينحو منحى السرد المجرد لوقائع السيرة الشريفة ؛ فيعنى بالتواريخ ويحدد الوقائع ، وذاك مؤلف همه التعليق على الحوادث واستخلاص مافيها من العبر والعظات ، و بيان ما اشتملت عليه من الباقيات الصالحات ، وثالث أَهَمَّتْهُ الناحية الخلقية التى جمع محاسنها القرآن الكريم فى قول الله العليم : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » ورابع عناه من الأمر ما يعنى المولَعين بأمور التشريع ، وخامس قيد بصره النور المشع من ذات الرسول هدياً و إرشاداً ، وحكمةً وسداداً ، وسادس وسابع . . . الخ . . الخ . وكلهم صائب القصد موفق الجهد ، وجميعهم قد وفى بحاجة ، وجاء بالحسنى فيما انتهجه و زيادة .

وكان من مؤلفى السيرة الأوائل فى صدر الإسلام من هم أصح منا إيماناً ، وأفصح بياناً ، وأكثر منا محبة للرسول عليه السلام ، وأشد التزاما لما توحى به سيرته الشريفة من صدق و إخلاص ؛ فانطبع أثر هذا كله فى مؤلفاتهم وملأها خيراً وبركة ، و إنى أقول هذا القول إحقاقاً للحق و إيذاناً بالصدق ، مع مافيه من حكم يلحقنى أثره ، ولا تفوتنى مغبته ، إذ الحق أحق أن يقال ، والصدق أولى بالمقال وأكرم بالرجال .

ثم كان من مؤلفى السيرة النبوية من تأخر عصرهم ، و بعدت الشقة بينهم و بين زمن الرسالة ؛ فاعتمدوا فى التأليف على مابين أيديهم من الكتب التى ورثوها عن السابقين الأولين . وأضافوا إليها مااقتضته طبيعة العصر الذى عاشوا فيه وما أوحت به الحضارة التى توسطوها من تعليق وتعليل وتفسير وتأويل ؛ فمنهم من وفق فى ذلك وأحسن ، ومنهم من اجتهد فأخطأ ، وكلهم مشكور على ما بذله من جهد ، وما وفق له من نتائج .

وقد قمت من هذه الاتجاهات المختلفة ، مقاماً وسطاً ، وقصدت من تأليف هذا الكتاب إلى أن أضع بين أبناء هذا الجيل ومَن يلونهم من الأجيال ، فى جميع البلاد الإسلامية ، كتاباً يأخذ من كل اتجاه بنصيب ، ويغنيهم عن الغوص فى بطون الموسوعات ، والتقلب بين مختلف المؤلفات ، واستندت فيه إلى أصح المصادر وأوثقها ؛ فليست فيه واقعة إلا وهى مستقاة من أصل معوَّل عليه بين العلماء ، مقطوع بصحته عند الأدباء .

وغنى عن التقرير أننى — والله يشهد — قد أفرغت فى هذا الكتاب جهدى ، وبذلت فيه كل طاقتى ، وحرصت على أن لا يخلو من جديد من الفكر ، يضاف إلى الثروة الذهنية التى خلفها لنا الأولون ؛ ولولا ذلك لكان من العبث بوقتى ، والعدوان على وقت القراء ، الاشتغال بما لا يفيد جديداً ولا يضيف حديثاً .

وكان من أول ما استأثر برغبتى فى هذا المؤلف ، حرصى على مخاطبة أبناء هذا الجيل باللغة التى يفهمونها ، مع مقاربة أسلوب الكتاب من الأسلوب العربى المبين ؛ ليتم التناسق بين الكتاب وموضوعه ، وتحوم عبارته حول المنهج البيانى الذى شرعه سيد البلغاء وإمام الفصحاء محمد بن عبد الله .

ثم إننى قد حفلت فى الكتاب بتصوير وقائع السيرة النبوية تصويراً لا تكاد تقع عليه أبصار القراء حتى تعرفه بصائرهم وتقبل عليه هاشة باشة فرحة مستبشرة ، ملفية فيه الصورة الصادقة الأمينة للرسالة المحمدية ، التى هدى إلى عرفانها القرآن الكريم وحددت معالمها الأحاديث النبوية الصحيحة ، والأقوال الصادقة المأثورة عن صحابة رسول الله ومن تبعهم بإحسان .

وقد اقتضى تنسيق الكتاب جعله فى مقدمة ، وقسمين :

وينصب الكلام فى المقدمة على وصف أحوال شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الرسالة المحمدية ، وبيان النواحى الآتية :

(ا) الناحية الاعتقادية عند العرب ومن كانوا يتأثرون به من جيرانهم .

(ب) الناحية الاجتماعية .

(ج) الناحية السياسية .

ويتألف القسم الأول من :

(ا) الإرهاصات التى تقدمت زمن الرسالة المحمدية .

(ب) مولد النبى عليه السلام وطفولته ويفاعته وشبابه حتى نزول الوحى عليه .

(ج) نزول الوحى وبدء الدعوة إلى الله ، وما تلا ذلك من حوادث حتى الهجرة .

ويشتمل القسم الثانى على ما يأتى :

(ا) استيطان النبى عليه السلام المدينة ، وما صاحب ذلك من احتكاك بينه وبين المنافقين واليهود .

(ب) الغزوات والسرايا .

(ج) انتشار الدين الإسلامى فى شبه الجزيرة .

(د) وفاة النبى عليه السلام .

والله ولى التوفيق .

محمد خالد

مقدمة

أحوال الجزيرة العربية والعالم

قبل ظهور الرسالة المحمدية

لا يعرف الشيء إلا إذا قورن بغيره وقوبل بسواه ، ولكى نستطيع الحكم على مبلغ ما أفاءته الرسالة المحمدية — على العرب خاصة وعلى العالم عامة — من خير وبركات ومجد وطيبات ، لا مندوحة لنا من وقفة طويلة ، نستعرض فيها ما كان عليه العرب من فوضى ضاربة الإطناب ، وما صاروا إليه بعد الإسلام من دولة عظيمة الجناب ، وملك واسع الأرجاء ، وبأس ثَلّ عرش القياصرة فى الشرق ، وترك عرش الأكاسرة أثراً بعد عين !

وكان مما ضاعف خطر الفوضى التى انتظمت العرب فى الجاهلية ، وجعلها ضرباً من ضروب الجنون الإنسانى ، أنها كانت شاملة جامعة ، مُسْتَوْعبة جامحة ، لا أثر فيها للعلم ، ولا ولاية للعقل ؛ بل جاهلية مطبقة ، ومفازة مهلكة ، وحياة لاحظ فيها إلا لمن اشتمل على سيفه ، واعتمد على رمحه ، وكان من قوة البدن ، ومتانة العضل ، وسعة الحيلة ، بحيث ينتزع نفسه انتزاعا من الأخطار التى تحف به من كل جانب ، وتحيط به من ذات اليمين ومن ذات الشمال .

هل أتاك حديث شرعة الغاب ، وما تنطوى عليه من وحشية وهمجية ، وكيف تعتمد قوانينها — إذا جاز أن تسمى قوانين — على البطش والفتك والكيد والغدر ، وكيف ترخص فيها الحياة ، وتهون المكارم وتنعدم الفضائل ، ثم كيف يأكل فيها القوى والضعيف . ويبطش فيها الخير بالشر ؟ ! . . إذا كنت قد قرأت شيئاً من هذا فضاعفه أضعافاً مضاعفة ، وكبّره عشرات المرات لكى تستوى أمام ناظريك صورة لحياة الصحراء زمن الجاهلية . وما أحسب أن خيال أهل هذا الجيل ،

وإن اتسع واستطال ، وأخصب وأثمر وبالغ وغالى ، متصور ما كانت عليه حياة الجزيرة العربية قبل ظهور الرسالة المحمدية ، إذ كانت طرازاً من الوجود لا نعرفه ولا ندركه ولا تفى أنباؤه التى احتوتها كتب التاريخ بوصف حقيقته ، على وجه يقار به بعض التقريب ، بله تمثيله أصح التمثيل .

وقد زاد من الجهالة بأمر العرب قبل الإسلام ، أنهم ما كانوا يدونون تواريخهم ، ولا يعتمدون فى ذكر أنبائهم وأنباء آبائهم وأجدادهم إلا على الرواية المستندة إلى الذاكرة ، وهى مهما نشطت واتسعت ، لا تعى إلا القليل ، ولا يصمد منها للبقاء إلا الأقل ، ولذلك ندرت أخبار الجاهلية ، وقلت قلة طوعت للكثيرين من الرواة أن يتقولوا عليها ، ويضيفوا إلى أنبائها ، المنقولة بالرواية الصحيحة ، أنباء غريبة كانوا يتطرفون بها فيما بعد لدى الخلفاء الإسلاميين ومن إليهم ، ويتعرضون لمنحهم بكل مصطنع جديد منها ، وعم الأمر حتى لحق الشعر وجميع فنون الآداب . وكتب الأدب فياضة بما كان من ذلك ولا سيما ما نسب إلى حماد الراوية من التلفيق والتزيد فى آداب الجاهلية ، واصطناع أخبارها اصطناعاً .

وقد قصدت من هذا الاستطراد القصير إلى بيان حقيقتين مهمتين هما :

(ا) أن الأنباء التى بين أيدينا عن جاهلية العرب قليلة جداً بالنسبة للحقب الطويلة التى اجتازوها حتى أصبحوا على النمط الذى فجأهم الإسلام وهم يحيون عليه .

(ب) أن هذه الأنباء — على قلتها — تطوع للنَّقَدَة الحكم بعمق الهاوية التى تردَّى العرب فيها أيام جاهليتهم ، وكيف أنه لولا أن تداركهم الله برحمة منه وفضل فهداهم إلى الإسلام ، لكان من اليسير على التاريخ أن يتخفف من بعض أثقاله فينسخ صفحات الجاهلية من كتابه ، أو يمعن فى إخفائها فلا يظهرها إلا على استحياء .

نظرة عامة إلى العالم قبل ظهور الرسالة

كان العالم فى نظر العرب قبل ظهور الرسالة المحمدية ، ممثلا فى دولتى الفرس والروم . وتشمل كلمة الروم دولتى الرومان الشرقية والغربية ، ولكن الدولة الغربية كانت بمعزل عن العرب ، ولم يكن احتكاكهم إلا بالدولة الشرقية ، ولا سيما فى الجزء الملاصق لهم من أملاكها ، وهو الشام .

دولة الأكاسرة

وكانت دولة الفرس هى الدولة المتصلة بالعرب أكبر الاتصال ، ولم تكن ذات كتاب ؛ بل كانت على المجوسية تعبد النار ، وتخضع لملوكها الأكاسرة خضوعاً تاماً يساوى العبودية ، وكان الشأن فيها مضطرباً ، ونظام الحكم غير قائم على أساس مستقر ، وكان الغالب عليه طبيعة الحاكم ، فإذا اتفق أن كان خيِّراً ، وقليلا ما كان يحدث ذلك ؛ استقام الأمر وقلت المظالم ، أما فى الأعم الأغلب فقد كان الأكاسرة قوماً طغاة متجبرين ، لا يرجعون فى أحكامهم إلى كتاب سماوى ، ولا يصدرون فى سياستهم عن قانون يمت إلى الإنسانية الرحيمة بسبب أو يدلى إلى مكارم الأخلاق بنسب ؛ بل كان دستورهم فى الحكم ، هواهم المطلق وشهوتهم الجامحة ؛ و بلغ الشأن بهم فى زمن من الأزمان أن سادتهم الشريعة المزدكية وهى شريعة خليعة ماجنة ، ابتدعها رجل مأفون اسمه مانى ونادى فيها بالشيوع فى الأموال والأعراض ، يشارك كل فرد فيها إخوانه فى العقيدة فى أموالهم ونسائهم وكل مقتنياتهم ، وقد خيمت الفوضى التى جلبتها هذه الشريعة الماجنة على الفرس زمناً طويلا ، ولم تنج منها إلا على يد كسرى أنوشروان ، وهو الملك الذى ولد النبى عليه السلام فى عهده ، وسمى الملك العادل لأنه أنقذ دولته من الفوضى التى وصفناها ، وعمل على إشاعة العدل بين الناس والتسوية بينهم فى الحقوق والواجبات .

ويستخلص من هذا البيان الوجيز أن دولة الفرس لم يكن لها شأن يذكر فى تقدم الحضارة العالمية ، بل أنها لم تكن تستحق الذكر فى مقام التحدث عن الدول التى أحسنت سياسة شعوبها ، وعدلت بين مواطنيها .

وقد ذكرها التاريخ على أنها دولة ذات سلاح ، تقوم فى أرض كثيرة الخيرات ، وينتمى إليها خلق كثير يعد بالملايين ؛ ومن أجل ذلك ، درجت على الاحتكاك بجيرانها الأقربين والأبعدين ؛ فكانت تنتصر مرة وتنهزم أخرى ، وقد كانت آخر مواقعها بعد ظهور الرسالة المحمدية ، فقد حاربت الروم وانتصرت عليهم ، ولما ورد نبأ هذا النصر فرح له كفار قريش ، لأن الفرس كانت دولة وثنية مثلهم ، وكانت دولة الروم دولة ذات كتاب إذ كانت على المسيحية . ووجه الفرح عند قريش أنهم استبشروا بانتصار الوثنية التى يتعبدون بها مثل الفرس على دولة ذات كتاب سماوى تعبد الله العلى القدير مثل ما يدعو إليه محمد بن عبد الله من ذلك ، فأنزل الله على نبيه هذه الآيات :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ . وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

وقد صدق وعد الله ، فانتصرت الروم على فارس فى السنة السادسة الهجرية ، وهى السنة التى أرسل فيها النبى عليه السلام كتبه إلى الملوك ، بعد قصة الحديبية .

هكذا كان شأن دولة الفرس ، وهو شأن لا يختلف كثيراً عن شأن شريعة الغاب يقوم على القوة مثله ويتبع وسائله .

ولم يكن لهذه الدولة — خارج هذه الدائرة — نظام يحتذى ، أو مدنية يصح أن يقتدى بها ، وهذا التقرير يجعل للعرب القاطنين فى الصحراء القاحلة شيئاً من العذر فيما درجت عليه حياتهم من الغزو والحركة الدائبة ، إذ الأمر فى نهايته متماثل والنتائج متوافقة ، ولا فارق بينها إلا من حيث الضآلة والجسامة ؛ فهناك دولة تحارب أخرى لا لتفرض عليها مذهباً ينهض بحياتها ويقوّم أخلاقها ، بل لتتملك أرضها وتتحكم فى رقابها ، وهناك قبيلة تغزو قبيلة أخرى لتستولى على ماشيتها ، وتسبى نساءها ؛ فالدوافع واحدة ، والنتائج متماثلة ، وإن اختلفت قلة وكثرة وتباينت قوة وضعفاً . ولولا الخوف مما يتتبعه الاستطراد من الخروج على الغرض من هذا الكتاب لأطلنا فى هذا المقام ، إنما أردنا أن نبين فى إيجاز ، كيف كانت سياسة دولة الفرس ، وكيف أنها كانت غير ذات فضل على الحضارة العالمية ، ولم تكن تُسْهِم فى تقدم الإنسانية بكثير أو قليل ، وإنما كانت دولة وثنية همها الترف ، ودأبها السفه ، ونظرة ملوكها إلى الحياة محدودة بما يرضى الشهوات ويشبع الأهواء ؛ فهى على الحقيقة لا تفضل العرب إلا بالقوة ، وقد أدالهم الله منها فنصروا عليها فى وقعة ذى قار على يد هانىء بن مسعود ، رئيس بنى شيبان .

وقد كانت هذه الواقعة بعد ظهور الإسلام فى السنة الثانية الهجرية بين غزوتى بدر وأُحد كما حدد ذلك المؤرخون ، ثم أجهز عليها الإسلام فى واقعة القادسية على يد سعد بن أبى وقاص فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

دولة الروم

جاء الإسلام والديانة المسيحية حديثة العهد ، فلم يكن مضى على مبعث السيد المسيح صلوات الله وسلامه عليه أكثر من ستة قرون ، مضى أكثرها وأتباع هذه الديانة مغلوبون على أمرهم مُعَرَّضُون لجميع أنواع العذاب والابتلاء ، شأنهم فى ذلك شأن أتباع الديانات السماوية أول نشأتها . وسيرى القراء مصداق ذلك فى هذا

الكتاب عندما نعرض لما ابتلى به النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأولون من قريش ، وما تعرضوا له من الأذى على يد عبدة الأوثان .

ولم ترسخ قدم الديانة المسيحية إلا عند ما اعترف بها الامبراطور قسطنطين الأكبر فى مرسوم معروف باسم مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ ميلادية أباح فيه حرية الاعتقاد فى إمبراطوريته .

ولسنا متجنين على أحد إذ قررنا أن قياصرة الروم لم يتأثروا كثيراً فى سياستهم وملكهم باعتناق المسيحية . ذلك أنهم مضوا فى شأن الملك ، وسياسة الأمم المختلفة التى كانوا يحكمونها على ما جرت عليه عادتهم قبل الاعتراف بالمسيحية ، فقد ظلت النظم هى هى ، والقوانين هى هى ، والعادات كما كانت ، والتقاليد لم يطرأ عليها أى طارىء ، ولم تلحقها أثارة من الدين السماوى الجديد الذى اعتنقوه ، أما الظاهرة الكبرى التى نشأت من هذا التغيير فى العقيدة ، فهى الإقبال على نشر هذه الديانة والمغالاة فى ذلك مغالاة تضارع المغالاة فى التنكيل بمعتنقيها قبل أن تقرها الدولة .

ويستخلص من ذلك أنه على الرغم مما توصى به المسيحية من إخاء وتسامح وحب وغير ذلك من الفضائل التى أوصى الله بها جميع أنبيائه ، وجعلها أساساً لكل شرائعه ، لم تتشرب نظم الدولة السياسية والاجتماعية شيئاً من ذلك ، ولم تطبع بطابعه ، بل مضت على غلوائها قبل اعتناق الدولة هذه الديانة ، وظلت الأمم التى كانت تابعة للدولة الرومانية من شرقية وغربية ، محكومة بالنظم والأساليب التى كانت محكومة بها قبل هذا الحدث التاريخى الكبير . وهى نظم وضعت قبل ظهور المسيحية وظلت سائدة إلى أن جاء الإسلام .

وعلى ذلك يمكن القول بالتفرقة بين هذه الديانة و بين معتنقيها ، كما يمكن أن يقال بهذه التفرقة من غير تحرج بين الديانة الإسلامية ومعتنقيها هذه الأيام فإن هناك

فرقاً كبيراً و بوناً شاسعاً بين تعاليم الإسلام و بين أعمال المسلمين اليوم . فلو أن المسلمين عادوا إلى سيرتهم الأولى أول ظهور الإسلام لعاد إليهم مجدهم الغابر ، ولاستأنفوا العظمة التى بلغوها يوم كانت كلمتهم العليا ورأيهم المطاع .

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى الكلام عن دولة الروم ، فأقول : إن هذه الدولة بقسميها : الغربى والشرقى ، لم تتأثر بتعاليم الديانة المسيحية بل ظلت سادرة فى غلوائها ، ماضية على خطتها ، من ظلم الشعوب ، وهضم الحقوق ، والبعد كل البعد عن وصايا الديانة التى اعتنقتها ، وعلى ذلك أصبحت فى نظر الأمم التى كانت تحكمها ، والشعوب التى كانت تجاورها ، وكأنها لم تأت بجديد ولم تتأثر بحديث بل اكتفت بطى هذه العقيدة فى صدرها والقيام بطقوسها ومراسمها فى الكنائس والمحافل الدينية ليس غير ؟

وليس من همى فى هذا الكتاب أن أتوغل أكثر من ذلك فى هذا الموضوع الدقيق ، ولكننى أكتفى بالقول : إن الشعوب التى كانت تابعة للدولة الرومانية بقسميها رأت فى الإسلام حين عرض عليها ممثلا فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، أموراً لم ترها فيمن كانوا يلون أمورهم ، ولهذا أقبلوا على الإسلام ودخلوا فيه أفواجاً ، واستمتعوا بما كان حراماً عليهم حلًّا لحكامهم من حرية شاملة ، وعدل مطبق ، وتحنث من الحكام والولاة لم يروا مثله ، ومساواة بين الناس صغيرهم وكبيرهم و بين الحاكم وأفراد الرعية لم ير التاريخ لها نظيراً ولم يعرف العالم لها ، شبيهاً وحسبك بالمثل الذى ضربه عمر بن الخطاب فى العدل والاقتصاص بين ابن عمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها على عهده ، و بين الفلاح المصرى الذى ضربه ، فقد سافر المصرى إلى المدينة مطالباً بحقه وشكا إلى عمر أمره ، فأرسل فاستحضر عمرو بن العاص وابنه فلما حضرا وسمع القضية من الطرفين ، أمر المصرى أن يقتص من ابن عمرو ، وقال له استهزاء : اضرب ابن الأكرمين ! ففعل ، ثم قال له : اضرب عَمْرا فأبى وقال : لو ضربنى لضربته !

هذا ماجاء به الإسلام من تعاليم عمل بها ودخلت فى صميم سياسته وصارت مصدراً للحكم والتشريع ، وقانوناً مطبقاً فى جميع نواحى الحيـاة وعلى سائر أفراد الناس ، من عامتهم إلى خاصتهم ومن الحا كمين إلى المحكومين . وهذا مالم يكن للناس به عهد ، ولا عرف له بينهم أو فيما تناقلته الأخبار شبيه أو نظير !

ونخلص من هذا كله إلى تقرير حقيقة واضحة لاشك فيها ولا خلاف عليها ألا وهى أن الدين الإسلامى قد اختص بخصوصية لم تـكن لغيره من الأديان المعروفة وهى كينونته مصدراً للتشريع العام سواء فى ذلك ما اتصل بالمعاد أو انصب على المعاش . لا شرع غيره ولا قانون سواه . وكل ما يعرض من أمور لم يأت فيها بنص من القرآن أو الحديث الصحيح قيس على غيره مما هو شبيه به أو قريب منه . وعلى هذا أصبحت ولاية الدين عامة وحياطته شاملة . وانطبعت تعاليمه فى الصحابة وعمالهم وجميع من اتصل بهم فى عمل أو ولاية حتى كانوا لا يصدرون إلا عنه ولا يتأثرون إلا به ولا يقضون فى صغيرة ولا كبيرة فى أى شأن من شئون الدنيا والآخرة إلا بهدى من تعاليمه وتحت ضوء من إرشاده .

الناحية الاعتقادية عند العرب

كان العرب الأول من ذرية إسماعيل ، على دين أبيهم إبراهيم ، ولـكنهم لما كثروا بمكة وضاقت عن أن تفى بأرزاقهم تفرقوا فى شعاب الجزيرة ووديانها ، يطلبون الرزق . وقد ذكر المؤرخون أن كل قبيلة هاجرت من مكة أخذت معها حجراً من أحجار الحرم للذكرى والطواف به ولما تطاول بهم العهد ونُسِىَ السبب الذى من أجله حمل هذا الحجر من مكانه عُبد على صورة ما من صور العبادة ، فبعض الأصنام كان يعبد لذاته و بعضها يعبد تقرباً إلى الله ووسيلة إليه ، وقد قال الله على لسان عبدة الأصنام :

« مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » .

وذكر السهيلى فى التعليق على السيرة النبوية لابن هشام :

« يقال لـكل صنم من حجر أو غيره صنم ولا يقال وثن إلا لما كان من غير

صخرة كالنحاس ونحوه . وكان عمرو بن لُحَىّ حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة قد جعلته العرب ربًّا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شريعة لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم فربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، حتى أَلَّه اللَّاتّ[1] الذى كان يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى اللَّاتّ . ويقال إن الذى يلت كان من ثقيف فلما مات ، قال لهم عمرو : إنه لم يمت ، ولكن دخل فى الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتاً يسمى اللَّاتّ ، ويقال دام أمره وأمر ولده على هذا بمكة ثلاثمائة سنة ، فلما هلك سميت تلك الصخرة اللَّاتّ مخففة التاء واتخذ صنما يُعْبَد » .

وقال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَىّ ، خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد عملاق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ! فأعطوه صنما يقال له : هُبَل ، فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه » .

ثم اتسع الأمر بالعرب واختلط عليهم الرأى ، فعبدوا كل ما استحسنوه من الحجارة والأشجار ، فقد عبدت قبيلة نجران نخلة وأقامت لها موسماً سنوياً تحتفل بها .

واتخذت بعض القبائل طواغيت تعظمها كتعظيم الكعبة ، وجعلت لها سدنة وحجاباً وتهدى لها كما يهدى إلى الكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهى تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده .

ولم يكن لهذه العبادة أثر فى تهذيب النفوس أو الاستمساك بعرى الأخلاق الفاضلة ، إذ كانت الأشياء المعبودة حجارة صماء ، لا تنطق ولا توحى بخير ، ولا تحفز

---

(١) لت السويق أى عجنه .

عابديها إلى الهدى والاستقامة وأنّى لها ذلك وهى حجر صلد ، ومبلغ الأمر فيها أن عابديها حصروا فائدتهم منها فيما توهموه من أنها تبارك أعمالهم و إن كانت سيئة للغاية ، وتنصرهم فى حروبهم ، ولو كانت حروباً حفز إليها الطمع والجشع وقاد إليها ما ركب فى طبائعهم ، من حب السلب والنهب ، والفتك والغصب ، والعدوان على الجار ، وقطع الطريق على السابلة و إتيان كل منكر بغية الإفادة منه وتحقيق المغانم من ورائه .

وكان من المناسك التى أجمع العرب على احترامها من قديم ، جعل أربعة أشهر من شهور السنة حراماً لا يحل فيها قتال وهى : المحرم ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والحكمة فى ذلك ظاهرة ، وهى القصد إلى سيادة الأمن على الجزيرة فى هذه الأشهر ليقضى الناس فيها مناسكهم و ينجزوا أعمالهم تحت ظل الأمن والسكينة ولكن ما لبثت الطبيعة النزاعة إلى الشر أن عبثت بهذه الشرعة الحكيمة فنصب أناس من العرب أنفسهم لإحلال القتال فى بعض هذه الأشهر و إحلال شهر آخر محلها فى التحريم وفى هذه نزل القرآن الكريم :

« إنما ٱلنّسِىءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَه عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ » .

وهكذا مضت الحياة فى الجزيرة العربية أيام الجاهلية على مَسْخ من العقيدة لا هو بالمفيد النافع ولا هو بالثابت المستقر ، وفوق هذا وذاك لم يكن بذى أثر إطلاقاً فى تكوين رابطة ، أو تثقيف جماعة ، أو إنشاء دولة تجتمع العرب تحت رايتها و يكون لها شأن فى سياسة العالم كما كان من ذلك حين جمع الله العرب على الإسلام ونشر كلمته فى معظم المعمور من العالم فى أقل ما يمكن من الزمن قياساً إلى انتشار الدعوات الدينية التى تقدمت الإسلام .

وننتهى من هذا كله إلى القول ، بأن الناحية الاعتقادية عند العرب قبل الإسلام كانت أضعف نواحى الحياة عندهم وأسخفها وأقلها أثراً فيما يصدر عنهم من أعمال

وأقوال ، بل أولى من ذلك وأحق أن يقال : إنها كانت الناحية التى قضت عليهم باعتبارهم عنصراً مهيأ لتكوين دولة منظمة فحالت بينهم و بين أن يصبحوا كذلك ، وفرقتهم أيدى سبا ، وجعلت منهم فرقاً وقبائل وأفخاذاً تتناحر حتى تتفانى وتتقاتل فى ناقة [١] أربعين عاماً !

الناحية السياسية عند العرب

لم يكن للعرب اتجاه سياسى محدد يجمعون عليه ، أو هدف يدلفون نحوه ، أو غاية سامية ينزعون إليها ، ونحن إنما نتكلم عن هذه الناحية على يقين من أنها لم تكن معروفة عندهم ولا مصورة فى أخيلتهم ، إنما كانت العادة تجرى بأن يرأس كل قبيلة أقواها بأساً ، ثم تضطر الأحوال القلقة المضطربة قبيلة أو أكثر لعقد حلف مع مجاوريها من القبائل ، وكانت الأحلاف تعقد غالباً بنية العدوان على قبائل أخرى ونهب أموالها وسبى نسائها وذراريها واستعبادهم .

هذا فيما يتصل بداخل الجزيرة العربية وعلاقات القبائل بعضها ببعض ، فلم تكن هناك رياسة معترف بها لقبيلة من القبائل على القبائل الأخرى ، ولا نستثنى قريشاً من ذلك فقد تعرضت لعدوان قبائل أخرى عليها ، وحروب الفجار ، التى شهد النبى صلى الله عليه وسلم بعضها ، أكبر دليل على ذلك .

أما من الناحية الخارجية ، فقد كان معظم أنحاء الجزيرة العربية مشمولا بنوع من أنواع التحكم السياسى لدولة الفرس وكان ينوب عنها فى رعاية هذا الوضع ، آل المنذر بالحيرة ، وكان هناك جزء آخر من الجزيرة مما يلى الشام يشرف عليه الغساسنة من قبل الروم ، وكان للفرس وضع سياسى فى اليمن نتج عن استجابتهم لاستغاثة بعض أبناء ملوك اليمن السابقين بهم على إجلاء الأحباش من بلادهم وحلولهم محلهم . وقد استمر هذا الوضع إلى ما قبيل ظهور الإسلام وانتهى بوفاة المندوب الفارسى ونشأة

---

(١) هى ناقة البسوس وقصتها مشهورة .

طراز من ملوك الطوائف وضع كل واحد منهم يده على ما يليه من الأرض والبلاد ، وقد جاء الإسلام والشأن هكذا فى اليمن ، ففيها رؤساء وأقيال وملوك

وكانت القبائل العربية تعترف بالأوضاع السياسية التى كانت للروم أو للفرس . ولا تجد فى نفسها غضاضة منها ، بل كانت تفخر بها و يعتد كل زعيم من الزعماء بما يناله من الحظوة عند آل المنذر بالحيرة أو آل غسان بالشام ، وكان الفوز بنصيب أكبر من هذه الحظوة مناط التفاخر وغاية المجد والجاه .

وكان آل المنذر ينتخبون طائفة من زعماء القبائل ، الفينة بعد الفينة و يوفدونهم إلى كسرى ، ليقدموا إليه الولاء وليتفكه هو بما يرى من بداوتهم وخشونتهم ، وما يسمع من أقاصيصهم وطرائف وقائعهم ، وقد تكفلت كتب التاريخ بسرد أنباء هذه الوفادات فلا داعى لحشرها فى هذا المقام ، وإنما عرضنا لذكرها لنبين مبلغ تفتت العرب وضآلة شخصيتهم السياسية فى الجاهلية ليتسق للقارىء مقارنة هذه الحال الوضيعة بما صاروا إليه فى عز الإسلام ، وكيف مكن الله لهم بهذا الشرف العميم فأصبحوا بفضله سادة الأرض ودكوا عروش الأكاسرة والقياصرة ، وصار رعاة الشاء وحداة الإبل خير أمة أخرجت للناس وذلك بفضل الرسالة المحمدية وعز الراية الإسلامية .

الناحية الاجتماعية عند العرب

أسلفنا الكلام على الناحيتين : الاعتقادية والسياسية عند العرب فى الجاهلية ، وهما شر بحت ورجس محض ، لم نستطع أن نجد فيهما منفذاً نخلص منه إلى تسجيل مكرمة أو رواية فضيلة ، ولكن الأمر على غير هذا النمط فيما يتصل بالناحية الاجتماعية فقد اشتملت على النقيضين : فحيناً تتسامى وتتصاعد حتى تبلغ الذروة ، وآناً تتسفل وتنحدر حتى تهوى إلى قاع سحيق من الرذيلة والانحطاط ، وسنضرب فيما يلى أمثلة على هاتين الناحيتين .

أما الناحية الأولى فمنها :

النجـدة : كانت النجدة على رأس الفضائل العربية فى الجاهلية ، وقد أثرت عنهم فيهاوقائع ذهبت مذهب الأمثال ، وأصبحت من أعلام التاريخ ؛ فكم من مرة استجاب فيها عربى لداعى النجدة فضحى بنفسه وآله طيب النفس بما أقدم عليه غير آسف على ما صنع ، ولا نرى فى هذا المقام مثلا أروع ولا ذكراً أبقى ولا صورة أصدق على النجدة مما أقدم عليه بنو شيبان فى أمر النعمان بن المنذر ملك العرب النائب عن كسرى حين فسد الأمر بينهما وصمم كسرى على قتل نائبه ، وحديث ذلك يطول وهو مبسوط فى كتب الأدب والتاريخ وخاصة كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وخلاصته :

وشى بعض بطانة كسرى بالنعمان إليه وملأه حقداً عليه بسبب ما أباه النعمان على كسرى من المصاهرة ، فقد خطب إليه كسرى إحدى بناته فرفض جرياً على عادة العرب من الأنفة أن يزوجوا بناتهم للأعاجم ولو كانوا ملوكا . وأحس النعمان ما يبيت له كسرى من الغدر وكان قد دعاه إلى زيارته فى عاصمة ملكه فاحتمل نفسه وآله وغادر الحيرة مستجيراً بزعماء القبائل فلم يجره أحد خوفاً من كسرى وجبروته ، ولكن قبيلة شيبان سمعت لهذا الأمر واستجابت لداعى النجدة ، وكان زعيمها هانىء ابن مسعود ، فقال للنعمان فيما قال له : اذهب إلى صاحبك وحاول استصلاحه . فإن قبل منك فذاك وإلا مت كريماً ، فلأن تموت ملكا خير من أن يتخطفك ذؤبان العرب !

فقال النعمان : و بناتى ونسائى ؟ .

فقال هانىء : إننى أمنعهن مما أمنع منه أهلى وعيالى .

فرضى منه النعمان ذلك وعمل بنصحه ، فأودعه آله ورحل إلى كسرى فقتله وجرد حملة على بنى شيبان فتداعت لنصرتها القبائل وهزموا جيش كسرى .

هذا هو أبلغ مثل نضرب به على النجدة الجماعية فى أهول موقف تلتمس فيه ، وأعظم مقام تقوم له ، ولست أحب أن أطيل على القراء بالتوسع والإطناب فى الحديث

عن العظمة النفسية التى تجلت فى بنى شيبان ومن آزرهم من القبائل حين تصدوا لكسرى وأجاروا عدوه ، ولا لما عرّضوا أنفسهم وآلهم خاصة والعرب عامة له من عواقب ومغبات ، فإن هذا مما لا ينبغى أن يفوت إنسان أو يحتاج فيه أحد إلى مزيد من البيان !

وقد روى صاحب الأغانى فى سند مرفوع إلى عبد الله بن العباس ، أن واقعة ذى قار ذكرت عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

« ذلك يوم انتصفت فيه العرب من العجم و بى نصروا » .

وروى أن النبى عليه السلام ، مثلت له الواقعة وهو بالمدينة ، فرفع يديه فدعا لبنى شيبان أو لجماعة ربيعة بالنصر ، ولم يزل يدعو لهم حتى أُرِىَ هزيمة الفرس .

وروى كذلك . أنه قال :

ليهْنِ بنى ربيعة ، اللهم انصر بنى ربيعة ، فهم إلى الآن إذا حاربوا دعوا شعار النبى عليه السلام ودعوته لهم ، وقال قائلهم :

يارسول الله وعدك ، فإذا دعوا بذلك نصروا .

الكرم : ومن مفاخر العرب ذهابهم فى الكرم إلى حد الجود بالنفس فأما الجود بالطعام وبالمال فإن مآثرهم فيه أشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تدون ، وحكايات حاتم طيئ وعروة بن الورد وكعب بن مامة مشهورة معروفة قد تناقلتها الكتب وصارت مضرباً للأمثال ، وتغنى بها الشعراء وتحدث بها الأدباء .

الشجاعة : والحديث عن شجاعة العرب فى الجاهلية حديث معاد ، ولم تكن الشجاعة عندهم حلية أو تظاهراً بل كانت قوام حياتهم ولا عيش هناك لجبان ، ومن هنا يصح القول بأن هذه الصفة كانت عامة فيهم وقد اقتضتها وظيفة الدفاع عن النفس وحماية الأعراض ، وغاية الأمر أن بعض الأفراد كان يتفق لهم أن يجمعوا بين الشجاعة قوة الجسم وخفة الحركة ومزيداً من الجرأة فيرقوا إلى مصاف الأبطال .

الناحية الأخرى : و يقتضينا الأمر أن نطوى هذه الصحيفة متلفتين إلى الصحيفة الأخرى كارهين إذ نرى فيها أشنع ماتقع عليه عين ناظر وأفظع ما يوصم به حيٌّ كائن : نرى العرب يئدون بناتهم العزيزات خوفاً من الفقر و بخلا عليهم بفتات العيش .

ونرى الخمر متفشية فيهم يدمنون عليها و ينفقون على ثمنها معظم ما يفيدون من كسب وما يملكون من مال غير متأثمين منها ولا مبالين بما تعرضهم له من نتائج محرجة ونهايات سيئة .

ونرى الميسر غالباً عليهم ، يقامرون بأموالهم ونسائهم وأنفسهم إذا فرغوا من المقامرة بما يملكون من مال ومتاع ، وأسوأ مثل يضرب على ذلك مارواه صاحب الأغانى فى الجزء الثالث ، من كتابه قال :

« قامر أبو لهب ، العاصى بن هشام المخزومى فى عشر من الإبل فقمره أبو لهب ثم فى عشر فقمره ، ثم فى عشر فقمره ، ثم فى عشر فقمره ، ثم فى عشر فقمره ، إلى أن خلعه من ماله فلم يبق له شىء ، فقال له : إنى أرى القِداح[1] قد حالتك يابن عبد المطلب ! فهلم أقامرك ، فأينا قُمِرَ كان عبداً لصاحبه قال : أفعل ، ففعل ، فقمره أبو لهب فكره أن يسترقه فتغضب بنو مخزوم ، فمشى إليهم وقال : افتدوه منى بعشر من الإبل ، فقالوا : لا والله ، ولا بو برة ! فاسترقه ، فكان يرعى له الإبل إلى أن خرج المشركون إلى بدر ، وكان من لم يخرج ، أخرج بديلا ، وكان أبو لهب عليلا فأخرجه وقعد ، فقتله على بن أبى طالب رضى الله عنه » .

هذا مثل يدل على أسوأ صورة ينحط فيها المجتمع حتى يفقد إنسانيته ويتعرى من مقوماته البشرية ، و يصبح هو والبهائم سواء بسواء .

وكان من أسوأ سوآت العرب فى الجاهلية تحكيم السيف فى الحريات العامة ، فكل أسير حرب ينقلب عبداً إذا لم يفتد نفسه بما يفرضه عليه آسره من فداء ،

---

(١) القداح آلة الميسر فى الجاهلية .

وهكذا كان يصبح العربى سيداً فى قومه ويمسى عبداً يباع ويشرى إذا صار أسير حرب !

أما الأموال التى يضع الجيش المنتصر يده عليها فإنها تصبح ملكا له ولا سبيل إلى استردادها إلا بالطريقة نفسها ، وقد كان غزو قبيلة قبيلة أخرى وسلبها أموالها أهم وسائل الحياة عند العرب وأول مقوماتها . ومن طريف ما يحكى فى هذا المقام — إذا كان للطرافة هنا موضع — أن أحد زعماء القبائل عرض على زعيم قبيلة مجاورة له أن يتحالفا فلا يغزو أحدهما الآخر فأبى المعروض عليه ذلك . وكان زعيما قوياً وقبيلته أكثر عدداً وأعظم بأساً من القبيلة الأخرى ، وقال :

ومن أين تأكل قبيلتى ؟ ! . .

وكان من عادات العرب السيئة زواج نساء آبائهم وظلت هذه العادة قائمة حتى أبطلها الإسلام .

وليس من المستطاع حصر سوآت العرب الاجتماعية فى الجاهلية إذ المقام لا يتسع لها إنما همنا أن نضرب أمثالا عليها تطوع للحكم بأنهم كانوا فى حال من البداءة والضراوة والكَلَب مرنوا عليها حتى استساغوها ، ولم يكن لديهم من سعة الأفق وبعد النظر مايبصرهم بسوء ما كانوا فيه فضلا عن التطلع إلى ماهوأفضل منه ، ومازالوا هكذا يخبطون فى أمورهم خبط عشواء وينتقلون من سيء إلى أسوأ ، حتى منّ الله عليهم بالهدى بعد الضلال ، وبالنور بعد الظلام ، فشرفهم بالإسلام وأكرمهم بالإيمان ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

القسم الأول

التمهيد لظهور الرسالة المحمدية

إرهاصات وتنبؤات

حين استشرى الشر وعمت الفوضى وطمت ، وانغمست الجزيرة العربية فى ظلام دامس ، وغشى العالم كله من الهول والاضطراب والقلق والضياع ما غشيه ، وأصبح لاعاصم للخلق ولا داعى إلى الخير ، وصار العالم فى فتنة هوجاء وداهية دهياء ، تلفتت القلوب المستنيرة — وقد كانت موجودة على قلة — تلتمس داعى الهدى ، وتتوقع ظهور البشير النذير محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وجد هؤلاء المتلمسون ملتمسهم دانى الظهور ، وعرفوا بواسطة دلائل مختلفة تمثلت فى إرهاصات عجيبة ، وظواهر شتى ، أنهم قد أظلهم أوان هذا النبى الأمى الأمين ، فأخذوا يتوقعون مبعثه يوماً بعد يوم .

المحمدون الثلاثة

وبلغ بهم اليقين من ذلك أن جماعة منهم وقد امتلأوا إيمانا بحلول موعد الرسالة وقرب ظهورها وأن اسم الرسول المنتظر « محمد » ، سموا أبناءهم محمداً ولم يكن هذا الاسم مألوفاً بين العرب ولا تسمى به أحد منهم قبل هذا الزمن .

قال صاحب الروض الأنف :

« لا يعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرب زمانه وأنه يبعث فى الحجاز — أن يكون ولداً لهم وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جَدّ جَدّ الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسى ، والآخر محمد ابن حمران بن ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده

من علم الـكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم و باسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا فنذر إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ففعلوا ذلك » .

يهود يثرب يتنبأون بالنبى العربى

قال الطبرى فى تاريخه :

«كان تُبَّع : أسعد أبو كرب ملك اليمن مرَّ بيثرب مشرقاً فلم يهج أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة[١] ، فقدمها وهو مجمع لإخرابها ، واستئصال أهلها وقطع نخلها ، فجمع له هذا الحى من الأنصار حين سمعوا بذلك من أمره ليمتنعوا منه ورئيسهم يومئذ عمرو بن الطلة أحد بنى النجار ، فخرجوا لقتاله ، وكان رجل منهم قد قتل رجلا من أصحاب تبع ، وجده فى عَذْق[٢] له يجذه ، فزاد ذلك تبعاً عليهم حنقاً ، فبينما تبع على ذلك من حربه وحربهم ، يقاتلهم ويقاتلونه ، قال : فتزعم الأنصار ، إنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إن قومنا هؤلاء لـكرام ، إذ جاءه حبران من أحبار يهود بنى قريظة ، عالمان راسخان حين سمعا منه مايريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له :

أيها الملك لا تفعل ، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة .

فقال لهما : ولم ذلك ؟

فقالا : هى مُهَاجَر نبىٍّ يخرج من هذا الحى من قريش فى آخر الزمان ، تـكون دارَه وقرارَه . فتناهى عند ذلك من قولهما عما كان يريد بالمدينة ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمعه منهما فانصرف عن المدنية» .

نجم أحمـــــد

ومن هذا القبيل ماروواه ابن إسحاق فى السيرة النبوية عن حسان بن ثابت رضى الله عنه ، قال حسان :

(١) غيلة : أى غدراً .　　(٢) العذق : النخلة بحملها .

« والله إنى لغلام يَفَعَة [١] ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ماسمعت ، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطَمَة [٢] بيثرب :

يا معشر يهود ، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ! مالك ، قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به » .

ملك اليمن يبشر عبد المطلب بن هاشم
بولادة الرسول من صلبه

ذكر صاحب الروض الأنف : أن عبد المطلب بن هاشم جد الرسول عليه السلام ، وفد إلى ملك اليمن وهو إما سيف بن ذى يزن أو ابنه معدى كرب فى ركب من قريش، فقال له :

مرحباً بابن أختنا [يشير إلى أن أم عبد المطلب من الخزرج وأصلهم من اليمن] وأهلا ، وناقة ورحلا ، وملكا سبحلا [٣] ، يعطى عطاء جزلا ، ثم بشره بالنبى صلى الله عليه وسلم وأنه من ولده .

فقال له عبد المطلب : مثلك أيها الملك سَرَّ وبَرَّ ، ثم أجزل الملك حباءه ، وفضله على أصحابه ، وانصرف مغبوطاً على ما أعطاه الملك ، فقال :

والله لما بشرنى به أحب إلى من كل ما أعطانى .

البقية تأتى

هذا قليل من كثير مما جاء من البشائر عن قرب مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، اجتزأنا به لنضرب به المثل على تهيؤ الأذهان للرسالة المحمدية ، وقيام البراهين على قرب موعد ظهورها ، وسنعقب عليه بفيض زاخر من قبيله عند الكلام على مولده صلى الله عليه وسلم وما صاحبه وساير طفولته ويفاعته من الآيات البينات ، والظواهر الخارقات .

---

(١) غلام يفعة . أى قوى .

(٢) أطمة ، أى حصن أو مكان مرتفع .

(٣) سبحلا . ضخما .

مولد الرسول عليه السلام

حقق العالم المصرى الكبير المرحوم محمود الفلكى باشا ، تاريخ مولد النبى العربى الكريم ، تحقيقاً علمياً انتهى منه إلى أنه صلى الله عليه وسلم ولد فى صبيحة الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق اليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ ميلادية وذلك عند العرب عام الفيل .

على أن المشهور فى تاريخ ولادته الشريفة ، هو أنه ولد فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل ، وقد أصبح هذا التاريخ معترفاً به اليوم فى جميع الأقطار الإسلامية ، تعطل فيه الأعمال الحكومية ، ويتوجه فيه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الله العلى القدير بالشكر ، أن تجلت رحمته بهم ، فأكرمهم بهذا النبى الأمين ، وهداهم إلى صراطه المستقيم .

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

عمود النسب النبوى الشريف

ولد محمد رسول الله لأبيه الكريم عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وهناك من النسابين من يرفع هذا العمود إلى نبى الله إسماعيل ، ولكن ورد فى الأثر الشريف : أن النبى عليه السلام ، كان يعرض عنه لما فيه من التخليط وتغيير الأسماء .

وأياً ما كان فالثابت المحقق والأمر الذى لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه ، هو أن نسب النبى عليه السلام منته إلى إسماعيل بن إبراهيم خليل الله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول

كان عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيما ذكره المؤرخون ، أجمل رجال قريش وأنبل فتيانها ، وكان يعمل فى التجارة شأن الغالبية من قريش ، وقد حدث بعد زواجه من السيدة آمنة أن بعثه أبوه إلى المدينة فى ميرة يحمل لهم تمراً فأدركه الأجل بها ، وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته بالنسبة لتاريخ مولد الرسول عليه السلام فذهب بعضهم إلى أنها كانت بعد ولادته وقال آخرون إنها كانت وأمه فى شهرين من حمله ، وهو الأرجح .

وقد توفى عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول عليه السلام وهو دون العشرين من عمره .

آمنة بنت وهب والدة الرسول

أما والدة الرسول عليه السلام ، فهى السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب بن مرة ، زهرية قرشية تلتقى بابنها السيد الرسول عليه السلام فى جدهما كلاب بن مرة ، وهى من أوسط قريش نسباً ، وأرفعهم بيتاً ، وقد سبقت مشيئة الله عز وجل باصطفاء آباء الرسول الكريم وأجداده ، وتسلسل العمود النبوى فى أصلاب قوية شريفة وأرحام طاهرة كريمة ، وكان مما كرم الله به نبيه أن جنبه رجس الجاهلية وبهتان أهل الضلالة فليس من آبائه إلا من هو عظيم فى قومه ، كريم على الله والناس ، وليس من أجداده إلا من استقل بمآثر تروى عنه ، ومكارم يعرف بها ، وأمجاد خالدة وأعمال باقية ، ولا غرو فقد اختارهم المولى عز وجل أمناء على سره ، حفظة لعهده ووسائل سليمة مستقيمة لحمل النور الإلهى إلى مستقره ، ونقل الأمانة الكبرى إلى صاحبها .

عام الفيل

ويجمع المؤرخون على أن ولادة النبى عليه السلام كانت عام الفيل ، وقد جاء القرآن الكريم بذكر الفيل فى مقام المنة على قريش أن وقاهم كيد أصحابه ، فقال الله تعالى :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ[١] ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ[٢] ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[٣] مَأْكُولٍ » .

وحادثة هذا شأنها ، أُرِّخ مولد النبى بها ، ونزل القرآن فيها ، تستأهل الوقوف عندها للذكر والتسجيل .

لما غزت الحبشة اليمن بقيادة أبرهة وكانت الحبشة على المسيحية ، أراد أبرهة أن يبشر بها فى جزيرة العرب فبنى كنيسة فخمة ، وأرسل إلى النجاشى ملك الحبشة يقول :

إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْن مثلها لملك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب .

وقد غضبت العرب للكعبة فجاء رجل منهم ودخل الكنيسة ثم خرج وقد خلف فيها من الأثر ما لا يليق ببيوت العبادة ، فغضب أبرهة حين علم ذلك وقرر هدم الكعبة انتقاماً لفعل العربى بكنيسته ، وكان أن جهز جيشاً جراراً يصحبه فيل ضخم مدرب على القتال ، وقد اعترضته شراذم من قبائل مختلفة تريد صده عن عزيمته ، ولكنها كانت من القلة والضآلة بحيث لا تثبت أمام جيش منظم كامل الأهبة كثير العدد ، وسار أبرهة حتى إذا كان على مقربة من مكة ، جرد من جيشه حملة أرسلها إلى مكة ، فأغارت على أموال قريش فاستاقتها ، وأصابت فيما أصابت مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وأحلافها بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فعدلوا عن ذلك .

---

(١) أبابيل : جماعات .　　(٢) حجارة صلبة ذات نتوء حادة .

(٣) كزرع أكل حبه و بقى تبنه .

وبعث أبرهة رائداً من قبله يسأل عن سيد قريش وشريفها يقول له : إن الملك لم يأت لحرب قريش وإنما جاء ليهدم هذا البيت ، فإن لم يعرضوا له دونه فإنه لا يحاربهم فإذا كان سيد قريش لا ينوى حرب الملك فإنه يدعوه لزيارته ، ولما بلغ الرسول رسالته قيل له : إن سيد قريش هو عبد المطلب بن هاشم ، فدعا به وسأله رأيه فيما يقول الملك ؟ فقال عبد المطلب :

ما نريد حربه وما لنا بذلك منه طاقة . هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال الرسول : فانطلق معى إليه فإنه أمرنى أن آتيك به ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر وقابل أبرهة فقدمه إليه الرسول قائلا :

هذا عبد المطلب بن هاشم ؛ سيد قريش ، وصاحب عين مكة – أى زمزم – يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال . وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ؛ فعظم فى عين أبرهة فنزل عن سريره وجلس على البساط وأجلس عبد المطلب إلى جانبه فسأله أن يرد إليه إبلَهُ التى أخذها .

فقال الملك لترجمانه : قل لعبد المطلب : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك . ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك . وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه . لا تكلمنى فيه ؟ .

قال عبدالمطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه .

قال أبرهـــة : ما كان له ليمتنع منى .

قال عبدالمطلب : أنت وذاك !

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصابها ، وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رؤوس الجبال ، تخوفاً عليهم من معرة الجيش .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة يدع الله ويستنصره على أبرهة وجنده ، ويقول .

لَاهُمَّ إنَّ العبيد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا ، فأمرٌ ما بدالك

فلما أصبح أبرهة ، تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبى جيشه فلما وجه الفيل وجهة مكة برك وأبى القيام ، فضربوه ضرباً مبرحاً فلم يقم ، فوجهوه إلى اليمن فقام نشطاً ، فأعادوا توجيهه إلى مكة ، فبرك ، فسلطوا عليه السياط والحراب كى يقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه بعد إلى مكة فبرك .

ثم أرسل الله عليهم طيراً من البحر مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب أحداً منهم إلا هلك وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاؤا .

وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم ، يسقط جسمه أنملة أنملة ، وأصابه القيح حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه .

وقال ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية : إنه حُدِّثَ ، أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب هذا العام .

وفى تعليق ابن إسحاق هذا ، مجال واسع لتأويل هذا الحادث تأويلا يتصل بالعلم والطب ، فلعل أهل العلم يجولون فيه جولات موفقة .

هذه هى خلاصة حادث الفيل ذكرناها نقلا عن أهم المصادر التاريخية ، وقد كان هذا الحادث من أهم الأحداث فى تاريخ العرب قبل ظهور الرسالة المحمدية ، وبلغ

من شأنه أن العرب أرّخوا به ولم يبطل هـذا التاريخ إلا بعد أن ظهر الإسلام وساد الجزيرة العربية ، وما يليها من الأقطار فكان أن أبطل المسلمون هذا التاريخ ، وأحلوا محله الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة فـكانت أصل التاريخ الإسلامى .

وقد امتن الله على العرب برد كيد الأحباش فى نحرهم ، ووقاية بيته الـكريم من عبث أيديهم وأنزل فى ذلك سورة الفيل التى أسلفنا ذكرها ، فلله الحمد والمنة .

ظواهر وخوارق صحبت المولد الشريف

ذكرت فاطمة بنت عبد الله الثقفية التى حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : رأيت البيت حين وضع قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علىّ .

ومن خصائصه الشريفة ، أنه ولد معذوراً — أى مختوناً — مسروراً — أى مقطوع السرة — ولما وضعته أمه وقع إلى الأرض مقبوضة أصـابع يديه ، مشيراً بالسبابة ، كالمسبح بها .

ووضعت عليه أمه بعد ولادته ، جفنة لئلا يراه أحد قبل جده عبد المطلب ، فجاء جده والجفنة قد انفلقت عنه ، ولما قيل له : ما سميت ابنك ؟ قال : محمداً ، فقيل له : كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟ ! فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

رؤيا صادقة

و إنما تنبأ عبد المطلب بهذه النبوءة بسبب رؤيا صـادقة رآها فى المنام ؛ فقد رأى قبل ولادة النبى صلى الله عليه وسلم : كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض ، وطرف فى الشرق وطرف فى الغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، و إذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها ، فقصّ رؤياه على أهل الذكر ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، و يحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه محمداً .

ورؤيا أصدق

وقد انضافت إلى هذه الرؤيا الصادقة ، رؤيا أصدق منها ، رأتها السيدة آمنة أم النبى عليه السلام ، وحدّثت بها عبد المطلب ؛ فقد رأت حين حملت بالرسول عليه السلام من يقول لها :

إنك قد حملت بسيد هـذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض ، فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سميه محمداً .

ورأت حين حملت به ، أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصْرَى من أرض الشام .

هذا وأكثر منه

وقد اعتمدت فى نقل هذه الخوارق ، على كتب التاريخ الصحيحة كسيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبرى ، وصحيح البخارى ، والروض الأنف للسهيلى . ولم أوردها وأنا شاك فيها ، أو غير مؤمن بها ؛ بل فعلت وأنا أجدها دون ما يستأهله النبى الكريم ، وأقل مما ينبغى أن يكون إرهاصاً بمولد خاتم الأنبياء الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وبعثه نوراً للبشر أجمعين ، وجعل رسالته الحد الفاصل بين الجهالة المطبقة التى خيمت على العالم قبل مبعثه ، و بين النور الذى عم الأرجاء وشمل جميع الأنحاء وشاع فيما بين الأرض والسماء .

ولست أقول : إننى قد أحصيت جميع الخوارق والظواهر ، وألممت بجميع الإرهاصات والتنبؤات التى تقدمت مولد النبى الكريم أو صحبت ولادته ونشأته حتى نزول الوحى ؛ فإنها كثيرة مستفيضة تستحق أن يفرد لها كتاب مستقل ، ولكنى أقول : إنه مع كثرتها واستفاضتها وعمومها وشمولها ، وذهابها مذاهب مختلفة وتعلقها بأسباب متباينة ، لا تفى المقام حقه ، ولا تؤدى ما ينبغى له كل الأداء ، ولا تقوم ببعض مايدين به العالم أجمع والإنسانية كلها لصاحب الرسالة المحمدية من إعظام و إجلال وتقديس و إكبار .

رضاعة الرسول فى بنى سعد

كان من عادة قريش أن يرضعوا أطفالهم فى البادية لينشأ الطفل فى الأعراب ، فيكون أفصح للسانه ، وأجلد لجسمه ، وأصلح لتكوينه ، وأعون على تحمله مشاق الحياة وتعوده الخشونة واحتمال شظف العيش ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر ، حين قال له : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله :

« وما يمنعنى من ذلك وأنا من قريش وأُرضعت فى بنى سعد » .

وحدث على أثر ولادة الرسول عليه السلام أن قدم إلى مكة نسوة من بنى سعد يلتمسن أطفالا من قريش ليرضعنهم ، وكانت السيدة حليمة ، بينهن ومعها ابن لها رضيع ، وكانت السنة سنة شهباء لم تبق لسكان البادية شيئاً . وقد أجدبت المراعى وجفت الضروع ، وما فى ثدييها ما يقوم ببعض حاجة ولدها ، فلما عرض عليها محمد بن عبد الله وعرفت أنه يتيم ، أعرضت عنه ، إذ كانت ترجو أن تحظى بطفل فى نعمة تفيد من أهله . وما بقيت امرأة قدمت معها إلا أخذت رضيعاً غيرها .

فلما أزمع الركب الرجوع ، قالت لزوجها : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهب إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ؛ فقال لها : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

وكأن زوجها كان ينظر بظهر الغيب ، فما هو أن أخذته حتى فاضت البركات وعمت الخيرات ، وحفت بهذا البيت النعم من كل جانب ، وأصبح ما طرأ عليها من تغيير كامل حديث الركب وموضع عجب السفْر .

كان ثدياها جافان لا يقوم ما فيهما من لبن ببعض حاجة طفلها فدرَّ وأقبل اللبن دسماً غزيراً حتى رضع الرسول ورضع ابنها وناما ، وقد كان ابنها لا ينام من الجوع ولا ينيمُّ أبويه قبل ذلك .

وكانت أتانها عجفاء تحبس الركب من بطئها وتثاقلها ، فغدت فارهة تسبق الحُمْر وتزعج الصحب لعجز مراكبهم عن ملاحقتها ، فيقولان : ويحك يا حليمة ! اربعى

علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ، فتقول : بلى ! والله إنها لهى !
ويقول زوجها وقد أدهشته هذه الظواهر :

تعلمى ياحليمة ، لقد أخذت نسمة مباركة ، فتقول : والله إنى لأرجو ذلك .

ونترك المجال لحليمة تروى قصتها بنفسها فتقول :

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمى تروح علينا حين قدمنا به معنا شباعا ، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ! اسرحوا حيث يسرح راعى نبت أبى ذؤيب يعنون حليمة فتروح أغنامهم جياعا ماتبِضُّ بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان وفصلته .

وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً[1] . فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شىء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ ، فإنى أخشى عليه وباء مكة .
قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا :

تطهير الجسد بعد تطهير الروح

روى الطبرى فى سند مرفوع إلى شداد بن أوس . قال :

بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل شيخ من بنى عامر ، وهو مِدْرَه قومه وسيدهم وكان شيخاً كبيراً يتوكأ على عصا فمثل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم قائماً ونسبه إلى جده فقال يا ابن عبد المطلب . إنى أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ألا و إنك فوَّهت بعظيم، و إنما كانت الأنبياء والخلفاء فى بيتين من بنى إسرائيل

---

(١) جفراً : أى قوياً .

وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان ، فما لك وللنبوة ، ولكن لكل قول حقيقة فأنبئني بحقيقة قولك وبدء شأنك .

قال : فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بمسألته ، ثم قال : يا أخا بني عامر ، إن لهذا الحديث الذى تسألني عنه نبأ ومجلساً ، فاجلس ، فثنى رجليه ثم برك كما يبرك البعير ، فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث ، فقال :

«يا أخا بني عامر ، إن حقيقة أمرى و بدء شأنى ، أنى دعوة أبى إبراهيم ، و بشرى أخى عيسى بن مريم ، وأنى كنت بكر أمى ، وأنها حملت بى كأثقل ما تحمل وجعلت تشتكى إلى صواحبها ثقل ما تجد ، ثم إن أمى رأت فى المنام أن الذى فى بطنها نور ، قالت : فجعلت أتبع بصرى النور ، والنور يسبق بصرى حتى أضاءت لى مشارق الأرض ومغاربها .

« ثم إنها ولدتنى فنشأت ، فلما نشأت ، بغضت إلى أوثان قريش ، و بغض إلى الشعر . وكنت مسترضعاً فى بنى ليث بن بكر ، فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان ، نتقاذف بيننا بالجلة ، إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب ملء ثلجاً فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هرابا ، حتى انتهوا إلى شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط ، فقالوا : ما أَرَبُكُمْ إلى هذا الغلام ، فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مسترضع فينا ، من غلام يتيم ليس له أب فماذا يرد عليكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ولكن إن كنتم لا بد قاتلين فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ، ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم .

« فلما رأى الصبيان القوم لا يحيرون إليهم جواباً ، انطلقوا هرابا مسرعين إلى الحى يُؤْذِنُونهم و يستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم — الضمير راجع للرهط — فأضجعنى على الأرض إضجاعاً لطيفاً ، ثم شق ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى ، وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مساً ، ثم أخرج أحشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها . ثم قام الثانى منهم ، فقال لصاحبه :

تنح ، فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه فصدعه ، ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ، ثم قال بيده يمنة منه كأنه يتناول شيئاً ، فإذا أنا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه ، فختم به فامتلأ نوراً ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه ، فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهراً ، ثم قال الثالث لصاحبه : تنح عنى فأمر يده مابين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى فالتأم ذلك الشق بإذن الله ، ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، ثم قال للأول الذى شق بطنى : زنه بعشرة من أمته ، فوزنونى بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنونى بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنونى بهم فرجحتهم ، فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم .

« قال : ثم ضمونى إلى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عينى ، ثم قالوا : يا حبيب لم ترع ، إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك .

« قال : فبينما نحن كذلك ، إذ أنا بالحى قد جاءوا بحذافيرهم ، وإذا أمى وهى ظئرى أمام الحى ، تهتف بأعلى صوتها وتقول : يا ضعيفاه ؟ قال : فانكبوا — الضمير راجع إلى الرهط — على فقبلوا رأسى وما بين عينى ، فقالوا : حبذا أنت من ضعيف .

« ثم قالت ظئرى : يا وحيداه ، فانكبوا على فضمونى إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عينى ، ثم قالوا : حبذا أنت من وحيد ، وما أنت بوحيد ، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ؟

« ثم قالت ظئرى : يا يتيماه ! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك ، فانكبوا على فضمونى إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عينى ، وقالوا : حبذا أنت من يتيم ، ما أكرمك على الله ، لو تعلم ماذا يراد بك من الخير !

« قال : فوصلوا بى إلى شفير الوادى ، فلما بصرت بى أمى وهى ظئرى ، قالت :

يا بنى ، ألا أراك حياً بعد ! فجاءت حتى انكبت على ، وضمتنى إلى صدرها ، فوالذى نفسى بيده ، إنى لفى حجرها وقد ضمتنى إليها ، وإن يدى فى يد بعضهم ، فجعلت ألتفت إليهم ، وظننت أن القوم يبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم ، يقول بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لَمَم أو طائف من الجن ، فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت : يا هذا ما بى شىء مما تذكر ، إن آرائى سليمة وفؤادى صحيح ليس بى قَلَبَة[1] .

« فقال أبى ، وهو زوج ظئرى : ألا ترون ؟ كلامُه كلامٌ صحيح ؟ ! إنى لأرجو أن لا يكون بابنى بأس ، فاتفقوا على أن يذهبوا بى إلى الكاهن ، فاحتملونى حتى ذهبوا بى إليه ، فلما قصوا عليه قصتى ، قال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فإنه أعلم بأمره منكم ، فسألنى فاقتصصت عليه أمرى ما بين أوله وآخره ، فلما سمع قولى وثب إلى فضمنى إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته :

يا لَلعرب ! يا لَلعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلونى معه ، فو اللات والعزى ، لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم ، وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط !

« فعمدت ظئرى ، فانتزعتنى من حجره ، وقالت : لأنت أعته وأجن من ابنى هذا ، فلو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك فإنا غير قاتلى هذا الغلام .

« ثم احتملونى فأدونى إلى أهلى فأصبحت مُفَزَّعاً مما فعل بى وأصبح أثر الشق ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشراك ، فهذا حقيقة قولى وبدء شأنى يا أخا بنى عامر ، فقال العامرى : أشهد بالله الذى لا إله غيره ، إن أمرك حق » .

---

(١) القلبة : الداء .

المرضعة تعيد الرسول إلى أمه خوفاً عليه

وعلى أثر هذا الحادث قدمت حليمة بالنبي عليه السلام إلى مكة وأعادته إلى أمه فعجبت من حالها ، إذ كانت تلح عليها فى استبقائه عندها أطول زمن ممكن ، فذكرت حليمة عذراً لم يقنع أم الرسول عليه السلام ، وما زالت بها حتى أخبرتها الحقيقة ، فقالت لها : لا تراعى فإن ابنى فى حفظ الله ورعايته .

وفاة والدته

لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ست سنين ذهبت به أمه إلى المدينة لتزيره أخوال جده عبد المطلب بن هاشم وهم بنو النجار ولما كرت راجعة به إلى مكة أدركتها المنية فى الطريق بين المدينتين بمكان يسمى الأبواء . وكانت أم أيمن الحبشية معهما فى هذه الرحلة فحضنت الرسول وجاءت به إلى جده عبد المطلب بعد أيام .

كفالة عبد المطلب للرسول

ولما ماتت والدة الرسول عليه السلام ، كفله جده عبد المطلب بن هاشم وكان به حفياً وعليه حانياً ، لما تجرى به الطبيعة البشرية من شغف الأجداد بأحفادهم ولا سيما إذا تيتم الحفيد فى حياة الجد وللإرهاصات والبشائر الكثيرة التى أُظْهِرَ عليها عبد المطلب بخصوص ما يتوقع لحفيده العظيم من ذكر يملأ ما بين الأرض والسماء ، ومجد يبقى دهر الدهارير وأبد الآبدين .

وفاة عبد المطلب

ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين توفى جده عبد المطلب بن هاشم سيد قريش وزعيمها ، وصاحب الأيادى المأثورة والمآثر المشكورة على قريش خاصة وعلى العرب أجمعين .

و بعد وفاة عبد المطلب كفل ابنه أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أُوثر بهذه الخصوصية لأنه كان شقيق أخيه عبد الله والد الرسول : أمهما فاطمة بنت عمرو من بنى مخزوم .

طفولة مباركة وشباب صالح

أسلفنا أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان فى الثامنة من عمره الشريف حين توفى جده عبد المطلب بن هاشم ، وأن عمه أبا طالب كفله بعد وفاة جده إذ كان يوصيه به ويحثه على رعايته ، وقد مضت السنون التالية لهـذا الحادث من حياة الرسول عليه السلام كأحسن ما تمضى الحياة على طفل مرموق محبوب تحيط به العناية من كل جانب ، وتحفه الإرهاصات والبُشريات من كل مكان ، وقد تميزت هذه الفترة من حياته المباركة أى منذ وفاة جده حتى مبعثه بجملة حوادث نذكرها بحسب الترتيب الزمنى :

رعاء الغنم

لما بلغ الرسول مبلغ القوة والجلد ، كان أول عمل مارسه فى سبيل كسب عيشه ، رعى الغنم لأصحابها لقاء أجر يفيده من هـذا العمل ، ولم تـكن فى ذلك غضاضة بل كان أمراً سائغاً يزاوله كل من كان فقير الحال ، وكان صلوات الله وسلامه عليه فقيراً لم يرث شيئاً عن أبيه ، وكان عمه أبوطالب فقيراً معيلا فـكان لابد له وقد بلغ أشده أن يعفى عمه من إعالته ، وأن يسعى فى مناكب الأرض ويأكل من رزق الله .

وقد ورد فى الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى إلا وقد رعى الغنم ، قيل : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا » .

وجاء فى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم رعى الغنم بمكة على قراريط .

وفى ممارسة الرسول عليه السلام رعاء الغنم فى حداثته ، إلى جانب أنها سبب

كريم من أسباب الارتزاق ، ترويض شديد للنفس وتدريب على الصبر والرفق ، فإن هذا العمل يتطلب ذلك ، ويقتضى صاحبه التزود بكثير من الأناة والرحمة . لما فى طبائع الغنم من الشرود وعدم التزام خطة معينة بل تمرق يميناً ثم تعرج شمالا . وتشرق حيناً ، وتغرب حيناً آخر ، ارتجالا وانصياعاً لنوازع ركبت فى طبيعتها ، وذلك مما يقتضى راعيها تعود الصبر عليها والرفق بها حتى يصبح ذلك منه عادة ، ويصيره له طبعاً مكتسباً يغلب عليه فى أعماله العامة ، ويعده للسياسة الرشيدة عند ما تتهيأ له فرصتها .

رحلة الشام الأولى وقصة الراهب بَحيرا

كان أبو طالب يعمل فى التجارة كشأن معظم رجالات قريش ، فحدث أن تهيأ للخروج فى ركب إلى الشام فتعلق به النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان فى التاسعة من عمره ، فرق له وقال : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً .

فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرا ، عُرِفَ أنه ثانى اثنين من مؤمنى زمانه صلاحاً وتقوى وسعة علم وبعد نظر ، وكانت قريش تمر بصومعته كل عام فى رحلتها التجارية إلى الشام ، فلا يكون لذلك شأن ، ولكن حدث فى الرحلة التى نتحدث عنها أن أطل الراهب على ركب قريش فأبصر أمراً عجبا : ذلك أنه رأى غمامة تظلل طفلا من وهج الهجيرة ، وتتحرك فوق رأسه كلما مشى ، وتقف إذ يقف ، فأراد أن يستوثق من الأمر فصنع طعاماً دعا له الركب كله ، فعجبوا من هذا الصنيع ، وقالوا : ما كان العهد بك أن تستضيفنا ، فماذا شأنك اليوم ؟

قال بحيرا يجيب المتعجب من فعله : صدقت ! ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم ، فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بينهم لحداثة سنه ، وظل فى الرحال تحت الشجرة .

فلما أشرف عليهم بحيرا ولم يجد بغيته بينهم ، قال : يا معشر قريش ، لا يتخلف

منكم أحد عن طعامى ، فقالوا : ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سناً !

فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ، فقال رجل من القوم : « واللات والعزى ، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا !

ثم قام إليه فاحتضنه ، وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرا ، جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرا ، فقال له : يا غلام ، وحق اللات والعزى ألا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يتحدثون بهما ، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام : لا تسألنى باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما !

فقال له بحيرا ، فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له : سلنى عما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة[1] بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

فلما فرغ ، أقبل على عمه أبى طالب ، فقال له :

ما هذا الغلام منك ؟ قال ابنى . قال له بحيرا : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال : فإنه ابن أخى . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حامل به ، قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لَيَبْغُنَّه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسْرِع به إلى بلاده .

فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام .

---

(١) وردت فى وصف خاتم النبوة أوصاف كثيرة تتلاقى فى أنه كان بضعة ناشزة كبيضة الحمامة بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم يتخللها شعر .

حرب الفِجار

سميت حروب الفجار بهذا الاسم لفجر المتحاربين فيها بإنشائهم القتال فى الأشهر الحرم ، وكان الفجار الرابع وهو آخرها هو الذى شهده الرسول عليه السلام وكانت سنة خمس عشرة سنة ، أخرجه معه عمه أبو طالب وقال الرسول عليه السلام فى معرض الكلام عن هذه الحرب :

« كنت أُنَبِّلُ على أعمامى » وفسر ابن إسحاق هذا التعبير بأنه كان صلى الله عليه وسلم يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

ولم يحارب الرسول فيها ، لأنها كانت حرباً فاجرة ، فوقاه الله المشاركة فيها .

وتتلخص أسباب هذه الحرب فى أن رجلا من كنانة حليفة قريش ، قتل رجلا من هوازن فى الشهر الحرام غيلة فهاجت الحرب بين قبيلته وقريش وأحلافها ، وقد انتهت بتحمل رئيس قريش ديات من قتلوا من هوازن والنزول عن دماء من قتلوا من قريش .

حلف الفضول

وحدث بعد حرب الفجار أن جاء مكة تاجر من العرب ببضاعة له ، فاغتال ثمنها من ابتاعها منه ، فوقف بأعلى مكة يستصرخ أشرافها على رد حقه و إنصافه ممن ظلمه بشعر قاله .

فكان أن حَمِيَ لذلك جماعة من قريش واستخلصوا له حقه ممن ظلمه ثم بدا لهم أن يعقدوا حلفاً بينهم لدفع المظالم التى تحدث بمكة وقد دخل فيه بنو هاشم و بنو المطلب و بنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة . وكان الحلف بدار عبد الله بن جدعان التيمى ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه ، وتحدث عنه بعد الرسالة ، فقال :

« لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » .

بدء الاتصال بالسيدة خديجة ، رحلة تجارية

كانت قريش تعيش على التجارة ، يستوى فى ذلك رجالها ونساؤها ، وكانت السيدة خديجة بنت خويلد ذات مال كثير وشرف ممتاز وشخصية فذة تفردت بها بين نساء قريش ، وكانت تستأجر الرجال ليخرجوا بتجارتها إلى الشام لقاء أجر معلوم ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مابلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ؛ فقبل الرسول ذلك وخرج بمالها ومعه غلام لها يقال له ميسرة .

وقد شاهد ميسرة عجباً من الرسول عليه السلام ؛ فقد كان يرى ظلالا تقى الرسول من حر الشمس ، وتحدث إليه راهب عن نبوة النبى المنتظرة ، فلما عاد إلى مكة مع الرسول ، وقد ربحت التجارة فى هذا العام ضعف ما كانت تربح فى العادة أخبر السيدة خديجة بما رأى وسمع ، فملأها ذلك إعجاباً بالرسول ، وأكد لها ما كانت تسمع عن أمانته وصدقه واستقامته .

الزواج من خديجة

أفضى الاتصال التجارى الذى تم بين النبى عليه السلام و بين السيدة خديجة إلى نهاية سعيدة ؛ فقد رغبت فيه زوجاً وكانت قد تأيمت بعد وفاة زوجها : أبى هالة ابن زرارة وقد بلغت الأربعين من عمرها فى هذا الوقت ، وقد كانت يومئذ أواسط قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا وكانت تدعى فى الجاهلية : الطاهرة والعفيفة ، وكان كل واحد من قومها حريصاً على زواجها لو استطاع ذلك ، ولكنها رغبت فى النبى عليه السلام ، وكان هو يرغب فيها كذلك ، ولكن تفاوت ما بينهما فيما يتصل بالمال جعله يحجم عن طلب يدها ، إذ كانت غنية جداً وكان فقيرا جداً .

وأرسلت خديجة إلى النبى عليه السلام من يبلغه قبولها الزواج منه إذا عرضه عليها لما تعلمه عنه من شرفه وسمو أخلاقه وطيب عنصره ، واستكماله جميع أسباب الكرامة والرجولة ، فذكر النبى عليه السلام لأعمامه ذلك ، فمضى معه عمه أبو طالب إلى دار خديجة وخطبها إلى ابن أخيه من عمها عمرو بن أسد ، وقد جاء فى خطبة الزواج التى ألقاها أبو طالب قوله :

أما بعد : فإن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به : شرفاً ونبلا وفضلا وعقلا ، و إن كان فى المال قُلّ ، فإن المال ظل زائل وعارية مستردة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك .

فقال له عمها عمرو بن أسد :

هو الفحل الذى لا يقدع أنفه . وأقر الزواج . وقد أصدق النبى عليه السلام السيدة خديجة ، عشرين بكرة ، ولم يتزوج قبلها ولا تزوج عليها غيرها فى حياتها .

وكانت سن الرسول عليه السلام عند زواجه خمساً وعشرين سنة .

الأمين الكريم والمدبر الحكيم وبناء الكعبة

حين بلغت سن الرسول عليه السلام الخامسة والثلاثين ، وحين كان من تكاليفه الرسالة قاب قوسين أو أدنى ، ومن حمله الأمانة بمقدار المرحلة الأخيرة إلى الغاية أو أقرب ، هيأ له الله الذى كلأه ورعاه ووفقه وهداه ، مقاماً جليلا تتجلى فيه روحانية النفس ولا يغنى فيه إلا نور البصيرة وصفاء السريرة ، وقد أكرمه الله جل ذكره وتعالى اسمه فأفاض عليه من النور ما أضاء له عالم الروح ، و بصّره بموطن الحكمة ، فقضى فى الأمر الذى حفز قريشاً كلها إلى حمل السلاح وجعل منها ، وهى ذات الرحم المتشابك والنسب المتقارب ، أعداء ألداء يوشك أن تسيل بينها الدماء وتزهق الأرواح — قضاء شفى النفوس واستل الأحقاد وأرضى الكرامات .

وقد عنينا بهذا الأمر خلاف قبائل قريش على من يكون له الشرف برفع الحجر الأسود إلى مكانه حين جددوا بناء الكعبة إثر سيل جارف صدع جدرانها ، و بلغ البنيان المستوى الذى يأخذ فيه هذا الحجر المقدس مكانه من البناء ، ونحن نتخلى الآن عن الوصف لإمام أهل السيرة النبوية محمد بن اسحاق ، قال :

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبناء الكعبة ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الركن — أى الحجر الأسود — فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوزوا[1] وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم و بنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ، فمكثت قريش على ذلك أر بع ليال أو خمسا ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا .

فزعم بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم : وكان عامئذ أسنّ قريش كلها ، قال :

يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه . قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد !

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلى ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه .

وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أن ينزل عليه الوحى . الأمين .

هذا ما قضى به أبو القاسم الأمين محمد بن عبد الله فعدل ، وحكم به فأنصف

---

(١) تحاوزوا : أى انحاز فريق لفريق .

وفصل ، وأرضى وأقنع وأشفى وأمتع ، وأنهى خصاماً كان يوشك أن يكون حرباً ومنع خلافاً كاد يكون بلاء وكرباً .

وهذا هو نور النبوة يتجلى فى رأى صائب وقضاء محكم ، لا يرتفع لمستواه إلا من أوتى الحكمة وفصل الخطاب ولقن هَدْىَ أم الكتاب .

نظرة شاملة إلى الماضى

الآن وقد بلغ التدرج فى ذكر السيرة النبوية ما شارف الرسالة ، فقد قاربت سن الرسول عليه السلام الأربعين : وأصبح له من شرف المكانة بين قومه ونبل الأحدوثة فى ناديه ما ملأ قلوب العشيرة ذكراً وحرك ألسنتها ثناء . يحق لنا أن نلقى نظرة شاملة على ما مضى من تاريخ المصطفى من خلق الله لأداء الرسالة العالمية التى أشرق بها الكون ، وعم بها الهدى ، وانتصر الحق وأزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

وأول ما يؤديه البصر إلى البصيرة لمجرد إرسال الطرف مرتاداً هذه الفترة من تاريخ الرسول ، هو مبلغ كلاءة الله جلت قدرته لنبيه ممثلة فى اصطفاء الجوهر الذى تسلسل منه والأصلاب الكريمة والبطون الطاهرة التى تَأَدَّت به إلى الحياة ، فقد كان آباؤه وأجداده سادة فى قومهم ، كرماء على عشيرتهم ، ما منهم إلا من انفرد بمكارم كانت حديث عصره ومفخرة زمانه ، وكلهم كان الصفوة المختارة والنخبة الممتازة ، ولا غرو — والشأن هكذا — إذا قال قائل : بأنه عليه الصلاة والسلام : ابن الأكرمين ، وسلالة المفضلين ، أن يكون جوابه : صدقت وبررت ، وقلت فأصبت .

وإذا أُرْسل البصر كرة أخرى إلى نشأة النبى صلى الله عليه وسلم ، ألفاها نشأة كريمة ، مدَّ عليها الفضل رواقه ، وحفت بها الكرامات من كل جانب ، صحيح

أنها لم تكن موسومة بالثراء أو متميزة بالغنى ، ولكنها لم تمتحن بسوآت الفقر ولا زادها شظف الحياة إلا قوة وتماسكا ، لقد نشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيراً ، لم يرث من أبيه مالا ، وإنما ورث مجداً لا يسامى وعزًّا لا يدانى ، ولأمر ما اختار الله له هذه الصفة : صفة الفقر والخصاصة وألزمه إياها حتى بعد أن فتح له معظم أنحاء الجزيرة ، وأصاب من المغانم ملء اليدين واختاره إلى الرفيق الأعلى وهو الفقير إليه حقاً ، ويقول البخارى فى هذا المقام :

« ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته درهما ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقة » .

وحكمة المولى عز وجل فى اختيار الفقر صاحباً ملازماً لنبيه الكريم أوضح من أن تعرف ، وأظهر من أن تحتاج لتعليل ، إذ كان الفقر فى النشأة ، كفيلا بصحة التكوين وتجنيب النفس ماقد تلتاث به من بطر الغنى وميوعة الرخاء ، أما بعد الرسالة والفتح ، فقد صار الفقر دليل التعفف والترفع ، وموضع التأسى والقدوة ، وعدو الفتنة والغرور ، وقد كان مما أدب الله به نبيه الكريم قوله : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » .

وقد استجاب الرسول لهذا الأدب الربانى وبلغ به الشأن أنه رهن درعه عند يهودى بالمدينة ليشترى لأهله شعيراً يقتاتون به ولا أدام يصحبه غير الملح إذا وجد !

شباب صالح

ونظرة أخرى إلى يفاعة المصطفى وما تلاها من سن الشباب والفتوة ، تملأ الخاطر إعجاباً وإكباراً بهذا الشباب الصالح الذى لم تشبه من الهفوات شائبة ، ولازنَّ بعائبة ، بل مضى على خير ما يمضى شباب فتى قد هيىء لأمر خطير ، وأعد لشأن جليل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته ، فيقول :

« لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى ، وأخذ إزاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لـكمنى لا كم ما أراه ، لـكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك ، قال : فأخذته وشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى » .

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه : سمعت رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحال بينى و بين ما أريد من ذلك ، ثم ماهممت بسوء حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته، فإنى قد قلت ليلة لغلام من قريش ، كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا فلان بن فلان ، تزوج بفلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم، فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس ! قال : فجئت صاحبى ، فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر » .

قال صلى الله عليه وسلم : « ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : أفعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ماسمعت حين دخلت مكة تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى فأخبرته الخبر ، ثم ماهممت بعدها بسوء حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته » .

الحاضر المبشر

فى بضع السنين التى تقدمت سن الأربعين من حياة النبى الـكريم ، كان كل شىء قد تهيأ لحمل الأمانة ، وأصبحت الشرائط التى تقتضيها الرسالة موفورة ، وبدت الظواهر المختلفة وكثرت الإرهاصات المنبئة بظهور النبى العربى ، فتحدث بذلك

الكهان وأجمع عليه ذلك النفر من العرب ممن كان يؤمن إيماناً جازماً أن نبى العرب على وشك الظهور ، وهذا النفر مؤلف من ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان ابن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل ، فهؤلاء النفر من العرب أفضى بهم علمهم بالكتب السماوية ولقاؤهم الرهبان والأحبار واستقراؤهم الظواهر الكونية — إلى الجزم بأنه قد أظلهم أوان النبى العربى الكريم .

وكان صلى الله عليه وسلم فى هذه المرحلة من حياته يمضى قدماً فى سبيل التهيؤ لما أعد له من أمر جلل ، فكان يتخلى شيئاً فشيئاً عن أمور الدنيا وأعراض الحياة الزائلة ، وحببت إليه الخلوة ليزداد من التجرد ويكثر من التأمل ويقترب رويداً ، رويداً من الساعة التى يعهد إليه فيها الخالق بمهمة الرسالة والهداية ، فكان يجاور شهراً من كل عام فى غار حراء[1] ، يتحنث فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى من الظواهر ويسمع من الهتافات التى تلقى فى سمعه مايبشر بما هو مرشح له من مُهِمٍّ عظيم ، فما كان يمر بشجر أو حجر حتى يسمعه يقول : السلام عليك يا رسول الله .

وهكذا اكتمل الأمر وتم الإعداد وتهيأت الأسباب ، وتأذنت الكائنات كلها ، بقرب مجىء النعمة الكبرى وحلول الهداية العظمى .

نزول الوحى بالرساله والقرآن

لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم الأربعين من عمره ، وصار فى الذروة العليا من كمال الخلق وتمام الرجولة ونضج العقل وصفاء النفس ، أرسله الله تبارك وتعالى رحمة للعالمين ، وكان أول ما أوثر به من الخصائص الرؤيا الصادقة فكان لا يرى

---

(١) جبل بأعلى مكة .

رؤيا إلا جاءت مصداق مارأى كفلق الصبح ، ثم حببت إليه الخلوة بغار حراء فكان يتحنث فيه حتى فجأه الحق فأتاه ، فقال : يا محمد ، أنت رسول الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فجثوت لركبتى ، وأنا قائم ، ثم زحفت ترجف بوادرى ، ثم دخلت على خديجة ، فقلت : زملونى زملونى ، حتى ذهب عنى الروع ، ثم أتانى ، فقال : يا محمد ، أنت رسول الله ، قال : فلقد هممت أن أطرح نفسى من حالق من جبل ، فتبدى لى حين هممت بذلك ، فقال : يا محمد ، أنا جبريل وأنت رسول الله ، ثم قال : اقرأ ، قلت ما أقرأ[١] قال فغتنى[٢] به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . قال قلت : ما أقرأ ، قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ ، قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى . فقال :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، علَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يعْلَمْ » .

قال صلى الله عليه وسلم : فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى ، فأتيت خديجة فقلت : لقد أشفقت على نفسى فأخبرتها بخبرى ، فقالت : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، ووالله ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق فى الحديث وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم قالت :

أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع .

---

(١) أى ليست ممن يعرف القراءة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أمياً .
(٢) الغت : الخنق وحبس النفس وفى رواية فغطنى والغط هو الغت .

فقال ورقة : قدوس ، قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى ياخديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر ، يعنى بالناموس جبريل عليه السلام ، الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بقول ورقة ، فَسَهّل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره بغار حراء ، صنع كما كان يصنع : بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت ، فقال يا بن أخى : أخبرنى بما رأيت أو سمعت فأخبره ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر ، الذى جاء إلى موسى ، ولتُكذَّبَنَّه ، ولتؤذَيَنَّه ، ولتُخرجَنَّه ولتقاتلَنه ، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأس النبى فقبل يافوخه ، فسأله النبى عليه السلام أو مخرجىَّ هم ؟ فقال ورقَة : نعم ! لم يأت رجل بما جئت به إلا عُودى ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتاً وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهم .

فترة الوحى

ثم فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، فحزن حزناً شديداً ، جعل يغدو إلى رءوس شواهق الجبال ليتردى منها ، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فيقول : إنك نبى الله ، فيسكن لذلك جأشه ، وترجع إليه نفسه ، فكان النبى صلوات الله عليه يحدث عن ذلك ، قال : فبينما أنا أمشى يوماً إذ رأيت الملك الذى كان يأتينى بحراء على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت[1] منه رعباً فرجعت إلى خديجة ، فقلت زملونى ، فزملناه أى دثرناه فأنزل الله عز وجل :

(١) جئثت . أى ملئت .

« يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ » .

وحدث ابن إسحاق قال : إنه لما شق على النبي صلى الله عليه وسلم فتور الوحى وأحزنه جاءه جبريل بسورة الضحى ، يقسم له ربه ، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ، ما ودعه وما قلاه ، فقال تعالى :

« وَٱلضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ، فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

فجعل رسول الله ، يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله .

وكانت فترة الوحى — فيما حققه أهل السنة — سنتين ونصف سنة .

إسلام خديجة

وكانت خديجة رضى الله عنها فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ النبوة أعظم معين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخير مؤازر له على أمره ، لقد آمنت برسالته أول من آمن ، وصدقت به أعظم تصديق وأخلصه ، فخفف الله بذلك عن نبيه ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس .

وروى ابن هشام فى هذا المقام : أن جبريل عليه السلام ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

أقرئ خديجة السلام من ربها . فقال الرسول : ياخديجة : هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة :

الله السلام ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

فرض الصلاة

وفرض الله على نبيه الصلاة فجاءه جبريل وعلمه الوضوء وصلى به وحدد له مواقيت الصلاة فصلت بصلاته خديجة وعلى بن أبى طالب وهو أول من آمن به من الصبيان .

روى الطبرى ، فى سند مرفوع إلى عفيف الكندى قال :

كان العباس بن عبد المطلب لى صديقاً فبينا أنا عنده بمنى فأتاه رجل مجتمع فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم قام يصلى ، فخرجت امرأة فتوضأت وقامت تصلى ، ثم خرج غلام قد راهق ، فتوضأ ثم قام إلى جانبه يصلى . فقلت : ويحك يا عباس ! ما هذا ؟ قال : هذا ابن أخى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، يزعم أن الله بعثه رسولا ، وهذا ابن أخى على بن أبى طالب قد تابعه على دينه وهذه امرأته خديجة بنت خويلد قد تابعته على دينه قال عفيف بعد ما أسلم : ليتنى كنت رابعاً .

والقول المرجح فى كتب السيرة أن الصلاة أول ما فرضت — أى قبل الإسراء — كانت ركعتين ركعتين وكانت مرتين ، إحداهما قبل طلوع الشمس وثانيتهما قبل غروبها ، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأَبْكَارِ » ولما أكملت الصلوات خمساً عند الإسراء زيدت إلى حدها القائم إلى يوم الدين .

المسلمون الأولون

أول من أسلم من الرجال ، أبو بكر الصديق ومن الصبيان على بن أبى طالب وكانت سنه بين التاسعة والعاشرة وزيد بن حارثة بن شراحيل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن اسحاق : فلما أسلم أبو بكر رضى الله عنه ، أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله ، وكان أبو بكر رجلا مألفاً — أى يألفه الناس — لقومه ، محبباً سهلا ،

وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن أبي عبد الله . فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له فأسلموا وصلوا .

الفوج الثانى من المسلمين السابقين

ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن الأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه : قدامة وعبد الله ابنا مظعون بن حبيب ، وعبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب ، أخت عمر بن الخطاب ، وأسماء بنت أبي بكر وعائشة أختها وهى يومئذ طفلة صغيرة ، وخباب بن الأرت ، وعمير بن أبي وقاص ، أخو سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القارى ، وسليط بن عمرو بن عبد شمس وأخوه حاطب بن عمرو وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة وامرأته أسماء بنت سلامة ، وخنيس بن حذافة ، وعامر بن ربيعة ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد بن جحش ، وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس . وحاطب بن الحارث بن معمر وامرأته فاطمة بنت المجلل وأخوه حطاب بن الحارث وامرأته فكيهة بنت يسار ومعمر بن الحارث بن معمر ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف وامرأته رملة بنت أبي عوف ، والنحام واسمه نعيم بن عبد الله بن أسيد ، وعامر بن فهيرة ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية وامرأته أُمَيْنَةُ بنت خلف ، وحاطب بن عمرو ، وأبو حذيفة واسمه مَهْشَم ، وواقد بن عبد الله ، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكَيْر بن عبد ياليل ، وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان .

هؤلاء هم الأولون السابقون إلى الإسلام أصابتهم بركته ، وجمعتهم دعوته ، دعوا فأجابوا ، وسمعوا فاهتدوا ، وكانوا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولين ودعاة الإسلام المجاهدين وأعظم المسلمين بلاء وأشـدهم امتحاناً بما لقوا فى سبيل خروجهم على معتقدات قومهم السخيفة من محنة وعذاب وابتلاء واغتراب ، ولقد ربط الله على قلوبهم وثبت نفوسهم فصمدوا لـكل ما لاقوه وصبروا على جميع ما عانوه ومضوا مثلا عليا فى الإيمان والشجاعة والصدق والإخلاص .

وإنما ذكرنا أسماء هذين الفوجين الأولين من المسلمين السابقين تسجيلا لما أنعم الله عليهم من نعمة عظمى ومنة كبرى واستجلاباً للبركة بتضمين هذا الـكتاب أسماءهم ليكون مباركا على من قرأه أو اقتناه .

رضى الله عنهم أجمعين ونفع ببركتهم جميع المسلمين إن شاء الله .

دار الأرقم

وكان المسلمون يخفون إسلامهم عن قومهم فإذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى الشعاب والأماكن البعيدة فصلوا فيها . ثم اقتضت الدعوة أن يكون لهم مجلس يجمعهم فاختار النبى صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبى الأرقم مكاناً لاجتماع المسلمين .

الجهر بالدعوة الإسلامية

« فاصدع بما تؤمر »

مكث النبي عليه السلام ثلاث سنين بعد نزول الوحى يدعو إلى الإسلام سراً كل من أنس منه حسن الاستعداد لقبول دعوته ، ووثق من صفاء نفسه ونقاء جوهره ، فدخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به الناس . ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجهر بما جاء منه وأن يبادى الناس بأمره فأنزل عليه قوله تعالى :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » . وقوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

فامتثل الرسول لأمر ربه . وكان أول ما ظهر من ذلك أنه صعد الصفا فهتف : يا صباحاه[1] ، فقالوا : من هذا الذى يهتف : ؟ قالوا محمد . فاجتمعت إليه قريش ، فقال :

« أرأيتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوننى ؟ »

قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

قال صلى الله عليه وسلم :

« فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب بن عبد المطلب عم الرسول :

تبًّا لك ! ألهذا جمعتنا !

---

(١) نداء يهتف به عند خطر الحرب وإغارة العدو .

فأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » .

إنذار العشيرة

أما فيما يتصل بإنذار العشيرة ، فإن النبى عليه الصلاة والسلام دعا آله الأقربين بنى عبد المطلب إلى وليمة فلما طعموا قال :

« يا بنى عبد المطلب ، إنى والله ما أعلم شاباً فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به ، إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيِّ وخليفتى فيكم ؟ » .

قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، ولكنهم ردوا رداً ليناً .

وبدر من بين القوم على بن أبى طالب كرم الله وجهه فندب نفسه لهذه المهمة وهو أصغر القوم سناً ؛ وقال أبو لهب :

خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن سلمتموه إذن ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .

إنذار قريش أبا طالب

وراح الرسول عليه السلام ينشر دعوته ، وينهض برسالته ، وكان أول أمره يذكر الله ويتلو القرآن ويدعو إلى مكارم الأخلاق فلم تكن قريش تأبه له كثيراً وإنما كانت تكتفى بنبذه ببذىء القول إذا مر بمجالسها ، فتقول هذا ابن أبى كبشة[1] يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يزعم نزول الوحى

---

(١) أبو كبشة هو لقب زوج حليمة السعدية مرضعة الرسول .

عليه ، حتى إذا تعرض لآلهتهم فأنكرها ولعقائدهم فسفهها وعاب عليهم جميعاً عبادة الأصنام والأوثان ، وتقديس الأحجار والأزلام . أنكروا ذلك عليه وغضبوا لأنفسهم ولآلهتهم ولآبائهم ، وشرعوا فى حربه ولكنهم لجأوا أول الأمر إلى طرق المسالمة ، فذهبوا إلى عمه أبى طالب وشكوا إليه ما يلقونه من محمد ابن أخيه ، قالوا :

يا أبا طالب : إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقاً ، وردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه إلى حين .

ومضى رسول الله عليه السلام على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ، حتى استشرى الأمر بينه وبين قريش ، وساءت الحال وأخذوا يضطغنون عليه ويبيتون له الشر ، ولكنهم رأوا قبل ذلك أن يُعْذِرُوا إلى أبى طالب فذهبوا إليه مرة أخرى ، وقالوا له :

يا أبا طالب ، إن لك سِنًّا وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتْم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

تعصب أبى طالب لرسول الله

ولما انصرف وفد قريش من عند أبى طالب ، وكان قد أَهَمَّه ما فى كلامهم من إنذار ووعيد ، أرسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له :

يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

فظن الرسول عليه السلام أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال :

يا عماه ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته .

ثم استعبر صلى الله عليه وسلم فبكى ، ثم قام ، فلما ولّى ، ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا ابن أخى ، فأقبل عليه الرسول ، فقال :

اذهب يا ابن أخى ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

عرض عجيب

ولما علمت قريش بنصرة أبى طالب للنبى عليه السلام ، أرسلوا يعرضون عليه أن يأخذ عمارة بن الوليد : فتى قريش جمالا وحسبا ، فيَتَبنَّاه ، ويسلم إليهم محمداً ليقتلوه ، فقال :

بئس والله ما تسومننى ! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ! . . هذا والله ما لا يكون أبدا .

ولما رأى أبو طالب تكالب قريش على عداوة الرسول ، جمع بنى هاشم وبنى المطلب وهم قرابته الأدنون ، ودعاهم إلى ما استقر عليه عزمه من مَنَعَةِ رسول الله والقيام دونه : فأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا أبا لهب فإنه شذ عنهم وانحاز إلى قريش فى عداوة الرسول .

وعرض أعجب !

ولما أعيت قريشاً الحيل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . اعترضه أثناء طوافه بالكعبة ، الأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل ، وهم زعماء قريش وذوو الأسنان فيهم ، وقالوا له :

يا محمد . هلم فَلْنَعْبد ما تعبُدُ و تَعْبُدُ ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بِحظِّنا منه ، و إن كان ما نعبد خيرا مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه .

فأنزل الله تعالى فيهم سورة : «قُلْ يـٰأَيُّهَا الْـكَافِرُونَ لاَأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» السورة

خطة شنعاء

ثم اجتمعت قريش و تشاورت فيما تستطيع فعله لـكيد محمد ودعوته ، فلم تر أنجح من أن تتحرى كل قبيلة من بايع محمداً منها فتـكفه عنه إما طوعا و إما كرها ، وكان أن مضوا فى تنفيذ هذه الخطة الشنعاء ، وكان أن تعرض المسلمون لأفظع ألوان العذاب وأشنع وسائل التنكيل ، فـكانوا يحرقونهم بالنار ويدخلون عمد الحديد ، وهى متأججة فى أجسامهم ، و يمنعونهم الطعام والشراب ، وكان أخف ألوان العذاب أن يُلْقى الرجل مكتوفا فى وَقْدَة الحر وعلى صدره ما ينوء به من الصخر .

وكان أشد المسلمين ابتلاء العبيد والموالى لانعدام ناصرهم وعدم وجود من يشفق عليهم ، وقد كان مالاقاه آل عمار بن ياسر من العذاب فوق ما يحتمله البشر ، وقد ماتت سُمَيَّة أم عمار وهى تعذب ، وصبر من بقى من آلها صامدين لما يلاقون من تعذيب وتنكيل . وكان النبى عليه السلام يمر عليهم وهم يعذبون ولا يستطيع لعذابهم دفعا . فيقول : صبرا آل ياسر

مكرمة للصديق

لما اشتد أذى المشركين لعبيدهم الذين أسلموا ؛ عمد أبو بكر رضى الله عنه إلى شراء جماعة منهم لينقذهم مما هم فيه ثم أعتقهم ، وكانوا خمسة بين رجال ونساء ، منهم بلال بن رباح مؤذن رسول الله ، وكان مملوكا لأمية بن خلف ، فـكان يجعل فى عنقه حبلا و يدفعه إلى الصبيان يلعبون به ، ثم يخرجه وقت الظهيرة فى الرمضاء و يلقيه على الحصى المتوقد و يضع على صدره صخرة و يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت

أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول بلال : أحد ، أحد ، وقد أعتق أبو بكر أم بلال كذلك .

وممن اشتراهم أبو بكر من العبيد المعذبين بسبب إسلامهم وأعتقهم عامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة عبد صفوان بن أمية وامرأة تسمى زنيرة وقد عذبت حتى عميت وكان متعجرفو قريش يتندرون بإسلامها ويقولون لو كان الإسلام خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة . وامرأة أخرى اسمها : أم عنبس كانت مملوكة لبنى زهرة .

وقد شكر الله لأبى بكر هذا الصنيع العظيم ووصفه بالأتقى ، فقال :

« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

ولما رأى أبو قحافة والد أبى بكر ما يصنعه ابنه فى عتق العبيد ، قال له : يا بنى إنى أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جُلْدًا يمنعونك ويقومون دونك ؟

فقال أبو بكر : يا أبت ، إنى إنما أريد ما أريد لله عز وجل .

ابتلاء الصديق

وما كان أبو بكر الصديق ، وهو أول من آمن بالله ورسوله من غير توقف ، وأكبر داعية للإسلام وأكثر المؤمنين عطفاً على المسلمين المستضعفين ، لينجو من أذى قريش ويسلم من الابتلاء الذى شمل حبيبه الرسول وسائر إخوانه الموحدين ، فقد ناله من ذلك أذى كثير وبلاء عظيم .

ومن ذلك أن أبا بكر أشار على النبى صلى الله عليه وسلم ، أن يخرج هو ومن معه من المؤمنين من دار ابن الأرقم حيث كانوا يختفون ، إلى المسجد الحرام مراغمين

لقريش ، فقال له الرسول عليه السلام : يا أبا بكر ، إنا قليل ! ولكنه ألح فى طلبه حتى استجاب له الرسول . فلما استقر المسلمون بالمسجد قام أبو بكر فى الناس خطيباً ودعا إلى الله ورسوله ، فثار المشركون عليه وعلى المسلمين وأخذوا يضربونهم ضرباً شديداً ، وَوُطِئَ أبو بكر بالأرجل وصار عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مَخْصُوفَتين على وجهه حتى طَمِسَتْ معالمه ، وأشرف على الهلاك ، فجاءت قبيلته بنو تيم واستنقذته من المشركين وهم لا يشكون فى موته ، فأقسموا لئن مات ليقتلن به عتبة بن ربيعة .

والتف أهله حوله يكلمونه فلا يجيب ، فلما كان آخر النهار تكلم ، وكان أول ما جاء على لسانه ، سؤاله عن رسول الله ، وكان أهله مايزالون مشركين ، فعذلوه على ذلك ، فألح فى السؤال حتى أشفقت أمه عليه وقالت : والله ما عندى علم بذلك ، فقال لها : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب : أخت عمر بن الخطاب — وكانت مسلمة — فاسأليها ، فذهبت أمه إلى أم جميل وجاءت بها فلما رأته جزعت ، وقالت : إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم .

فسألها أبو بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : هو بخير ، وهو فى دار ابن الأرقم .

فقال أبو بكر : والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله ، فأمهلوه حتى سكن الناس ثم خرجوا به يتوكأ عليهم حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له رقة شديدة وأكبَّ عليه يقبله ، فقال : بأبى وأمى أنت يارسول الله ، مابى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وهذه أمى : بَرَّةٌ بولدها فعسى الله أن ينقذها بك من النار ، فدعا لها الرسول عليه السلام ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت .

الهجرة إلى الحبشة

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى هذه المحنة ولا يستطيع لها دفعا ، فكان يواسى المسلمين الممتحنين ويدعو الله لهم ، ثم فتح الله عليه برأى صائب فيه نجاة بنى

الأحرار منهم وهو إيصاؤهم بالهجرة إلى الحبشة حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه ، وذلك لمـا كان يعلمه من صلاح النجاشى الذى كان يحكمها وقتئذ وحبه الخير ، فهاجر إليها من استطاع من المسلمين مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينه ، وكانت الهجرة إلى الحبشة أول هجرة فى الإسلام .

وقد بلغ عدد المسلمين الذين لحقوا بالحبشة فى الهجرة الأولى ثلاثة وثمانين رجلا

ومن حق التاريخ علينا أن نسجل ما لاقاه مهاجرو المسلمين إلى الحبشة عند النجاشى من حسن الضيافة وكرم الجوار ، ومن حق النجاشى هذا علينا أن نشكر له ذلك وأن نشكره مرتين على أنه أبى أن يستجيب لقريش حين طلبت إليه تسليم المسلمين المجاورين له إلى وفد أرسلته لذلك برياسة عمرو بن العاص قبل أن يسلم ، فقد غضب من ذلك غضبا شديداً ورد إلى الوفد القرشى هداياه وأبى أن يبيع مكارمه بثمن أو ينزل عن مروءته لقاء عرَض .

رجوع معظم المهاجرين إلى مكة

إثر إشاعة سمعوها

وبعد بضعة أشهر من إقامة المسلمين بالحبشة ، سمعوا إشاعة هزتهم : ألا وهى أن قريشا آمنت وصدقت ، فلم يكن أحب إليهم من الرجوع إلى وطنهم ليشاركوا قومهم فى الفرح بإسلامهم وليستأنفوا حياتهم من جديد .

ولـكنهم حين عادوا إلى وطنهم علموا كذب هذه الإشاعة ، ولم يستطع معظمهم دخول مكة إلا مستخفيا أو فى جوار واحد من طغاتها ، وتمـكنت قريش منهم وأمعنت فى إيذائهم وأغرقت فى التنكيل بهم ، فلما أنشئت الصحيفة التى قاطعت قريش بها بنى هاشم وبنى المطلب واشتد الحال بالرسول عليه السلام ، أشار على المستضعفين من المسلمين بالهجرة ثانية إلى الحبشة فهاجروا إليها وظلوا بها حتى هاجر النبى عليه السلام إلى المدينة وفتح خيبر فأرسل فاستدعاهم .

جوار الله ، لا جوار المشركين

واشتد إيذاء قريش المسلمين وعمّ حتى أصبح جاهُ ذى الجاه لا يعصمه منه . ولا سيما أن المسلمين من ذوى المكانة كانوا يتكرمون أن يعتزوا بأهلهم من المشركين ، وقد حملت هذه الحال أبا بكر على الهجرة فخرج يريد الحبشة فلقيه حين بلغ برك الغماد زعيم قبيلة القارة واسمه ابن الدُّغُنّة وكان يعرفه و يقدره ، فسأله وجهته ، فأخبره أنه مهاجر إلى الحبشة اتقاء أذى قريش ، فقال له : مثلك لا يهاجر ، فعد إلى مكة فى جوارى ، ثم رجع به إلى مكة ، وأعلن قريشاً أنه قد أجار أبا بكر ، وأنكر عليهم أن يخرجوا رجلا مثله : يصل الرحم و يحمل الكل و يقرى الضيف ؟ ! .

فأجازت قريش جوار ابن الدغنة لأبى بكر ، ولكنها شرطت عليه أن يصلى فى داره خشية أن يفتن نساءهم وأولادهم ، وفعل أبو بكر ذلك زمناً ، ثم بنى مسجداً بفناء داره فصلى فيه ، وكان رجلا بكَّاء تفيض عيناه بالدمع حين يقرأ القرآن فلا يكاد من يسمعه يستعصم من تأثيره فيه .

وغضبت قريش من إخلال أبى بكر بما شرطوه عليه فأرسلوا إلى ابن الدغنة فلما جاء أطلعوه على ما فعل أبو بكر ، فذهب إليه وخيَّره بين أن يكتم صلاته أو يرد عليه جواره ، فاختار الثانية مؤثرا جوار الله على جوار العبيد ، متحملا كل ما يلقاه من كيد وأذى وسخرية واستهزاء فى سبيل الله .

إيذاء الرسول الكريم

وعمد المشركون إلى إيذاء الرسول الكريم إيذاءً شديداً فسلطوا عليه سفهاءهم يتعرضون له ببذىء القول وهُجْر الكلام ؛ فما كانت تسلم طوفة له حول الكعبة من أذية يتأذى بها ، ولا خلت روحة أو غدوة له إلى البيت الحرام من بلية يبتلى بها ومحنة يتعرض لها ، وجاوز الأمر حد القول والشتم والنبذ والتسفيه إلى حد العمل

العدوانى . فعمد عقبة بن معيط إلى خنق رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه وما زال يشد عليه حتى جحظت عيناه . وأقبل أبو بكر فخلاه عنه ، وقال وهو يبكى :

أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

وعمد سفيه آخر من سفهاء قريش إلى روث جزور فأتى به وألقاه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد بجوار الكعبة ، فظلّ الرسول ساجدا حتى جاءت ابنته فاطمة رضى الله عنها وأزالت الأذى عن أبيها .

وكان من ألوان الأذى التى تعرض لها النبى الكريم مجابهة سفهاء قريش إياه بالتكذيب والتسفيه ورميه بالسحر والكهانة والجنون .

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم :

أن أشد ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ » .

العدو اللدود

وكان عمرو بن هشام المنبوذ فى الإسلام بلقب أبى جهل ، أشد الناس عداوة لرسول الله وأكثرهم بغياً عليه وحسداً له ، فكان يحرض السفهاء عليه ويؤلب القبائل ضده ، ويتعمده بالسوء حيثما استطاع إلى ذلك سبيلا . وقد بلغ من فوران حقده على الرسول أن أمضى عهداً على نفسه أمام الزمرة الخاسرة التى كانت تشاركه فى عداوة الرسول ، أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد بأن يلقى على رأسه حجراً ضخما .

فلما جاء الرسول ليصلى ، عمد أبو جهل إلى حجر كبير وحمله ومضى به نحو الرسول والقوم ينظرون إليه فى إعجاب وتشجيع ، ولكنه ما كاد يقترب من الرسول حتى

رجع مذعوراً وقد انتقع لونه ، فسألوه ماذا جعله يحجم عن عزمه ؟ فقال : اعترضنى دون محمد فحل هائل من الإبل همّ أن يأ كلنى .

وكان هذا الرجل العنيد المتجبر يجمع فى عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين البغض لدعوته والنفاسة عليه والحسد له أن يصبح ذا شأن يعلو شأنه ، وأن يكون فى نجاح دعوته ما يجعل لبنى عبد مناف رجحانا فى الجاه والرياسة على بنى مخزوم قومه . وتروى له فى هـذا المقام مساجلة عجيبة ، فقد أنـكر عليه أحد المقربين منه حقده الشديد على محمد مع ما يعلم من صدقه ومالا يجحده من أمانته ، فقال :

تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذينا[1] على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ؟!

وهذه واقعة من وقائع كثيرة تشهد بأن زعماء المشركين من قريش ، قد أخذتهم العزة بالإثم وركبهم الغرور حتى صدهم عن سواء السبيل ، وليس أدل على ذلك مما حكاه الله عنهم فى معرض التقريع والسخرية حيث يقول :

« وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . »

ووجه العجب فى هذا الجموح ، أنهم لم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، كما يقول العقلاء فى مثل هذا المقام ، لأنهم زعموا أن فى آذانهم وقرا لا تسمع هدى الرسول ، وقلوبهم مغلفة لا ينفذ إليها النور الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) تجاذينا : أى أقعينا .

سخرية من نوع عجيب

وكان من أشد الناس كيدا للرسول صلى الله عليه وسلم ، النضر بن الحارث ، فقد كان رجلا ذلق اللسان ، معسول البيان ، قد وَعَى بعض أخبار الفرس وقصص الملوك الأقدمين ، فكان يزعم أنه يحسن الحديث إحسان محمد إياه ، ثم يعمد إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن يخليه . فيقعد مكانه ويحرك لسانه بالخزعبلات التى يستظهرها مضاهاة للقرآن ومحاكاة للحديث النبوى الشريف ، ثم يقول : بماذا يزعم محمد أنه أحسن منى حديثاً ؟

وهكذا ، اشتد البلاء على الرسول ، وكلبت قريش فى عداوته ، وأصبح كيدهم إياه شغلهم الشاغل وهمهم المقيم المقعد ، والنبى صلى الله عليه وسلم ، ماض لِطِيَّتِهِ ، مُصْعِدٌ فى سبيله . لا تعوقه عقبة مهما تعاظمت ، ولا يثنيه عن عزمه إيذاء مهما اشتد وتفاقم ، والقرآن الكريم مطرد النزول ، يتعقب أقوال المشركين وأعمالهم بالزجر والوعيد والبطش والتهديد ، والمسلمون يتكاثرون يوماً بعد يوم ، والدعوة المحمدية تشيع وتتسع حتى تجاوزت حدود مكة ، وملأت آذان العرب على الرغم من مشركى قريش .

إسلام حمزة بن عبد المطلب

كان المسلمون حتى ذلك الحين قلة مستضعفة ، ولا سيما بعد أن هاجر أكثرهم إلى الحبشة ، وكانوا بسبب هذه الحال أميل إلى المسالمة والصفح عمن يسيء إليهم ، ولم يكن هناك من يفكر فى رد السيئة بمثلها ، ويجزى على الشر بشر مثله ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمدهم بروح من عنده فهدى حمزة بن عبد المطلب أسد الله وعم الرسول إلى الإسلام وقوّى به شوكة المسلمين .

ومن عجيب صنع الله أن إسلام حمزة قد جاء أول الأمر عصبية لابن أخيه بعد أن أُنْهِىَ إليه بعض مساءات أبى جهل له ، ونحن نروى هذا الحادث الجلل فى تاريخ الإسلام ، فيما يلى :

مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره : من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سمعت مولاة لبعض قريش ما قاله أبو جهل للرسول ، وحدث أن جاء حمزة بن عبد المطلب ، وكان لمَّا يسلم ، من صيده ، متقلدا قوسه وكان أعز فتى فى قريش وأشدها شكيمة ، فأنهت إليه الجارية ما حدث قائلة :

يا أبا عُمارة ، لو رأيت مالقى ابن أخيك آنفاً من أبى الحكم بن هشام ، وجده جالساً فآذاه وسبه و بلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد !

فاحتمل حمزةَ الغضبُ ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معداً لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال :

أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك علىّ إن استطعت ؟؟!

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله ، قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحاً .

وتم حمزة على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال حمزة :

لما احتملنى الغضب ، وقلت أنا على قوله — أى قول النبى عليه السلام — أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى ، وبت من الشك فى أمر عظيم لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة ، وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدرى للحق ، ويذهب عنى الريب ، فما استتممت دعائى ، حتى زاح عنى الباطل ، وامتلأ قلبى يقيناً ، فغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما كان من أمرى ، فدعا لى بأن يثبتنى الله .

فلما علمت قريش كلها بإسلام حمزة عرفوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عَزَّ بإسلامه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

ما هو بالشعر ولا بالسحر ؟

لما عز الإسلام بدخول حمزة فيه ، وإقبال الناس عليه ، أرادت قريش أن تعجم عود النبي صلى الله عليه وسلم علّها تفتنه عن أمره ، فأرسلت إليه عتبة بن ربيعة أحد زعماء المشركين فذهب حتى جلس إلى الرسول عليه السلام ، فقال :

« يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ [١] في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال :

يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْياً [٢] تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوَى منه . حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه ، قال :

أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع مني ، قال : افعل ، فقال الرسول عليه السلام :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« حمٓ . تَنْزِيلٌ مِن الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُه ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُون ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ... » الآيات

(١) السطة : هي التوسط .

(٢) الرئى : بفتح الراء وكسرها ما يتراءى للانسان من الجن في زعم الجاهلية .

فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ، ثم قال :

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس اليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :

ورائى أنى قد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش : أطيعونى واجعلوها بى ، وخلُّوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، و إن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه !

قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم ؟

حلاوة وطلاوة ولكنه ساحر ! . . .

كان الوليد بن المغيرة ، والد خالد بين الوليد وعم أبى جهل ، عظيما من عظماء قريش وسيداً يقع منها فى الصدارة الكبرى .

وقد حدث أن سمع النبى عليه السلام ، يقرأ القرآن ، فبهره ما سمع وملأه إعجاباً وتقديراً ، وجاء قومه يحدثهم بأثر ما انطبع فى ذهنه مما سمع من آى الذكر الحكيم ، فقال :

والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، و إن له لحلاوة و إن عليه لطلاوة ، و إن أعلاه لمثمر ، و إن أسفله لمغدق ، و إنه يعلو وما يُعلَى عليه .

فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، لتصبأن قريش كلها .

فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، ثم ذهب إليه وناقضه ما قال ، واشتد عليه فى المقال حتى أركبه العزة بالإثم ولواه عن قصده ، ثم عاد إلى مجلسه من قريش ، فحمى الوليد وذهب إلى حيث تجلس قريش ، وقال :

تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهن ، وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون أنه كذاب ، ؟ فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟

وكان جواب القوم عن كل ما جابههم به الوليد من الأسئلة ، أن قالوا : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ، ففكر قليلا ، ثم قال :

ما هو إلا ساحر : أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟

فعجّ القوم سروراً و إعجاباً من تخريج هذا الأفاك ، وأرضاهم قوله غاية الرضا ، وقد نزل فيه من القرآن آيات كثيرة منها :

« ذَرْنِى ومنْ خلَقْتُ وحِيداً ، وجَعَلْتُ لَهُ مَالاً ممْدُوداً ، وبَنِينَ شُهُوداً ، ومَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إنَّهُ كانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ، سأُرْهِقُهُ صَعُوداً ، إنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ واسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ إنْ هذَا إلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، إنْ هَذَا إلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » .

وليس هناك ما هو أروع ولا أشنع من هذه الصورة التى صور القرآن بها هذا الأفاك المبين .

عتاب شديد

وكان الوليد بن المغيرة الذى مر ذكره ، سببا فى عتب الله على رسوله عتبا شديداً . ذلك أنه حدث بينما كان النبى عليه السلام يتحدث معه فى الإسلام راجيا هدايته إذ

جاءه عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وصاح به : استدنني يا محمد ، يريد من النبي أن يعرض عليه الإسلام والقرآن والنبي مستغرق فى إقناع الوليد بن المغيرة ، فلما أكثر عليه انصرف النبي عنه عابسا وتركه ، فكان أن عاتبه الله عتابا شديداً على إهمال من جاءه يتزكى ولو كان فقيرا . فقال عز شأنه :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى » . الآيات بسورة عبس .

وفى رأى بعض خيار أهل السيرة النبوية ، إن ابن أم مكتوم لم يكن قد أسلم يوم نزل فيه القرآن ذلك أنه قال : استدنني يا محمد ولم يقل : يا رسول الله ، وهذا الفهم للواقعة يجعلها أدخل فى مكارم الأدب الربانى الذى وصفه الرسول بقوله : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، ووجه ذلك أن عتب الله على نبيه لإهماله شأن مسلم أمر تجرى به العادة وليس فيه غرابة ، أما عتبه عليه لأنه أهمل مشركا فقيراً أعمى بسبب انهماكه فى تبليغ الدعوة لرئيس من رؤساء المشركين ، وما فى ذلك من إيثار القوى على الضعيف ، فذلك هو الأدب السامى والتعليم الربانى .

إسلام عمر بن الخطاب

كان عمر بن الخطاب من فتيان قريش ذوى البأس والنجدة ، ومن فرسانهم أهل الحفيظة والشكيمة ، وكان إلى ذلك حربا على الله ورسوله ، وكربا وبلاء مصبو بين على المسلمين الأولين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم من أمره ما يعلم ويدرك مبلغ الكسب الذى يفيده الإسلام إذا صار من أهله ، ولذلك كان يدعو ربه أن ينصر الإسلام بواحد من اثنين هما، أبو الحكم بن هشام وعمر بن الخطاب.

واتفق فى الوقت الذى تحرجت الأمور فيه بين النبي عليه السلام و بين قريش وحين رأى أعداء الإسلام أن الدعوة إليه تفشو يوما بعد يوم ، والإقبال عليها يزداد

ساعة إثر ساعة — أن تقمص الشيطان جسم عمر بن الخطاب فآلى على نفسه أن يفض هذا المشكل الذى أعيا قريشا كلها فضه ، بأن يتولى هو قتل محمد و يبوء بتبعة جرمه وحده .

و تقلد عمر سلاحه ، وسأل أين محمد ؟ فقيل له : فى بيت عند الصفا ، فقصد إليه ، و بينما هو سائر لقيه نُعَيْم بن عبدالله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم ! والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض ، وقد قتلت محمدا ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال : وأى أهل بيتى ؟

قال : خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما ، وأراد نعيم بذلك أن يصرفه عن وجهته من التصدى للنبى عليه السلام .

فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خبَّاب بن الأرتّ معه صحيفة فيها « طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيب خبَّاب فى مخدع لهم ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها .

وكان عمر قد سمع حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل ، قال : ما هذه الْهَيْنَمَة [1] التى سمعت ؟ قالا له :

ما سمعت شيئا .

قال : بلى ، والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ، و بطش بختنه سعيد ابن زيد ، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه :

نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدالك .

---

(١) الهينمة : صوت كلام لا يفهم .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته :

أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر قارئا كاتبا ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافى وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليه ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه ، فقالت له يا أخى ، إنك نجس ، على شركك ، و إنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » فلما انتهى إلى قوله تعالى « لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » قال :

ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خبَّاب ، خرج إليه ، فقال له ياعمر ، والله ، إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله ، الله ، يا عمر !

فقال له عند ذلك عمر : فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه . ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب الرسول عليه السلام ، فنظر من خَلَل الباب ، فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، و إن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له ، فأذن له الرجل ونهض إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته[١] ثم جبذه[٢] جبذة شديدة ، وقال :

---

(١) الحجزة ، موضع شد الإزار .

(٢) جبذه : هزه هزاً عنيفاً .

ماجاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر :

يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله و برسوله و بما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم .

و بإسلام عمر عز الإسلام وقويت شوكة المسلمين . وحسبك دليلا على هذا قول الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود :

إن إسلام عمر بن الخطاب كان فتحاً ، و إن هجرته كانت نصراً ، و إن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً ، حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه .

ولما أسلم عمر عز عليه أن يتخفى المسلمون فخرج بهم صفّا ، على رأسه حمزة بن عبد المطلب وكان هو فى مؤخرته ، فذهل المشركون منه وخفضوا رءوسهم ذلة واستكانة .

وهكذا خرج عمر والشيطان متقمصه وراح إلى بيته ، وقد فارقه الشيطان فراق الأبد ، ووجد من عمر خصما عنيداً وعدواً لدوداً ؛ ولا غرو فقد أخرج البخارى فى صحيحه قول الرسول عليه السلام :

« إيهاً ، يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان سالكا فَجًّا قط إلا سلك فجاً غير فجك » .

وكان عدد المسلمين حين أسلم عمر بضعة وأر بعون رجلا و إحدى عشرة امرأة .

إشهار الحرب الاقتصادية على محمد وآله

لما رأى مشركو قريش ، أن أبا طالب يمنع محمداً صلى الله عليه وسلم منهم ، وأن أنصاره كل يوم فى ازدياد ، وأن شوكته قد قويت بإسلام حمزة بن عبد المطلب

وعمر بن الخطاب ، اجتمعوا للنظر فى خطة تعم النبى وآله بالشر وتفضى بهم إلى كرب عظيم ، وقد أملى عليهم الحقد المتغلغل فى نفوسهم هذه الخطة وهى مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب مقاطعة اقتصادية تامة ، فلا يتزوجوا إليهم ولا يزوجوهم ، ولا يبيعون لهم شيئا ولا يبتاعون منهم شيئا . وقد كتبوا بذلك صحيفة تعهدوا فيها بأغلظ الأيمان وأشد المواثيق أن يحترموها كلهم ولا ينقضوها بصورة ما ، ثم علقوا الصحيفة بجوف الكعبة توكيدا على أنفسهم .

وعلى أثر تحرير هذه الصحيفة انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شعبه ، ولم يشذ عنهم إلا أبو لهب ، فإنه انسلخ من عشيرته وظاهر عليها قريشا .

وقد جَدَّت قريش فى تنفيذ شروط الصحيفة ، بل جاوزوها إلى ما هو شر منها ، ذلك أن أبا لهب كان يتتبع بنى هاشم حين يريدون شراء بعض حوائجهم من غير قريش فيغرى التجار أن لا يبيعوهم ما يريدون شراءه على أن يدفع لهم من ماله أكثر من الثمن الذى يسمونه لبضائعهم ، ويقول للتجار قد عرفتم كثرة مالى وانتشار جاهى فأموالكم مضمونة وحقوقكم مكفولة .

وحدث أن لقى عدو الإسلام أبو جهل ، حكيم بن حزام بن خويلد ابن أخ السيدة خديجة رضى الله عنها ، يحمل قمحاً يريد به عمته فتعلق به ، وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . فجاءه أبو البخترى ابن هشام من بنى أسد ، فقال : مالك وله ! هذا طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل فأخذ أبو البَخْتَرِى لِحْى بعير فضربه به فشجه .

وقد لاقى رسول الله ومن معه من عشيرته الأقربين ، عنتا كبيراً من هذا الحصار فجاعوا وجاعت أطفالهم حتى لقد كانوا يأكلون كل رطب ويتبلغون بجلود الأنعام ، وقد كان بعض أقاربهم وأنسبائهم يرسلون إليهم بعض الطعام خفية ولكنه ما كان يغنى شيئا .

وقد ظل هذا الحصار الاقتصادى الشديد قائما ثلاث سنين تقريبا ، و نال من المحاصرين نيلاً شديدا وابتلوا منه بمحنة لم يعصمهم معها من الفتنة أو ينجيهم من الموت غير لطف الله وعظم همتهم وصلابة عودهم .

نقض الصحيفة

و لم تكن قريش كلها راضية عن هذا العمل غير الكريم ، ولكنها قد تورطت فيه تورطاً غطى على بصائرها ، وشاء الله أن ينزع ، عن بعض القلوب الرحيمة ماخيم عليها ، فهب جماعة من أشراف قريش من سباتهم ، و تذاكروا فيما بينهم ما يلقاه بنو هاشم و بنو المطلب من الشدة والضنك ، وعز عليهم أن ينعموا هم بالعيش و إخوانهم لا يجدون منه ما يقيم الأَوَدَ ، وكان أن اتفقوا على أن يجتمعوا فى الحرم صبيحة اليوم التالى لاجتماعهم ، فيعلنوا نقض الصحيفة .

وقد كانت هذه الفئة الرحيمة من قريش مؤلفة من : هشام بن عمرو بن الحارث العامرى — وكان السابق إلى فكرة نقض الصحيفة ، وأعظم إخوانه بلاء فى تحقيق هذه الفكرة النبيلة ، والمطعم بن عدى النوفلى ، وأبو البَخْتَرى بن هشام الأسدى وزَمْعَة بن الأسود الأسدى ، وزهير بن أبى أمية المخزومى .

وأصبح هؤلاء النفر فقصدوا إلى البيت الحرام فكانوا به ثم انضموا إلى مجلس قريش ، فقال زهير بن أبى أمية :

يا أهل مكة : أنأكل الطعام ونلبس الثياب و بنو هاشم وبنو المطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة .

فقال أبو جهل : كذبت !

فقال زمعة لأبى جهل : أنت والله أكذب ، ! مارضينا كتابتها حين كتبت !

وقال أبو البخترى : صدق زمعة !

وقال المطعم بن عدى : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك !

وصدق على ماقيل ، هشام بن عمرو .

فقال أبو جهل : هذا أمر قد شوورا فيه بليل !

ثم قام المطعم بن عدى فأخذ الصحيفة فشقها فوجد الأرضة قد أكلتها ولم يبق فيها غير عبارة « باسمك اللهم » وهى العبارة التى كانت قريش تستفتح بها كتبها فى الجاهلية .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر عمه أبا طالب بفعل الأرضة بالصحيفة .

وعلى هذا النحو انكسر الحصار الاقتصادى ، وفشلت الخطة التى وضعتها قريش لإماتة النبى وآله جوعاً ، فخرج المحاصرون من شعب أبى طالب ، وذهب كل منهم إلى مسكنه من مكة ، واسترد الجميع حريتهم فى البيع والشراء .

الدعوة ماضية فى سبيلها

استعانة قريش بيهود يثرب

كان الحصار الاقتصادى الذى ضرب على محمد صلى الله عليه وسلم وآل بيته ، مقصوراً على صفته الاقتصادية ، وبعض النواحى الاجتماعية ، كمنع التزاوج بين آل محمد وبين سائر بطون قريش ، وأبقت قريش للمحاصرين حرية الحركة فكانوا يذهبون كعادتهم إلى البيت ويطوفون بالكعبة ويذهبون كيف شاءوا .

وكان النبى عليه السلام ماضياً فى نشر الدعوة الإسلامية بكافة الطرق وشتى الوسائل ، وكانت قريش ماضية كذلك فى محاربة هذه الدعوة بكل ما يسعها من جهد ، ولم تقصر وسائل الحرب على ضرب أو أكثر بل افتنّت فى ذلك افتناناً ، ولجت فيه كذباً وبهتانا .

وقد مضى وصف بعض ألوان هذه الحرب ماثلا فى تعذيب من يسلم منهم سواء أكان حراً ، أم كان عبداً ، وقد ظل هذا الضرب من فنون الحرب قائماً ، لا تأخذ قريش رحمة فيمن يسلم ولا تعصمه رَحِمُه منهم ومكانته فيهم من العذاب الشديد والنكال المبين .

ومن بين الوسائل التى ابتدعوها محاولة نقض الرسالة المحمدية عن طريق أهل الكتاب فكان أن أرسلوا وفداً إلى يهود يثرب يصف محمداً بالكذب فى زعمهم ، و يطلب إلى أهل الكتاب أن يمدوهم بمدد من علوم الدين يعينهم عليه ، فأمدهم علماء اليهود بثلاثة أسئلة وضعوها ، وقالوا لهم : إن أجاب محمد عليها فهو صادق الدعوى ، و إن لم يجب عليها فهو متقول .

أما هذه الأسئلة فأولها متصل بحكاية أهل الكهف ، وثانيها متصل بحكاية ذى القرنين ، وثالثها متصل بالروح : ماهى ؟

فلما رجع وفد قريش إلى مكة طرح على رسول الله عليه السلام هذه الأسئلة فقال : سأجيبكم عنها غداً ، ولم يقل إن شاء الله فلم يهبط عليه جبريل بالوحى خمسة عشر يوماً، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه خلالها فى أشد حالة لما كان يخشاه من خذلان الله إياه ، ولما كان يلقاه من شماتة قريش وتحديها له . وقد تدارك الله رسوله برحمته فأنزل عليه جبريل بسورة الكهف رداً على الأسئلة التى وجهت إليه ، فذكر القرآن قصتى أهل الكهف وذى القرنين ، وعتب الله على نبيه عتاباً رقيقاً أنْ حدد موعد الإجابة ، ونسى أن يقول : « إن شاء الله » .

« ولَا تَقُولَنَّ لِشَىءٍ إنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً إلا أنْ يَشَاءَ اللهُ واذْكُرْ ربَّكَ إذَا نَسِيتَ وقُلْ عَسٰى أنْ يَهْدِيَنِ ربِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا رشَدًا » .

وأجاب عن سؤال الروح بقوله تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ،قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ ربِّى ومَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلَّا قَلِيلًا »

الحيلولة بين الرسول و بين شخصيات العرب

وكان من وسائل الحرب التى شهروها على الدعوة المحمدية ، المبادرة إلى استقبال الشخصيات العربية ذات الجاه والنفوذ فى محيطها بالقبائل ، عند وفودها إلى البيت الحرام فى موسم الحج ، وسائر أيام السنة، وتحذيرها من محمد وتصويرهم إياه بأنه ساحر كذاب ، قد جعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ! . .

وكان من بين مشاهير الشخصيات التى صدّها كيد قريش عن مقابلة الرسول عليه السلام أعشى قيس ، وهو شاعر مشهور ، وكان للشعر فى ذلك الزمن ما يساوى مكانة الصحافة هذه الأيام ، فلما علمت قريش أن هذا الشاعر الكبير قدم مكة مادحاً لمحمد عليه الصلاة والسلام ، سارعوا إليه ونفّروه من الإسلام ، وكان أعظم شىء وقع من نفسه وقعاً سيئاً فيما سمع : أن الإسلام يحرم الخمر . فقال الأعشى : لقد بقى فى نفسى شىء منها فلأرجع هذا العام فأقضى حاجتى منها ثم أعود من قابل ، ولكنه مات ذلك العام .

ومن الشعراء المعدودين فى الجاهلية الطفيل بن عمرو الدوسى،وكان إلى ذلك سيداً فى قومه مطاعا فيهم ، وقد قدم مكة وحرب الكلام مستعرة بين رسول الله و بين قريش ، فتلقاه رجال من قريش وحذروه من لقاء محمد وقالوا له : إن هذا الرجل يفرق بين الرجل و بين أبيه ، و بين المرء و بين زوجه . ولكن إرادة الله كانت قد سبقت له بالهداية ، فقال يخاطب نفسه :

إننى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علىَّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، و إن كان قبيحاً تركته .

ثم تبع النبى صلى الله عليه وسلم إلى بيته ، فأخبره بما وسوست به إليه قريش ، فعرض عليه النبى صلوات الله وسلامه عليه الإسلام وتلا عليه القرآن . وهنا يحلف الطفيل بالله : أنه ما سمع قولا قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، فأسلم ، وكان من المجاهدين الصابرين ، ورجع إلى قومه فأسلم أهله بإسلامه .

وفد من النصارى يؤمن بالله ورسوله

وكانت هجرة من هاجر من المسلمين إلى الحبشة سبباً فى انتشار ذكر الإسلام بها ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وفد من النصارى يبلغ نحو عشرين رجلا وقابلوه بمجلسه حول الكعبة وكلموه وسألوه ، فلما فرغوا دعاهم الرسول إلى

الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وصدَّقوا برسوله ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم من أمره فى كتابهم .

فلما انصرفوا من حضرة الرسول عليه الصلاة و السلام اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش ، وقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال !

فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

هزل صار جدًّا

وكان من بين فنون الكيد لرسول الله ، إغراق قريش فى السخرية به والتهكم عليه ، وقد حدث من هذا القبيل أن رجلا من العرب باع إبلا لأبى جهل فمطله ثمنها ، فقصد إلى نادى قريش حول الكعبة وسأل : من يأخذ له بحقّه منه ؟ فأشار سفهاء قريش إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس ناحية أخرى من الكعبة ، وقالوا للرجل — وهو يجهل ما بين النبى و بين أبى جهل من عداوة — : عليك بهذا الرجل فإنه الوحيد الذى يستطيع إنصافك من أبى الحكم !

فذهب الرجل وهو خالى الذهن مما هنالك إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر له قصته مع أبى جهل ، ومشورة رهط قريش عليه بالالتجاء إليه لينصفه منه ، فقام معه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجاء به دار أبى جهل فطرق بابها ، فقال أبو جهل : من هذا ؟

قال محمد : فاخرج إلىّ .

فخرج أبو جهل ، وقد انتقع لونه ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : أعط هذا الرجل حقه !

قال : نعم ! لاتبرح حتى أعطيه الذى له ، ثم ذهب فجاء بمال البدوى فدفعه إليه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للبدوى : الحق بشأنك .

ولكن البدوى رأى حقاً عليه أن يذهب إلى الرهط الذى دله على محمد ليشكر إليه حسن مشورته ، فقد استخلص له محمد حقه من أبى جهل ! فذهل القوم وكبر عليهم أن يصدقوا ذلك حتى جاءهم أبو جهل فسألوه عن جلية الأمر ، فقال : ويحكم ! والله ماهو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت منه رعباً ! . .

ومن ضروب الحرب التى شنتها قريش على الله وعلى رسوله ، تتبع مايوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن بالنقض والتكذيب ، والسخرية والاستهزاء ، والتحدى البغيض والتمرد على الله ورسوله ، والعمد لمخالفة كل ما يدعو إليه الإسلام من مبادئ شريفة وتعاليم صالحة ، وكانوا يفعلون كل هذا وغيره وهم على يقين من أن محمداً رسول الله حقاً ، وأن ما جاء به هو تنزيل من عند الله ، وليس سحراً أو كهانة ، ولكن غلبت عليهم الضلالة ، فمضوا فى غيهم يعمهون .

وفاة خديجة

وفى العام السابع من مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام ، اختار الله إلى جواره الكريم السيدة خديجة زوج النبى ، وأول من آمن به وصدق برسالته ، وأعظم من آزره وأعانه وكان له الملاذ الأمين حين تشتد الحوادث وتدلهم الخطوب .

وقد حزن الرسول الكريم لوفاة زوجه الفضلى حزناً شديداً ، وأحس سعة الفراغ الذى خلفه وفاتها ، وافتقد العون الذى كان يلقاه منها فى مثل الظروف التى كان لا يزال يعانيها من عنت قريش وتكذيبها إياه .

وقد تزوج النبى من خديجة وهو فى سن الخامسة والعشرين ، وعلى ذلك يكون هذا الزواج المبارك قد دام اثنتين وعشرين سنة .

وقد ولدت السيدة خديجة للنبى عليه الصلاة والسلام جميع أبنائه إلا إبراهيم ، وهم : القاسم — وكان النبى يلقب به — وعبد الله الملقب بالطيب ، والطاهر ، وأم كلثوم ، ورقية ، وزينب ، وفاطمة . وقد مات القاسم وعبد الله قبل الرسالة .

وفاة أبي طالب

وعلى أثر وفاة السيدة خديجة بشهر تقريباً ، هلك عمه أبو طالب ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب ، حتى إنه كان يسمى العام الذى توفيا فيه عام الحزن ، وهو حقيق بهذه التسمية .

وكان أبو طالب مجموعة من الأخلاق الكريمة ندر أن تتلاقى فى رجل من الرجال ، وقد اضطلع بالعبء الأكبر من حماية الرسول عليه الصلاة والسلام ومنع الأذى عنه ، وعصمه من كيد قريش ، وآثر أن يجوع هو وعياله على أن يسلمه لهم ؛ فتمت بذلك مروءته ووفى بعهده الذى قطعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له : اذهب فقل ما شئت فإنى لا أسلمك لهم أبداً .

وقد كان أبو طالب شاعراً فحلا ، خلّد موقفه من قريش وموقف قريش منه فيما يتصل بأمر ابن أخيه محمد صلوات الله وسلامه عليه فى قصائد رائعات مملوءة بالعزة والكرامة ، وهى منشورة فى كتب السيرة المطولة ، ولاسيما لاميته المشهورة التى يصف فيها رسول الله بقوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثِمَال اليتامى عصمة للأرامل

وقد جَهِد النبى صلى الله عليه وسلم نفسه مع عمه أبى طالب وهو يحتضر أن يسلم ، ولكنه أبى ذلك مع حبه إياه حبًّا يتسامى عن الوصف ، وكانت حجته فى ذلك عجيبة ، فاستمع إليه يدلى بعذره إلى الرسول :

ياابن أخى ، والله لولا مخافة السُّبَّة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها — أى الشهادتين — لا أقولها إلا لأسرك بها .

وبوفاة أبى طالب فقد الرسول عليه الصلاة والسلام الملجأ الأمين الذى كان يعوذ به فى الشدة ، والحصن الذى كان يحميه من أعدائه ، إذ مالبثت قريش أن بلغت

مرادها منه ، واشتد أذاها له حتى إن سفيهاً من سفهائها نثر التراب على رأسه ، فأخذت إحدى بناته تغسل عنه التراب وهى تبكى والرسول يقول لها :

لاتبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك ، ثم يقول :

ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

أم المؤمنين سودة بنت زمعه

بعد وفاة السيدة خديجة بأقل من شهر تزوج النبى عليه الصلاة والسلام بسودة بنت زمعة العامرية القرشية ، وكانت قبله تحت السكران بن عمرو ابن عمها وهما ممن آمن بالله ورسوله ولقيا أذى كثيراً من قومهما ، مما اضطرا معه إلى الهجرة إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ، فلما عادا توفى عنها زوجها فتزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام برًّا بها ، وخوفا عليها من أن تتعرض للفتنة والأذى .

أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق

أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يوثق الروابط القوية التى كانت بينه وبين أبى بكر رضى الله عنه فتزوج ابنته عائشة وهى فى سن السابعة ولم يدخل بها إلا بعد أن هاجر إلى المدينة وكانت قد بلغت التاسعة من عمرها ، ولم يتزوج النبى عليه الصلاة والسلام بكرا غيرها ، وكانت أحب أزواج النبى عليه الصلاة والسلام إليه ، وأكثرهن أخذاً عنه ورواية لحديثه ونقلا لتعاليمه ، وقد ورد فى الحديث الشريف قوله عليه الصلاة والسلام : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» وللكلام عنها بقية ترد عند بناء المصطفى عليه الصلاة والسلام بها فى سياق السيرة إن شاء الله .

رحلة الطائف

كانت الطائف أقرب المدن جواراً إلى مكة ، وقبيلة ثقيف التى تستوطنها من أكبر القبائل العربية عدداً وأمنعها مكانا ، فخرج إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه يرجو لأهلها الهداية ، ويلتمس منهم المعونة والمنَعة من قريش ، ولكن الله لم يشأ

أن يشرفهم بهذه الفضيلة فأساءوا استقباله وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط[1] لعتبة وشيبة ابنى ربيعة القرشيين ، فجلس تحت ظل شجرة عنب وأخذ يناجى ربه قائلا :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على النـاس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تَـكِلُنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى[2] ، أم إلى عدو ملـكته أمرى ، إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولـكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ما أبلغ هذا الخطاب وما أكرم هذا العتاب !

ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة علم أن ثقيف أخبرت قريشاً برحلته إليها وأن مشركى مكة قد غلت عداوتهم له واستحال عليه جوارهم ، فأرسل إلى المطعم ابن عَدِىٍّ أن يكون جاراً له فقبل ذلك ، وذهب هو و بنوه إلى البيت شاكى السلاح ومعهم رسول الله ، فلما رأته قريش قال قائلها : أمجِير أم تابع ؟ فقال مجير . فقالوا : إذن لا نخفر جوارك !

الإسراء والمعراج تحت ضوء الاعتقاد

نرى قبل أن ندخل فى تفاصيل معجزة الإسراء والمعراج أن نقدّم بين يدىّ ذلك قولا حضرنا والله ولى التوفيق .

إن حديث الإسراء والمعراج داخل فى باب المعجزات التى اختص الله بها رسله وأكرم بها أنبياءه ، وقد كانت عامة فى جميع الأديان التى تقدمت الإسـلام ، فلـكل رسول معجزة أو معجزات ، ولـكل نبى خارقة أو خارقات ؛ حتى أصبحت المعجزات

---

(١) حائط : بستان .

(٢) تجهمه : استقبله بوجه كريه .

تجرى من الأديان مجرى الأصل من أصولها والطبع الملازم لها ، وبتتابع الرسل وتواتر المعجزات التى أيدوا بها صارت المعجزة أمراً تعبديا ، يقتضينا الإيمان أن نصدقها من غير أن نناقشها ، وقد يستطيع العقل والعلم تأويل بعضها وتفسيره تفسيراً علميًّا ، ولكن معظمها يتأبى ذلك . ومن أجل هذا أصبح التسليم أسلم وصار الوقوف منها عند حد الاعتقاد والإيمان أحكم ؛ وإلا فبماذا يؤول العلم إحياء عيسى عليه السلام الموتى وكلامه فى المهد صبيا ؟ وبماذا يؤول العلم محو آية النار حين ألقى فيها إبراهيم عليه السلام وصيرورتها عليه برداً وسلاماً ؟

لهذا ولغيره من الأسباب الكثيرة التى لا تخفى على ذوى البصائر يرى المؤمن الخالص العقيدة قبول أمر المعجزات من غير شك أو مماحكة ، على أنه أمر اختص الله به رسله وأنبياءه ليكون آية للناس وعلامة على أن ما يدعون إليه من الإيمان هو من عند الله .

نقول هذا ولا يخفى علينا أن معجزة الإسلام الكبرى هى القرآن ؛ وهى معجزة لا يضارّ معها العقل ولا يأباها العلم ، فقد تحدّى الله سبحانه وتعالى العرب أن يأتوا بسورة واحدة مثل سوره فأعجزهم ذلك ، ومضت الدهور وتعاقبت الحقب من غير أن يستطيع أحد أن يقوم لهذا التحدى مقاما يحفل به أو يؤبه له ، على حين أن معجزات الرسل الذين تقدموا محمدا بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كانت كلها أو معظمها قائمة على خرق النواميس الكونية كما سبق أن ذكرنا مُثُلاً من ذلك فى معجزات عيسى وإبراهيم عليهما السلام .

ونخلص من هذا كله إلى الكلام عن معجزة الإسراء والمعراج ، فنقول : إن هذه المعجزة مروية على وجهين ، وجه يقول : إنها كانت رؤيا منامية ، وآخر يقول : إنها كانت رؤيا عِيان ومشاهدة يقظان ، ولكل من هذين الوجهين أنصار من الصحابة والتابعين وأصحاب المذاهب الفقهية فى الإسلام ، ومن الصعب ترجيح أحدهما على الآخر ، فمن ذهب مذهب القول بأنها كانت رؤيا منامية ،

وجد من الروايات ما يؤيد مذهبه ، ومن آثر الوجه الثانى ألفى ما يؤكد اجتهاده ويطمئن نفسه ، وليس لأحد الوجهين ترجيح على صاحبه إلا من حيث إن الوجه الأول — وهو أنها رؤيا منامية — يخرج المسألة من نطاق الخوارق الكونية ويضعها موضع الخصوصية الروحانية التى لا تستكثر على نبى ولا تتعاظم على رسول .

وقد جاءت الكتب السماوية بكثير من الأمثلة التى كانت الرؤيا المنامية تقوم مقام الوحى ، وتنزل منزلة الأمر الإلهى واجب التحقيق ، فكان النبى الذى يرى رؤيا محددة المعالم بينة الاتجاه ، يعمل بما رآه حتما . والمثل الواضح على ذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه اسماعيل ، فقد عمد إلى تحقيق هذا الأمر الإلهى ومضى فيه إلى أن نودى بأنه قد صدّق الرؤيا وأُحِلَّ منها بفداء ولده الكريم .

وفى أصدق الأنباء عن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أن الرؤيا الصادقة كانت أولى بشائر الوحى ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

ولحادث الإسراء والمعراج مدخل مستفاد من علم النفس فى وضعه الحديث ؛ ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام كان حريصاً جدًّا على هداية قومه لما يعلمه من أنهم إذا آمنوا به تبعهم العرب على إيمانهم ، وكُفِى مؤونة الاحتجاج القائل بأنه لو كان جاء بخير لكان قومه أول من صدقوا به ، ومن أجل هذا كان كثيرَ الدعاء أن يمده الله بروح من عنده يمحق عناد قريش ومماحكتها بسبب ما فيه من خوارق تتسامى على القوانين الكونية ، ولا تخضع للنواميس العادية ، فكان أن استجاب الله لرسوله ، فتجلت نعمته عليه بهذه الرؤيا لتكون آية لمن يريد الله له الهدى ، وفتنة لمن لجَّ فى الضلالة :

« وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ [1] » .

---

(١) الإسراء : ٦٠ .

ومن أخذ بالوجه القائل بأنها كانت رؤيا عيان ، وأن المعراج إلى السموات قد تحقق فعلا ، فليس أمامه إلا إيمانه الصادق بالله ورسله يعصمه من الزلل ويحميه من الخطل .

ومتى استذكر المؤمن عظمة الله البالغة وقدرته التى لا حدود لمداها ولا غاية لمنتهاها ، فإنه سيجد من انشراح صدره وطمأنينة نفسه ما يعلم أن الإسراء بشخص من بلد إلى بلد والمعراج به إلى السموات العلى ليس بشىء أمام قدرة العلى الكبير وعظمة ذى الطَّوْلِ والحول القدير .

ومن يدرى فلعل بعض قراء هذا الكتاب من الأحياء أو أبنائهم يشهدون معراج الآدميين إلى الكواكب فقد كثر الكلام فى ذلك اليوم . ومتى استطاع الإنسان الفانى هذا العمل فلينظر العاقل مبلغ القدرة الإلهية ، وعظمة الإله العلى الكبير .

قصة الإسراء

وتتلخص قصة الإسراء فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتِىَ بالبراق — وهى الدابة التى كانت تحمل الأنبياء قبله ، وهى تضع حافرها فى منتهى طرفها — فحُمِل عليها حتى انتهى إلى بيت المقدس فوجد فيه إخوانه النبيين : إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ، وأُتِىَ له بإناءين فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ، فأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر . فقال له جبريل : هُدِيتَ للفطرة وَهُدِيَتْ أمتك يا محمد ، وحرمت عليكم الخمر .

قصة المعراج

فلما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم مما كان فى بيت المقدس أتى بالمعراج ، ولا يرى شىء أحسن منه ، فأصعده جبريل فيه إلى السموات العلى ، وقابل فيها كثيرين من إخوانه الأنبياء وأبيه آدم عليه السلام ، وفرضت عليه الصلاة وكانت

خمسين فى اليوم ، ولكن موسى عليه السلام ذكر له أنها كثيرة ، وأشار عليه بمراجعة ربه لتخفيفها عن أمته ، وما زال النبى عليه الصلاة والسلام يراجع ربه فى هذا الأمر بمشورة موسى عليه السلام حتى خففت الصلاة إلى خمس فى اليوم ، فسأله موسى أن يراجع ربه فى التخفيف مرة أخرى فاستحيا رسول الله من ذلك لكثرة ما راجع ربه فى هذا الأمر .

وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الرحلة السماوية مشاهد كثيرة دالة على عظمة الله شاهدة بوحدانيته ، ناطقة بعظمة ملكوت السموات ، منبئة بمصائر من يكفرون بالله أو يجترئون على حد من حدوده .

وأرجح آراء الفقهاء وأصحاب السير أن الإسراء والمعراج كانا فى ليلة واحدة .

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادى قريشا فحدثها حديث الإسراء فكذبوا به ، وطلبوا إليه أمارات تشهد بصدق قوله فذكر لهم الكثير من ذلك ثم طلب إليه وصف المسجد الأقصى فصوره الله أمام ناظريه حتى وصفه وصفا دقيقا ؛ ولكنهم كذبوه وجحدوه على رغم صدق الأمارات التى ذكرها .

وصدَّقه أبو بكر فى كل ما ذكره من غير تردد أو تشكك ؛ ومن أجل ذلك سمى الصِّدِّيق .

عرض الإسلام على قبائل العرب

وعمد النبى عليه الصلاة والسلام إلى توسيع دائرة الدعوة إلى الإسلام من طريق عرضها على العرب كافة ؛ فكان لا يسمع بوفادة أحد من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده .

ثم أخذ صلوات الله وسلامه عليه يعرض نفسه على قبائل العرب فى المواسم ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه به الله ، ويقول فيما يقول :

« يا بنى فلان : إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به » .

وكانت قريش ترسل وراءه من يعقب على كلامه بتحذير العرب من طاعته وتهجين دعواه ، وكان عمه أبو لهب يتولى هذه المهمة فى أغلب الأحوال .

واختلفت أحوال القبائل فى الرد على دعوة المصطفى لينا وشدة ، ولكنها اتفقت فى عدم الاستجابة لها ، ولم يكن هناك أحد من العرب أقبح ردا على الرسول من قبيلة بنى حنيفة رهط مسيلمة الكذاب .

الاتصال الأول بالأنصار

لم يكن بين حيين من أحياء العرب من التناحر والبغضاء مثل ما كان من ذلك بين الأوس والخزرج أهل يثرب ؛ فقد كانوا دائماً فى قتال ، أو على موعد من قتال . وقد حدث أثناء الفترة الزمنية التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل أيام موسم الحج ، أن وفد إلى مكة أبو الحيسر : أنس بن رافع فى فتية من الأوس يلتمسون الحلف من قريش على أعدائهم من الخزرج ، وقد سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم :

هل لكم فى خير مما جئتم له ؟

فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل علىّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاما حدثا ـ : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له .

فأخذ أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس وانصرف الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم كانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج وكان النصر فيها للأوس .

ولم يلبث إياس بن معاذ أن توفى وهو يهلل ويكبر الله ويحمده ويسبحه ؛ إذ كان قد استشعر الإسلام حين سمع من رسول الله ما سمع .

بشائر الفتح

الأنصار الستة المباركون

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، خرج رسول الله فى الموسم التالى يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع كل موسم ، فبينما هو عند العقبة ، لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، وهم :

أسعد بن زُرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة ابن عامر بن حديدة ، وعُقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله .

فسألهم النبى صلى الله عليه وسلم من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما فتح الله به عليهم أنهم كانوا يجاورون يهود يثرب ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك ، وأصحاب أوثان ، فكانوا إذا حدث بينهم نزاع ، قال اليهود لهم :

إن نبيًّا سيبعث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم .

فلما كلم رسول الله أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : ياقوم ، تعلمون والله إنه للنبى الذى توعّدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه !

وكان أن استجابوا للرسول عليه الصلاة والسلام ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا :

إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ؛ فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك .

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام ، فاستجابوا له حتى فشا فيهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بيعة العقبة الأولى

بيعة النساء[1]

كان إسلام الفتيان الستة من الأنصار خيراً و بركة على الأنصار وعلى الإسلام ، فقد أسلفنا أنهم نشروا الإسلام فى المدينة حتى أصبحت دورها عامرة به . ومع أن هؤلاء الفتيان كانوا من الخزرج ولم يكن بينهم أحد من الأوس ، وعلى الرغم من أن فريقى الأنصار كانوا على حرب دائماً وكان عهدهم قريباً بيوم بُعاث الذى كادت الأوس تفنى فيه الخزرج — أقول على الرغم من هذا كله ، ألّف الإسلام بين قلوبهم حتى أصبحوا بنعمة الله إخوانا ، ولم يحدث منذ أن نشبت الحروب المعَمّرة بينهم أن اتفقوا على شىء أو اجتمعت كلمتهم على أمر ، قبل أن يجتمعوا على الإسلام .

ولما جاء موسم الحج الذى تلا إسلام مَنْ ذكرناهم من الأنصار ، وافى مكة من الأنصار اثنا عشر رجلا ، عشرة من الخزرج وهم :

أسعد بن زرارة ، وعوْف ومعاذ ابنا الحارث بن رفاعه ، ورافع بن مالك بن العَجْلان وذَكْوان بن عبد قيس ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة وعقبة بن عامر ، وقطبة بن عامر .

---

(١) سميت بيعة النساء لأن شرط القتال لم يكن فيها إذ أنه لم يكن شرع .

واثنان من الأوس وهما : أبو الهيثم بن التَّيْهان واسمه مالك ، وعُوَيم بن ساعدة .

وقد بايعوا جميعاً رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا ، يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوا الرسول فى معروف ؛ فإن وفوا بما عاهدوا فلهم الجنة ، و إن غشيهم من ذلك شىء فأخذوا بحدِّه فى الدنيا فهو كفارة له ، و إن سُتِروا عليه إلى يوم القيامة فأمرهم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب و إن شاء غفر .

ولما انصرف القوم بعث معهم الرسول عليه الصلاة والسلام مُصْعَب بن عُمير يقرئهم القرآن ، و يعلمهم الإسلام ، و يفقههم فى الدين . وكان مَنْزِلَه على أسعد بن زرارة .

سياسة بارعة وتوفيق كبير

تفتحت قلوب الأنصار للإسلام ، ودخلوا فيه أفواجا ، وكان إقبالهم عليه متميزا باليسر والبشر والحماسة والسماحة ، وقد عصمهم الله مما كانت قريش تقابل به دعوة الحق ، وماذاك إلا لأنه ، تعالت إرادته، قد كتب لهم السعادة ووفقهم للحسنى وزيادة .

ولعل من أكبر الأسباب التى ساعدت على قبول الدعوة المحمدية بين الأنصار سلامة فطرتهم ، وتجردهم من الحقد الذى كان يملأ نفوس قريش ، أن اختص الله برسالته محمدا دونهم ، ولم يؤثر بها رجلا عظيما من القريتين : مكة والطائف كما كانوا يتندرون بذلك .

ومن تأمل الشروط التى بايع عليها النبى صلى الله عليه وسلم الأنصار فى العقبة الأولى ، ألفاها دستورا للفضائل وجماعا للمكارم ، وغاية فى تثقيف النفوس ورعاية الحقوق . ولما كانت فطرة الأنصار سليمة فقد تفتحت قلوبهم للدعوة الإسلامية ورحبوا بها ولم يجدوا فيها إلا كل ما يزيدهم كمالا و يرفعهم مقاما .

وقد مكث النبى صلى الله عليه وسلم منذ أرسل يغادى قريشا و يراوحها بمثل هذه الشروط فلم يزدها ذلك إلا عنادا ولجاجة فى الباطل و بعدا عن الله ورسوله !

وسنورد فيما يلى حادثة لطيفة تدل على دماثة خلق الأنصار وصفاء نفوسهم ، ومبلغ استعدادهم الطيب لتفهم الحق وقبوله ، وبعدهم عن الفساد المؤدى للجهالة والخسران .

قدمنا أن مصعب بن عمير الذى أرسله النبى عليه الصلاة والسلام إلى الأنصار يفقههم فى دينهم نزل على أسعد بن زرارة ، وذات يوم خرج به أسعد يريد دار بنى عبد الأشهل ، وهم سادة الأوس ، فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا .

وسمع بذلك سعد بن معاذ ، وهو ابن خالة أسعد بن زرارة ، وأُسَيْد بن حُضَيْر وهما — أى سعد وأسيد — سيدا بنى عبد الأشهل ، فقال سعد لأسيد : انطلق إلى هذين الرجلين — يعنى أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير — اللذين قد أتيا دارينا ، ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانْهَهُمَا عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت — يقصد إلى أنه ابن خالته — كفيتك ذلك .

فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب بن عمير :

هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يجلس أكلمه .

ووقف أسيد عليهما غاضبا ، فقال :

ما جاء بكما إلينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال مصعب :

أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره .

فقال أسيد : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقال :

ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين

قالا له : تغتسل وتطهِّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى .

فقام واغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما :

إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، وهو سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر سعد بن معاذ إليه مقبلا ، قال :

أحلف بالله ، لقد جاءكم أُسَيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى ، قال له سعد : ما فعلت ؟

قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حُدِّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه .

فقام سعد مُغْضَباً مبادراً تخوفا على ابن خالته ، وأخذ الحربة من يد أسيد بن حضير ، وقصد إلى حيث كان أسعد ومصعب جالسين ، فلما رآهما مطمئنين ، عرف أن أُسَيداً أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما مُتَشَتِّماً ، ثم قال لأسعد بن زرارة :

يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة مارُمْتَ هذا منى ، أتغشانا فى دارينا بما نكره ؟

وكان أسعد قد قال لمصعب حين رأى سعداً قادماً : جاءك والله سيد مَن وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان ، فقال له مصعب :

أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره !

قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه مصعب الإسلام ، وقرأ عليه القرآن . فقال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين ؟

قالا : تغتسل وتطهِّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . فقام ففعل ذلك كله ثم أخذ حربته ورجع إلى قومه ، فلما رأوه مقبلا قالوا :

نحلف بالله ، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم ، قال :

يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة .

قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله و برسوله .

ولقد أبر القوم قسم رئيسهم ، فما أمسى فى دور بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا على الإسلام .

هكذا كان الإسلام يجد طريقه السهلة المعبدة إلى قلوب الأنصار ، فيعمرها نوراً و يملأها يقيناً ، وهكذا تمت نعمة الله على الأنصار فدخلوا دينه فى يسر وسهولة ، و إقبال واستبشار .

بيعة العقبة الثانية

وتوكيد الأمر بين الرسول والأنصار

وفى أوان الحج رجع مُصعب بن عمير — مُفَقِّه الأنصار — إلى مكة ، وقصد إليها مسلمو الأنصار الذين شهدوا بيعة العقبة الثانية وغيرهم ممن آمنوا،وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين من الأوس والخزرج جميعاً ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانوا يكتمون الأمر على من معهم من أهل المدينة الذين قد قدموا إلى الحج وهم لا يزالون على شركهم ، فلما مضى ثلث الليل من الليلة التى واعدوا فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أخذوا يتسلّلُون تسلل القطا ، حتى اجتمعوا فى الشِّعب عند العقبة .

وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس ، وكان لايزال على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه و يتوثَّق له ، فلما أخذوا مجالسهم قال العباس :

يامعشر الخزرج[1] ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومَنَعَةٍ فى بلده ، و إنه قد أبى إلا الانحياز

---

(١) كانت العرب تطلق اسم الخزرج على الأوس والخزرج جميعاً .

إليكم ، واللحوق بكم ؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه و بلده .

فقال الأنصار : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ور بك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّب فى الإسلام ، ثم قال :

أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البَراء بن مَعْرور بيد الرسول عليه الصلاة والسلام ثم قال :

نعم ، والذى بعثك بالحق نبيًّا ، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا[1] ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحَلْقَة[2] ، ورثناها كابراً عن كابر .

وقال أبو الهيثم بن التيهان :

يارسول الله إن بيننا و بين الرجال حبالا[3] ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

بل الدم الدم[4] ، والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أخرجوا إلىّ اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم . فلما أخرجوهم قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أى نساءنا ، كناية عن المبالغة فى منعته .

(٢) أى السلاح .

(٣) يعنى يهود يثرب ويقصد من الحبال : العهود .

(٤) أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم .

أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

وهذه هى أسماء النقباء :

نقباء الخزرج

أبو أمامة : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعُبادة بن الصامت ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو بن خنيس .

نقباء الأوس

أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر .

وبعد انتهاء البيعة وانتخاب النقباء طلب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الجميع الانصراف إلى رحالهم؛ فقال له سعد بن عبادة :

والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت لَنَميلَنَّ على أهل منًى غداً بأسيافنا .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

لم نُؤْمر بذلك[١] ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . فرجعوا إليها .

وأحست قريش الأمر فغدت على الأنصار تسائلها عما علمت ، وتقول :

إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

ولما كان مشركو أهل يثرب لا علم عندهم بما حدث فقد أخذوا يحلفون لمشركى قريش أنه ما كان من هذا شىء .

ونفر الناس من منى ، واستيقنت قريش صحة الخبر ، فخرجوا فى طلب الأنصار

---

(١) لم يكن الله قد شرع حتى الآن محاربة المشركين .

ففاتوهم ولم يلحقوا إلا اثنين منهم : سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو . فأما المنذر فإنه نجا منهم ، وأما سعدفإنهم أخذوه فربطوا يديه إلى عنقه ، وأخذوا يضربونه ويجذبونه من شعره ، حتى هتف باسم جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية لأنه كان يجير تجارتهما بيثرب ، فجاءا إليه واستخلصاه من القوم ، ومكناه من اللحاق بقومه .

شرعية القتال

مضت الدعوة الإسلامية حتى الآن على العرض المسالم والإقناع بالحسنى ، ولذلك أسباب : منها أن شأن أية دعوة فى أول نشأتها ينبغى أن يكون هكذا جريا على سنة الطبيعة ، ولأن الدعوة بالحسنى يجب أن يكون لها الأولوية ، فإن استجاب لها المَدْعُوُّونَ إليها فبها ونعمت ، أما إذا كذبوها وشفعوا التكذيب بإلحاق الأذى بصاحب الدعوة ومن اتبعه ، فإن التطور الطبيعى يقتضى تغيير الأسلوب ، عملا على إحقاق الحق و إزهاق الباطل ، وسعياً إلى نشر كلمة الله ونسخ كلمة الشيطان الممثلة فى عبادة الأصنام والأوثان وترويج الإفك والبهتان .

ويأتى بعد ذلك فى ترتيب الأسباب الموجبة لتغيير أسلوب المسالمة فيما يتعلق بمشركى قريش خاصة ومشركى العرب عامة ، أن هؤلاء الناس كانوا من غلظ الأكباد وتحجر النفوس وعمى البصائر بحيث لاتجدى معهم الحجة الواضحة ، ولا يفيد معهم البرهان القاطع ، وقد استنفد معهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل مايهدى إليه العقل من وسائل الإقناع ، وضروب التبصير ، ولـكنهم كانوا كلما خطف أبصارهم سنى الحجة ، ازدادوا عمى ، وكلما سطع البرهان ، أمعنوا فى الضلالة . ولما كان لا بد لـكلمة الله من أن تعلو ، ولا مناص لدينه من أن يسمو ، فقد شرع القتال وأحل الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يحطم الأصنام وعبدتها ، ويزيل الأوثان وسدنتها ، ويستبدل بلغة المسالمة التى لم تعقلها قريش لغة القوة التى التزمتها من أول يوم ، وامتحنت بها المسلمين الأولين امتحاناً شديداً فجعلتهم بين معذب يغاديه العذاب ويراوحه كل يوم ، وبين مشرد فى رءوس الجبال ،

أو مستخف لا يقر له قرار، أو مهاجر إلى الحبشة ، أو هائم على وجهه لا يدرى ولا يعلم أين المصير.

حصار الرسول بمكة

وكانت قريش حين تسربت إليها أنباء الحلف الذى عقد الرسول عليه الصلاة والسلام مع الأنصار قدَّرت العواقب المنتظرة لهذا العمل الخطير، فعملت على مضاعفة الأذى بالمسلمين، ، وضربت على النبى صلى الله عليه وسلم حصارا شديدا ، وراقبت حركاته مراقبة دقيقة ، حتى لا يلحق بالمدينة ، وتكون له العزة بالتفاف الأنصار حوله ، لأنها كانت تعلم حق العلم تمرس الأنصار بالحرب وولعهم بالقتال ، وكيف أنهم قوة لا يستهان بها وعصبية يحسب حسابها .

وعلى رأس هذه الأحوال المؤذنة بالتطور ، شرع الله لنبيه القتال فأنزل عليه :
« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (١) » .

وقوله تعالى :
« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ (٢) » .

الهجرة إلى المدينة

فلما أذن الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام فى الحرب وبايعه هذا الحى من

---

(١) الحج : ٣٩ — ٤١ (٢) الأنفال : ٣٩

الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه ، أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه بمكة أن يهاجروا إلى المدينة ، ويلحقوا بإخوانهم من الأنصار وقال :

إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً ودارا تأمنون بها .

فخرجوا أرسالا[١] ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج منها والهجرة إلى المدينة .

المهاجرون الأولون إلى المدينة

وكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام : أبو سلمة ابن عبد الأسد المخزومى واسمه عبد الله ، ولما علمت عشيرة زوجه بعزمه على الخروج اعترضوه وقالوا له : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ ثم أخذوها منه عنوة ومعها طفلها منه ، فغضبت عشيرته للطفل وقالوا لا ندع ابننا عندها ، فأخذوه منها ؛ فكانت فى مكان ، وطفلها فى مكان ، وزوجها فى مكان بعيد .

ثم تتابعت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة وهاجر كثير من أهل الدار الواحدة حتى خلت من أصحابها وأُقفلت . وقد حدث أن مر بدار بنى جحش ، بعد أن هاجر أصحابها ، عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام ، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابا[٢] ، ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ، وتمثل بقول الشاعر :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها النكباء والحوب[٣]

ثم قال : أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل : هذا عمل ابن أخى هذا — يشير إلى العباس بن عبد المطلب — فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطّع بيننا .

وهاجر عمر بن الخطاب وبصحبته عياش بن أبى ربيعة المخزومى إلى المدينة ، فتبع

---

(١) أرسالا : أى جماعة إثر جماعة . (٢) اليباب : القفر .
(٣) الحوب : التوجع .

أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام عياشا إلى المدينة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، فاحتالا عليه حتى أخرجاه من المدينة ، ثم شدا وثاقه وأدخلاه مكة وهو على هذه الحالة النكراء ، ثم قالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا !

وهاجر إلى المدينة حمزة بن عبد المطلب ، والزبير بن العوام ، وزيد بن الخطاب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وجميع من لم يكن فى حبس أو وثاق من المسلمين ، ولم يتخلف فى مكة عن الهجرة إلا أبو بكر وعلى بن أبى طالب .

أما أبو بكر فإنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فلم يأذن له ، وقال له: « لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا »

وقد طمع أبو بكر أن يكون هو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة .

وأما على بن أبى طالب ، فقد استبقاه الرسول عليه الصلاة والسلام لأمر مهم سيرد ذكره عند هجرة الرسول ، وليرد الودائع التى كانت قريش المشركة تضعها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابها .

وقد كانت قريش على الرغم من تكذيبها الرسول فى دعوته لا تعدل به أحدا فى الأمانة عند ما تحتاج إلى أمين تودع عنده كرائم أموالها ونفائس مقتنياتها .

هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام

مؤامرة دار الندوة على قتله

أقام الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة بعد هجرة أصحابه إلى المدينة ينتظر الإذن من ربه بالهجرة ، ولم يكن يخفى عليه مبلغ ما هو عرضة له من الخطر وهو يقيم وحيداً تقريباً بين ظهرانى أناس امتلئوا حقداً عليه وضيقاً به ، وخوفاً منه ، ولكنه سلم أمره إلى الله واستعاذ به وهو خير معاذ ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

وكانت قريش تعلم مبلغ الخطر الذى يتهدد كيانها بعد أن صارت للنبى صلى الله عليه وسلم شيعة قوية تقوم لهم ، وتنهض بمنعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونصرة دعوته ، وتوكيد أمره ، ولم يكن يفوتها المعنى المستفاد من هجرة المسلمين إلى المدينة ، فقد استيقنت أن النبى صلى الله عليه وسلم يُعد العدة لحربها ، وأنه لا ينى أن يلحق بأصحابه ، إن لم يكن اليوم فغدا ، وإذا تم له ذلك وقع ما كانوا يخشونه من محظور .

ولما مثلت أمام أعينهم هـذه الحقائق اجتمعوا فى دار الندوة ليتشاوروا فى الأمر ، وكانوا حشدا تمثل فيه أشراف قريش من بنى عبد شمس ، وبنى نوفل ، وبنى عبد الدار ، وبنى أسد ، وبنى مخزوم ، وبنى سهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش .

وقال بعضهم لبعض :

إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا .

فقال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله : زهير والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

وفُنِّد هذا الرأى بأنه إن حبس ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه ، إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به . حتى يغلبوكم ، على أمركم ، ما هذا لـكم برأى ، فانظروا فى غيره .

فقال قائل :

نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فو الله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وأُلْفتنا كما كانت.

فكان جواب هذا الاقتراح :

ما هذا لـكم برأى . ألم ترَوْا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به . والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ،

فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأيا غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد ! قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل[1] فعقلناه لهم .

فقالوا جميعاً : هذا هو الرأى ، وتفرقوا وهم عليه مجموعون .

الله يعصم نبيه

فأتى جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال :

لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

فلما أظلم الليل ، اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم . قال لعلى ابن طالب :

نم على فراشى وتسجّ ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذاك إذا نام .

وخرج النبى عليه الصلاة والسلام ، فأخذ حفنة من تراب فى يده فنثرها على رءوسهم وهو يتلو :

---

(١) العقل : الدية .

« يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ . لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

ولم يبق من القوم رجل إلا وضع الرسول على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتى القوم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا محمداً ، قال خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب !

ثم جعلوا يتطلعون من خلل الباب فيرون علياً على الفراش متسجّياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون :

والله إن هذا لمحمد نائم ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام على رضى الله عنه عن الفراش ، فقالوا : لقد صدَقنا الذى حدثنا .

ثم سألوا علياً ، أين صاحبك ؟ قال : لا أدرى ! أو رقيباً كنت عليه ؟ أمرتموه بالخروج فخرج .

فانتهروه وضربوه وأخذوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه .

وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن فى ذلك اليوم :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »[1] .

وقوله عز وجل :

---

(١) الأنفال : ٣٠

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ [١] » .

الصاحبان فى الغار

وأذن الله عز وجل لنبيه بالهجرة ، فأتى أبا بكر وأخبره بذلك وأنه صاحبه ، فبكى فرحاً ثم قال :

يا نبى الله : هاتان راحلتان [٢] ، قد كنت أعددتهما لهذا وعرض عليه خيرهما، فأخذها النبى عليه الصلاة والسلام بثمنها قائلا : لا أركب بعيراً ليس لى . فركبا وانطلقا وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة مولاه ليخدمهما فى الطريق .

ولما خرجا وفد على بيت أبى بكر نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر، فقالوا أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ قالت : لا أدرى والله أين أبى ! فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدها لطمة طرحت قرطها !

وقصد النبى صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه إلى غار بجبل ثور وهو بأسفل مكة ودخل أبو بكر الغار قبل النبى عليه الصلاة والسلام لينظر أفيه سبع أو حية ليقى رسول الله بنفسه .

وكان من أسباب العناية الإلهية التى صرفت أبصار قريش حين خرجت تقتفى آثار الرسول عن هذا الغار ما كان يظهر عليه من إقفار ، فقد كان كل ما يحيط به من التفاف النباتات والأشجار الجبلية ووقوف الطير عليه ينبىء بأنه غير مطروق .

وفى الصحيح أن أبا بكر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهما فى الغار وكفار قريش يعلونه:لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا ،فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» !

---

(١) الطور : ٣٠

(٢) الراحلة : ما يرحل عليه من الأبل .

ومكث الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام ، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، ثم أمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار ؛ ليشربا من لبنها ويأكلا من لحمها . فإذا أصبح الصباح وعاد عبد الله بن أبى بكر إلى مكة أتبع عامر أثره بالغنم حتى يعفى عليه لئلا تقتفى قريش أثره ، ويعرفوا مكان الصاحبين .

فلما انقضت الأيام الثلاثة وسكن الناس عنهما ، أتاهما عبد الله بن الأرقط الذى استأجراه ليدلهما على الطريق — وكان مشركا — ببعيريهما وجاء معه ببعير له ، ومضى بهم نحو المدينة سالكا بهم أسفل مكة ، ثم مضى بهم نحو الساحل ، متعرجاً فى طرق ومسالك شتى إمعاناً فى التخفى والتستر .

مائة ناقة مكافأة لمن يرد الرسول

وكانت قريش قد جعلت مائة ناقة مكافأة لمن يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وعلم سراقة بن مالك بن جُعْشم من بنى مدلج ثم من بنى كنانة ، مكان الرسول وصاحبه ، فلحق بهما شاكى السلاح على فرس له ليردهما طمعاً فى المكافأة ، فبينما فرسه يشتد به عثر فسقط عنه ، فعاد إلى ظهره وجرى به فرسه فعثر مرة أخرى فسقط عنه ، فعاد إلى ظهره وأتبع الركب حتى لاح له ، فعثر الفرس مرة ثالثة وسقط راكبه عنه وغاصت يدا الفرس فى الأرض ، ثم انتزع الفرس يديه وتبعهما دخان كالإعصار ، فأدرك أن النبى صلى الله عليه وسلم منيع وأن أمره لابد أن يظهر ، فنادى القوم ، فقال :

أنا سراقة بن جُعْشُم . انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أَرِيبُكم ، ولا يأتيكم منى شيء تكرهونه .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى بكر : قل له : وما تبتغى منا ؟ فلما سأله أبو بكر هذا السؤال ، قال :

تكتب إلىّ كتاباً يكون آية بينى و بينك .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اكتب له يا أبا بكر .

فكتب له كتاباً(١) فى رقعة فأخذه ورجع ، وصار يرد كل قصّاصى الأثر من قبل قريش ، و يقول : ما مر أحد بهذه الطريق .

وانطلق الرسول وصاحبه متجهين إلى المدينة فبلغاها لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ووافق ذلك يوم الاثنين ، وكان الوصول حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل ، وقد استغرقت الرحلة من وقت الخروج من الغار حتى الوصول إلى المدينة اثنى عشر يوماً .

وكانت إقامة النبى صلى الله عليه وسلم بمكة من البعثة إلى الهجرة ثلاثة عشر عاماً .

مقدم الرسول إلى المدينة

وتابع الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه طريقه إلى المدينة ، وقبل أن يصلها لحق به بريدة بن الحُصَيْب الأسلمى فى نفر معه وكان ممن خرج أثر الرسول طمعاً فى المكافأة التى جعلتها قريش فيمن يرده إليها ، وكان لا يعرف الرسول بشخصه ، فسأله الرسول : من أنت ؟ فقال : بريدة بن الحصيب ، فالتفت النبى إلى أبى بكر ، وقال : يا أبا بكر ، برد أمرنا وصلح ، ثم قال لبريدة : ممّن أنت ؟ قال : من أسلم . قال : سلمنا ، فقال بريدة : من أنت ؟ قال النبى عليه الصلاة والسلام : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله .

وكان أن نزلت كلمات الرسول عليه الصلاة والسلام برداً وسلاماً على قلب بريدة فشرح الله صدره للإسلام ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأسلم جميع من معه وكانوا سبعين رجلا .

---

(١) وقد لقى سراقة بن مالك النبى صلى الله عليه وسلم بعد فراغه من حنين وأبرز كتابه ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : هذا يوم وفاء وبر ، وأسلم سراقة يومذاك وأجزل الرسول عطاءه وكان مما بشر به الرسول عليه الصلاة والسلام سراقة أنه سيلبس سوارى كسرى ، فلما فتح الله فارس على المسلمين فى خلافة عمر بن الخطاب وجىء له بكنوز كسرى ومن بينها سواراه دعا سراقة وألبسه إياهما .

وسار بريدة وأصحابه فى ركب الرسول ، فلما أشرفوا على المدينة نزع بريدة عمامته واتخذ منها لواء ، واتفق فى هذا الوقت أن التقى الرسول عليه الصلاة والسلام بركب من المسلمين قادمين من الشام فى تجارة و بينهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، فكسا الزبير الرسول وأبا بكر ثيابا بيضاً .

وكان الأنصار لما سمعوا بخروج النبى عليه الصلاة والسلام من مكة مهاجراً إليهم يخرجون كل يوم فى انتظاره إلى ظاهر المدينة ولا يبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال فيعودوا إلى بيوتهم .

وحدث فى اليوم الذى قدم فيه الرسول عليه الصلاة والسلام و بعد أن انصرف الأنصار أن صعد أحد يهود يثرب إلى أطم[١] له فرآى الرسول وصحبه وعلم أنهم الذين ينتظرهم الأنصار كل يوم ، فصاح : يابنى قيلة[٢] ، هذا جدكم[٣] الذى تنتظرون ؟

فثار الأنصار إلى السلاح ، ووافوا الرسول عليه الصلاةوالسلام ، وهو نائم فى ظل نخلة وأبو بكر إلى جانبه فلما تحول الظل عن الرسول راح هو يظله بردائه ، ولما استيقظ حف به الأنصار وأخذوا يحيونه أبلغ التحيات وأكرمها ، ثم قالوا لهما : ادخلا آمنين مطمئنين .

وسار الرسول وصحبه من الأنصار والمهاجرين حتى بلغ قباء[٤] فنزل على بنى عمرو ابن عوف فى دار كلثومِ بن الهِدْمِ رئيسهم ، وذلك فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول .

واتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام من دار سعد بن خيثمة مكاناً يجتمع فيه بأصحابه و يتحدث إليهم لأنه كان عَزَبا وكان منزله يسمى منزل العزاب ، ونزل أبو بكر على حبيب بن أبى أساف بالسُّنْح .

---

(١) الأطم : المكان المرتفع .
(٢) قيلة : اسم جدة للأنصار .
(٣) جدكم : أى حظكم .
(٤) قباء : مكان بأعلى المدينة .

يوم الاثنين

يوم الأيام فى حياة الرسول

وكان مقدم النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، يوم الاثنين .

وقد ولد النبى يوم الاثنين ، واسْتُنبِئ يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة حين أعادت قريش بناءها يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وقبض يوم الاثنين ؛ فجميع العظائم التى احتوتها حياة الرسول الكريم وافقت يوم الاثنين ، فهو بهذه المكارم يوم الأيام وأشرفها قدراً لما اتفق فيه من الأحداث المباركة فى حياة الرسول عليه الصلاة و السلام

المسجد الذى أسس على التقوى

وأقام النبى عليه الصلاة والسلام بقباء أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وبنى أثناء ذلك مسجد قباء الذى أسس على التقوى ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام وابتنى لعموم المسلمين ، وقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يختلف إلى هذا المسجد ويأتيه ماشياً وراكباً ويصلى فيه طوال حياته الشريفة .

خلوا سبيلها فإنها مأمورة

وحين ارتفع النهار من يوم الجمعة برح الرسول عليه الصلاة والسلام قباء قاصداً إلى المدينة وسار الناس معه ما بين ماش وراكب وهم يتنازعون زمام ناقته تعظيما له وتكريما وهو يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ولم تكن الناقة تمر بدار إلا ويمسك أهلها بزمامها يريدون منه أن ينزل عليهم ويعددون ما لديهم من عز ومنعة وبأس وقوة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يكرر دائماً عبارته التى أسلفنا ذكرها ، وما زالت الناقة سائرة حتى بلغت محلة بنى النجار أخوال عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة السلام فبركت فى مِرْبد لغلامين يتيمين من بنى النجار فى حجر معاذ بن عفراء واسمهما : سهل وسهيل ابنا عمر ، وعادت الناقة فاستوت قائمة والرسول ما يزال على ظهرها فسارت غير بعيد

وهو مرخ لها الزمام ، ثم التفتت خلفها ورجعت إلى مبركها أول مرة فأناخت به فنزل عنها الرسول : وقال : « رَبِّ أَنْزِلْنِي مَنْزِلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِين » ثم أردف قائلا : هذا إن شاء الله يكون المنزل ، وأمر أن يحط رحله فأخذه أبو أيوب الأنصارى إلى منزله .

وخرجت جوار من بنى النجار يضربن بالدفوف ابتهاجا بنزول الرسول بينهم وما حازوه من الشرف بسبب هذه الخصوصية ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار !

فخرج إليهن الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال أتحببنى ؟ قلن : نعم يا رسول الله ! قال : وأنا والله أحبكن .

بناء المسجد والمساكن

ومكث الرسول عليه الصلاة والسلام بمنزل أبى أيوب الأنصارى زهاء عام ابتنى فيه مسجده ومساكنه ، وذلك فى المكان الذى أناخت به ناقته . وقد أراد وصى اليتيمين أن يهبه للرسول ويعوض صاحبيه من ماله ولكن الرسول أبى ذلك ودفع لهما عشرة دنانير من مال أبى بكر ثمناً له .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام ينقل الحجارة بنفسه مع أصحابه حتى اغبرّ صدره وهو يقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وكان طول البناء سبعة أذرع وعلى سقفه يسير من الطين لا يمنع المطر من التسرب . وقد ورد فى الآثار أن الأنصار بعد ذلك جمعوا مالا لبناء مسجد مُزَيّن فأبى الرسول قبوله وظل مسجده كما هو .

وبنى مسكنان للرسول عليه الصلاة والسلام إلى جوار المسجد من حجارة وجريد مطين بالطين أحدهما لأم المؤمنين سودة بنت زمعة وثانيهما لأم المؤمنين عائشة لأن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن متزوجا بغيرهما حينئذ ، ثم كانت العادة أن يبنى مسكن جديد على هذا النحو كلما زيدت إلى أمهات المؤمنين أم جديدة .

التاريخ الهجرى

لم يكن التاريخ ، بمعناه المتعارف عليه اليوم ، معروفا عند العرب ؛ إنما كانوا يعمدون إلى حادث من الحوادث ذات الوقع فى نفوسهم فيتخذونه تاريخا يسندون إليه الوقائع على وجه التقريب ، فيقولون حدث هذا على مضى سنتين أو خمس من حادث الفيل مثلا . وحادث غزو الحبشة مكة لهدم البيت ومعهم الفيل كان آخر الأحداث التى أرّخت بها قريش .

ولما هاجر النبى عليه السلام إلى المدينة أرّخ المسلمون بعام هجرته ، مقرين أن هذه الهجرة كانت أهم الحوادث أثرا فى نشر الدين وتثبيت قدم المسلمين .

وهناك خلاف بين المؤرخين على الوقت الذى ابتدأ فيه التاريخ بالهجرة ؛ فبعض المؤرخين يذهب إلى أن ذلك قد حدث على عهد الرسول عليه السلام و بأمره ، و بعضهم — وهو الأكثر والأرجح — يذهب إلى أن ذلك قد حدث على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ؛ فقد شكا إليه بعض أمرائه من أنهم يتلقون منه كتباً لا يعرفون وقتها فتفوت على المسلمين مصالحهم بسبب هذا اللبس ، فكان أن اتخذ عمر بن الخطاب الهجرة أساساً للتاريخ الإسلامى .

ومع أن مقدم النبى عليه السلام إلى المدينة كان فى شهر ربيع الأول وكان المنطق يقضى بجعل هذا الشهر أول شهور السنة ، آثر المسلمون أن يجعلوا شهر المحرم أول السنة لأنه منصرف الناس من حجهم وهو شهر حرام .

السنة الأولى الهجرية

تبدأ حوادث هذه السنة بهجرة الرسول عليه السلام ومقدمه إلى المدينة واستقبال الأنصار إياه وحفاوتهم العظيمة به ، وتنافسهم فى استضافته .

وقفة مريحة على أطلال عهد بائد

لا يسع الإنسان وهو يتتبع مراحل حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، إلا أن يقف عندهذه المرحلة وقفة يزجى فيها الشكر إلى المولى عز وجل ، أن أخرجه من وسط الكفر المطبق والشرك المرهق ، والفساد المودى بصاحبه ، والغرور المتلف لراكبه ، وأحله دار صدق و إخاء ، وموطن عز و إباء ، بين أصحاب ملأ الإيمان قلوبهم ، وعمرت التقوى نفوسهم ، وأشربوا حب الرسول فهو يجرى فى دمائهم و يخالط أفئدتهم ، ويقع منهم موقع الروح من الجسد ، و يعدل عندهم الحياة أو يزيد عليها .

لقد كنت وأنا أكتب أنباء المرحلة الأخيرة لإقامة الرسول عليه السلام بمكة يكاد قلبي ينفطر حزنا على ما لاقاه الرسول من كفار قريش من الكيد والأذى والتكذيب والاستهزاء ، وما هموا به من العدوان على حياته ، وكيف أحكموا التدبير وأعدوا العدة ؛ ولكنهم مكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

لقد كان الصحابة على حق حين أرّخوا بالهجرة إذ اعتبروها أكبر الأحداث فى تاريخ الإسلام ، وهى كذلك حقا ، فقبل الهجرة كانت الدعوة الإسلامية ضعيفة خافتة لا تكاد تُسمع ، وكان المسلمون مستضعفين ، ينكل بهم و يشردون فى الآفاق ، و يعرضون لجميع أنواع العذاب والاضطهاد ، أما فى المدينة فقد أخذت الدعوة تدوى وتجلجل ، وراح المسلمون من المهاجرين والأنصار يهللون و يكبرون ، و يرفعون أصواتهم بالأذان وهم أحرار طلقاء ، سادة كرماء ، آمنين على أنفسهم ، مطمئنين إلى أنهم لن يعترضهم معترض ، ولن يعاقَبوا على أن يجهروا بأن "لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

ولسنا نرشح بهذا القول إلى أن المدينة قد خلت من أعداء للإسلام ، ولا أن متاعب الرسالة قد انتهت وتكاليفها قد أُديت ، فليس هذا من الحق فى شىء ، ولا كان من قصدنا ونحن نسطر الأسطر السابقة ؛ إنما أردنا أن نشير إلى التغيير الذى

حدث ، ونسجل الفروق الكبيرة بين ما كانت عليه حال الدعوة الإسلامية و بين ما صارت إليه ، مع التنبيه إلى اختلاف الحال ، وتباين الوسائل ، ومع التذكير بأن الجهاد من مستلزمات الدعوة لا يفارقها بحال من الأحوال ، ولكن صوره تختلف باختلاف الزمان والمكان .

كان عداء قريش للرسول عداء لا يشفيه إلا قتل الرسول عليه السلام وطمس دعوته ومحو أثر الإسلام ، أما العداء الذى استقبل الرسول بالمدينة فكان من نوع آخر ، وقد استقل به فريقان : فريق الأوس والخزرج الذين كبر عليهم أن يسلبهم الرسول ما كان لهم من حقوق الرياسة على قومهم قبل مقدمه ، فبعضهم هاجر من المدينة والتحق بقريش ، و بعضهم ظل فيها ونافق فأظهر الإسلام واستبطن الكفر والعداء ، وفريق اليهود المقيمين بجوار المدينة أو بعيد منها ، فقد حسدوا النبى على مكانته من الأنصار ، وخشوا أن ينتشر الإسلام فيغلب دينهم ، فحار بوه بالدس والكيد ومناقضة ما يوحى إليه به . وسيرد نبأ ذلك كله مفصلا فى مكانه من هذا الكتاب ، إن شاء الله .

الأمة الإسلامية

قدم النبى عليه السلام إلى المدينة والأنصار قد ائتلفوا بعد شقاق ، واتحدوا إثر حروب أفعمت قلوبهم بالضغينة ، وأشاعت فى نفوسهم البغضاء ، وقد كانت الحال التى انتقلوا إليها ببركة الإسلام إحدى المعجزات الكبيرة التى تحققت على يد المصطفى عليه السلام .

وقد شرع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الساعة الأولى ، فى إنشاء الأمة الإسلامية ، فألف بين المهاجرين والأنصار ، وآخى بين الفريقين فى الله ، فقال : تآخوا أخوين أخوين ، ليزيل من نفوس المهاجرين أثر غربتهم عن ديارهم ، وليعجل بامتزاج الفريقين بعضهم ببعض ، وقد استعملت القرعة فى التآخى بين الفريقين .

عهـــد جديد

كان أمر اليهود فى المدينة عظيما لا ينبغى أن يهمل شأنه، وقد مضت سنَّة الأوس والخزرج على أن يتحالف كل فريق منهم مع فريق من اليهود للاستعانة بهم فى الحروب التى كانت تنشب بينهم دائماً قبل الإسلام ، فلما جاء الرسول وهذه السنة قائمة لم يشأ أن يخالفها ، بل عمل على تنسيقها لتلائم العهد الجديد ، فـكتب كتابا وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

وقد تضمن هذا الـكتاب مبادئ خطيرة وتعاليم بعيدة الأثر ؛ ذلك أنه نص على أن المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة .

وأن المؤمنين يكونون يداً واحدة على من بغى منهم ولو كان ولد أحدهم .

وأن ذمة الله واحدة يجير عليها أدناهم .

وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأن من تبعنا من يهود فإن له من النصر والأسوة ما للمسلمين .

وأن سلم المؤمنين واحدة .

وأن المؤمنين مهما اختلفوا فى شىء فمرده إلى الله عز وجل و إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن اليهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

وأن الجار كالنفس غير مضَارٍّ ولا آثم .

هذا بعض ما تضمنه هذا الـكتاب الـكريم من أسس قامت عليها الدولة الإسلامية . وأظهر ما فيها هو العمل على تنظيم الأمة وتـكوين الجماعة ، و إقامة الحـكومة ؛ فقد نص أكثر من مرة فى هذا الـكتاب على أن مرد كل خلاف إلى الله ورسوله ، يحكم فيما شجر بين الناس من نزاع وما استحكم بينهم من شقاق .

خطب الرسول

وأخذ الرسول يوالى الخطابة فى الأمة الإسلامية ، وكانت المعانى التى تدور خطبه عليها أول الأمر ، دائرة حول التذكير بالله والتخويف من عقابه والتأميل فى ثوابه ، وحث المؤمنين على البر والتعاون فيما بينهم ، يقول صلى الله عليه وسلم فى إحدى خطبه :

فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ؛ فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

تشريع الأذان

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفُرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام .

وقد كان الناس يجتمعون للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، ولم يكن هناك شىء ينبه إلى هذه المواقيت ، ففكر بعضهم فى اتخاذ الأبواق أو النواقيس ولكنهم كرهوا أن يتشبهوا باليهود أو النصارى ، فشرع الله الأذان وكان أول من رفع صوته به بلال .

كيد اليهود للرسول عليه السلام

لم يطق اليهود رؤية النبى عليه الصلاة والسلام على رأس الأنصار والمهاجرين ، يُوحَى إليه من الله ، ويزداد أتباعه يوماً بعد يوم ، وتستقر على يديه الحال بين الأوس والخزرج ، وتفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية : تؤمن به فتزداد دعوته انتشاراً ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا — أقول لم يطق اليهود رؤية هذا كله وأكثر منه يقع تحت أنظارهم ويخرق أسماعهم ويتهدد زعامتهم الفكرية — باعتبارهم أهل كتاب — على من حولهم ، فهبوا للعمل على الكيد لرسول الله ، على الرغم من أنهم يعلمون أنه النبى المرسل ، وأنه النبى العربى الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، يجدونه مكتوباً عندهم ، ويعرفونه بسيماه وشمائله وبذاته وفضائله . ولا غرو أن يفعل

اليهود هذا بالنبى الأمى الأمين ، فقد فعل أجدادهم ما هو شر منه بأنبيائهم ؛ ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون .

وقد استعان اليهود فى كيدهم الرسول بنفر من الأنصار من أهل النفاق ، أسلموا ظاهراً وأسروا الكفر خوفا من الجماعة ؛ فكان هؤلاء النفر يسمعون ما أنزل الله على رسوله ويحفظون حديث رسول الله ، وينقلون هذا وذاك إلى اليهود ، فيتداوله أحبارهم الذين أعماهم الحقد وأضلهم الحسد ، فيحرِّفونه عن مواضعه ، ويتأولونه تأويلا كاذباً ، ويعلقون عليه بما يخيل أنه ليس من عند الله ولا هو من طبائع النبوة .

وقد كثر حِجَاج اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعارضتهم إياه ، وكان القرآن ينزل تباعا فى الرد على مماحكة اليهود وتفنيد حججهم وتسفيه أباطيلهم ، مستدلا على ذلك بما هو ثابت فى التوراة التى بين أيديهم مما لا يعلمه غيرهم ؛ إذ كان اليهود يحرصون دائما على عدم تداول كتبهم الدينية فى غير أوساطهم ، وقد نزل فى اليهود ومَن إليهم من المنافقين صدر سورة البقرة حتى الآية المائة منها .

ولم يكن اليهود كلهم على هذه الشاكلة من العناد واللجاجة ، بل كان من أحبارهم الكبار من شرح الله صدره للإسلام ، فأسلم وآمن وأصبح حجة لله ولرسوله على سائر الأحبار الذين عرفوا من صدق محمد ما عرف ، ولكن غلبت عليهم الشقاوة فباءوا بالخسران المبين

إسلام عبد الله بن سَلَام

ونذكر على سبيل المثال اثنين من أحبار اليهود الذين آمنو بالله وبرسوله ، وكان لإيمانهم قَصَصٌ يحكى وعِبَرٌ تذكر .

فأما أولهم فهو عبد الله بن سلام ، وسندع القول له يروى قصة إسلامه ، قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نَتَوَكَّفُ[1] له ، فكنت مُسِرًّا لذلك ، صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله

(١) نتوكف : أى : نتوقع و نترقب

عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبَّرت ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى :

خيبك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت !

فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به .

فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نُخْبَرُ أنه يبعث مع نفس الساعة ؟

فقلت لها : نعم !

فقالت : فذاك إذن !

ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا .

وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له :

يارسول الله ، إن يهود قوم بُهْتٌ [1] وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى .

فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ودخلوا عليه ، فكلموه وساءلوه ، ثم قال لهم :

أى رجل الحصين [2] بن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم :

---

(١) البهت : الباطل . (٢) اسمه قبل الإسلام .

يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ماجاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه .

فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى .

فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بُهْتٌ ، أهل غدر وكذب وفجور ! فأظهرت إسلامى و إسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها .

إسلام مُخَيْريق

وكان من حديث مخيريق أنه كان حَبْرا عالما من أحبار اليهود وعلمائها ، وكان إلى ذلك ، رجلا غنياً كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد فى علمه ، ولكن غلب عليه إِلفُ دينه ، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أُحد ، وكان هذا اليوم يوافق يوم السبت ، قال :

يامعشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نَصْرَ محمد عليكم لحق .

قالوا : إن اليوم يوم السبت(١) .

قال : لاسبت لكم .

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وعهد إلى مَن وراءه من قومه بقوله :

إن قتلت هذا اليوم فأموالى لمحمد ، يصنع فيها ما أراده الله .

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

مُخَيْرِيقُ خير يهود ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامة صدقاته عليه السلام بالمدينة منها .

---

(١) يشيرون إلى أن هذا اليوم يوم لايزاول اليهود فيه عملا .

وقيعة اليهود بين الأوس والخزرج

ولما رأى اليهود أمر الله ماضيا قدُما فى الظهور ، وأحزنهم مارأوا من التفاف الأنصار حول الرسول ونسيانهم ما كان بينهم و بين بعض من العداوة المدمرة فى فى الجاهلية ، أرادوا أن يفتنوهم عن دينهم بنبش الماضى وتحريك ماسكن من الأحقاد ، فحدث أن مرَّ شاس بن قيس — وهو من رؤساء اليهود ، وكان شيخاً قد أسن ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين — بنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية ، فقال :

قد اجتمع ملأ بنى قَيْلَةَ بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا من يهود كان معه ، فقال له :

اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعَاث[1] ، وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ما أمر به ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها جَذَعَةً .

فغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة[2] ، فخرجوا إليها !

و بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماحدث ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال :

يامعشر المسلمين ، الله الله ، أَبِدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هدا كم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألّف به بين قلوبكم ؟ !

---

(١) بعاث : اسم يوم اقتتل فيه الأوس والخزرج قبل بيعة العقبة الأولى بعام وكان النصر فيه للأوس .

(٢) الظاهرة : اسم حرة المدينة : مكان منبسط بظاهرها فيه حجارة سوداء .

فلما سمع الفريقان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفوا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين .

وفد نجران وأمر المباهلة

ولم يقف النصارى بعيداً عن هذه الحلبة ، فقد أهمهم ما أهم اليهود من ظهور الإسلام وانتشاره بين العرب ، فقدم وفد من نصارى نجران ينتظم ستين من خيرهم ، وعلى رأسهم العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذى لا يصدرون إلا عن رأيه ، واسمه : عبد المسيح .

والسيد ، ثمالهم[1] وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه : الأيهم .

وأبو حارثة بن علقمة ، أحد بنى بكر بن وائل ، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم .

وكان أبو حارثة هذا ، قد شرف فيهم ودرس كتبهم ، حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه ، و بنوا له الكنائس ، و بسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم .

ودخل هذا الوفد على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مسجده ، وتكلم علماؤهم فى أصول عقيدتهم القائمة على التثليث ، فأنزل الله على رسوله الكريم :

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

ثم استشرى جدلهم وتتابع محالهم ، فأنزل الله على نبيه الأمين فى اختلاف أمرهم كله ، صدر سورة آل عمران ، مؤكدا فيه وحدانيته ، راداً على ما ابتدعوه من كفر ، مبيناً حقيقة نبيه عيسى بن مريم عليه السلام ، وما أمده الله به من آيات لإثبات نبوته ،

---

(١) ثمال القوم : أصلهم الذى يرجعون إليه .

ثم رخص الله لنبيه الكريم فى مباهلة[1] هذا الوفد قطعا لحجته ودحضاً لكلمته ، فقال عز وجل :

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ[2] » .

فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله الفصلُ فى القضاء بينه و بينهم ، وأُمِرَ بما أُمِرَ به من ملاعنتهم إن لّجوا فى عنادهم ، دعاهم إلى ذلك ، فقالوا له :

ياأبا القاسم ، دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم ، فقالوا :

يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟

فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لَنَبِيٌّ مُرْسَل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم[3] ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط ، فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وأنه لَلْإسْتِئْصَال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلْف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فودعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :

يا أبا القاسم ، قد رأينا ألاّ نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ؛ فانكم عندنا رضاً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين .

---

(١) المباهلة هنا : الملاعنة ، ومن معانيها الاجتهاد فى الدعاء .

(٢) آل عمران : ٦١ .

(٣) يشير بالصاحب إلى السيد المسيح عليه السلام .

قال عمر بن الخطاب يحدث فيما بعد :

ما أحببت الإمارة قط حبي اياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجرا ، فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة ابن الجراح ، فدعاه فقال :

اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه . قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة

وقد سمى أبو عبيدة باسم « أمين هذه الأمة » من ذلك اليوم .

وقال عمر بن الخطاب وهو يحتضر حين سئل من يولى من بعده :

لو كان أبو عبيدة بن الجراح — حياً لاستشرته ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه بأنه أمين هذه الأمة .

رأس المنافقين

وقد لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنتاً شديداً من المنافقين ، الذين أظهروا الإسلام واستبطنوا الكفر ، إذا كان اظهارهم الإسلام يعصمهم مما شرعه الدين فى معاملة الكفار ، وكانت هذه العصمة لهم سلاحًا أساءوا استعماله ، وأمعنوا فى ابتذاله .

وكان رأس المنافقين ، عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول ، وكان قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قد ساد قومه حتى شرعوا فى تتويجه ملكاً عليهم ، فلما أنعم الله على الأنصار بالإسلام ، انصرفوا عنه والتفوا حول الرسول عليه السلام ؛ فغمّه ذلك وملأه حقداً على النبى الأمين ، وقد أبطأت به حاله هذه عن الدخول فى الإسلام ولم يُسْلِمْ ظاهراً إلا بعد أن أسلم سائر الناس ، فرأى أن يدخل فيما دخلوا فيه نفاقا ، وظل على حسده الرسول و بغضه الإسلام ، ومظاهرته كل من حاول الكيد لله ولرسوله وللمؤمنين إلى أن مات فى السنة التاسعة الهجرية .

أحداث سياسية واجتماعية

من الأحداث التى وقعت فى السنة الأولى فوق ما قدمنا :

البناء بعائشة

فى هذه السنة بنى النبى عليه الصلاة والسلام بالسيدة عائشة ، وقد قدمنا طرفاً من الحديث عنها عند ذكر عقد قرانه عليها ، ويسرنا أن نسجل فى هذا المقام بعض خصائصها نقلا عنها من رواية الطبرى ، قال :

(قالت عائشة لأحد محارمها : يافلان ، أسمعت حديث حفصة ؟ فقال وما ذاك ؟ قالت : خلال فِيَّ تسع لم تكن فى أحد من النساء إلا ما أتى الله مريم بنت عمران ، والله ما أقول هذا فخرًا على أحد من صواحبى . قال لها : وما هو ؟ قالت :

نزل الملك بصورتى ، وتزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبع سنين ، وأهديت إليه لتسع سنين ، وتزوجنى بكرًا لم يشركه فىَّ أحد من الناس ، وكان يأتيه الوحى وأنا وهو فى لحاف واحد ، وكنت من أحب الناس إليه ، ونزلت فىَّ آية من القرآن كادت الأمة أن تهلك ، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيرى ، وقبض فى منزلى لم يَلِهِ أحد غير الملك وأنا .

استقدام آل الرسول من مكة

وبعث النبى عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بآله فيها وهم : بنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وزوجه سودة بنت زمعة ، أما زينب بنت الرسول فقد أبى زوجها أبو العاص بن الربيع أن يرسلها مع بقية أهل البيت إلى أبيها .

قدوم آل أبى بكر

وقدم مع آل الرسول آل أبى بكر ، يصحبهم عبد الله بن أبى بكر ، وعائشة

وأسماء أختاه ، وأم رومان زوج أبى بكر ، وقد صحب آل أبى بكر كذلك طلحة بن عبيد الله .

أول مولود بعد الهجرة

وكانت أسماء بنت أبى بكر زوجاً للزبير بن العوام ، وكانت حاملا بابنها عبد الله بن الزبير حين قدمت المدينة وقد وضعته بعد مقدمها بشهر ؛ فكان أول مولود ولد من أبناء المهاجرين بالمدينة بعد هجرة الرسول إليها .

أول ميت بعد الهجرة

وكان أول من توفى من المسلمين بالمدينة بعد الهجرة كلثوم بن الهَدْم ، الذى نزل الرسول عليه الصلاة والسلام عليه .

ثم توفى بعده أسعد بن زرارة ذو اليد البيضاء فى نشر الإسلام ، بين الأنصار ، وصاحب القصة التى نشرناها قبلا بشأن إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير .

وكان أسعد أحد النقباء الذين اختيروا ببيعة العقبة الثانية ، فلما توفى جاء قومه من بنى النجار إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلبون إليه أن يختار من بينهم نقيبا يحل محل أسعد ، فكره عليه الصلاة والسلام أن يختار واحداً فيدخل فى نفوس الآخرين شىء ، فقال لهم : أنتم أخوالى وأنا نقيبكم ، فسروا بهذا الحل وعدوه من مفاخرهم ، فكانوا يقولون : أن نقيبنا رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وفيها توفى من المسلمين المهاجرين عثمان بن مظعون ، أخو النبى عليه الصلاة والسلام من الرضاع . ولما دفن أمر الرسول برش قبره ، ووضع عليه حجرا لتميزه به ، ويدفن اليه من مات من أهله .

هلكى قريش

وهلك من قريش هذا العام : الوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد وأحد طغاة المشركين ، وفيها هلك أبو أحيحة سعيد بن العاص والعاص بن وائل السهمى أبو عمرو بن العاص .

سلمان الفارسى

تاريخه و إسلامه

كان سلمان الفارسى من أبناء دهاقين الفرس بأصبهان ، وكان أبوه يحبه حبًّا جماً حتى إنه كان يحبسه فى البيت كما تحبس الفتيات خشية عليه . وفى يوم من الأيام كلفه الذهاب إلى ضيعته ، فمر فى طريقه بكنيسة لبعض النصارى ، فسمعهم يترنمون بالأناشيد فأعجبته ، ودخل الكنيسة وعرف ماهو دين النصرانية وفضله على عبادة النار ، فخرج حتى أتى الشام وسأل عن أفضل أهل هذا الدين ، فَدُلّ على رجل ولكنه لم يحمده لأنه كان يكنز أموال الصدقات ولا يعطيها الفقراء ، ثم عثر برجل صالح أرضاه خلقه وزهده ، فلما مات الرجل الصالح أوصى بسلمان إلى رجل صالح مثله .

واطرد الأمر هكذا : كل رجل صالح يموت يوصى بسلمان إلى أخ له فى الصلاح ، إلى أن كان آخرهم ، فقال له : ياسلمان لست أجد من أرضى بأن أوصى بك إليه ، ولكنه قد أظل زمان نبى من العرب مهجره إلى أرض بين حريتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة .

وكان سلمان قد أصبح ذا مال فمر به جماعة من العرب،فساومهم على أن يعطيهم ماله و يأخذوه معهم إلى بلاد العرب ، فرضوا بذلك ولكنهم غدروا به ، فلما توسطوا بلادهم باعوه عبدا رقيقا ، وقلَّبه الرق بين الأيدى المختلفة حتى آل أمره الى رجل من يهود المدينة ؛ فبينما هو يعمل ذات يوم مع سيده فوق نخلة إذ جاء يهودى آخر فأخبر الأول باجتماع الأنصار بقباء على رجل اسمه محمد يزعمون أنه نبى .

فذهب سلمان إلى النبى عليه الصلاة والسلام وأعطاه شيئاً من طعام تصدق به على أصحابه الفقراء ، فأعطاه النبى لهم ولم يأكل منه شيئا .

وجاءه يوما آخر بشىء من طعام فأهداه إليه ، فأكل منه هو وأصحابه .

وأراد سلمان التثبت من خاتم النبوة ، فجاء من خلف ورأى الخاتم كما وصف

له ، فأكبّ على يدى النبى صلى الله وسلم يقبلهما وهو يقول : أهلا بك يارسول الله ، ثم قص عليه قصته من أولها إلى آخرها .

وأمره النبى عليه الصلاة والسلام أن يكاتب صاحبه ، فكاتبه على عدد من النخل ووزن أربعمائة أوقية من الذهب .

فأوصى النبى الأنصار أن يعينوه بالنخل ، فأعانوه بما قدروا عليه ، وكان عليه الصلاة والسلام يعمل بيده فى غرس النخل مشاركة فى تحريره .

ثم أعطاه الذهب المقدر عليه ، وأصبح سلمان بفضل الله ورسوله حرا ، وقد تمت له حريته بعد أحد ، فكان أول مشهد شهده مع الرسول عليه الصلاة والسلام غزوة الأحزاب ؛ وهو الذى أشار بحفر الفندق . ثم لم يفته مشهد من مشاهد النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك .

بدء الجهاد

أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة منذ قدومه إليها مهاجرا بضعة أشهر مضى فيها كثيرا من مهام الأمور وعظائم الشئون ؛ فأنشأ مسجده وأقام مساكنه ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، مؤذنا بهذا العمل الجليل تكوين الأمة الإسلامية من هذين الفريقين وممن تابعهما بالدخول فى الإسلام ، وحدد مركز المسلمين من يهود المدينة بعد أن أدرك مبلغ تشابك مصالحهم وعلاقاتهم بالأنصار وما لهم من الصلات المتوارثة منذ الجاهلية بهم ، فكتب العهد الذى نشرنا خلاصته قبلا .

وكان مما استقل به العام الأول للهجرة من الأعمال الجسام ، رسم أصول السياسة الإسلامية التى تسير عليها الأمة الجديدة فى جميع النواحى والمذاهب : من دينية واجتماعية واقتصادية ، فكان الوحى ينزل عليه صلى الله عليه وسلم بالتعاليم الواضحة ، و بيان ما أشكل على القوم من أمور ، وما غُمّ عليهم من شئون .

ولما تم للرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد من هذا كله ، واستتب أمر الإسلام

بالمدينة ورسخت قدمه فيها ، شرع فى تحقيق ما أمره به المولى عز وجل من قتال « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »

وليس يخفى أن خروج الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة مهاجرا لم يُنه صلته بكفار قريش ، بل أولى من ذلك إن يقال أن مبارحته مكة كانت إيذانا بتحوير هذه الصلة إلى أسلوب جديد يقتضيه العمل على نشر الدعوة الإسلامية بالأسلوب الذى تفهمه قريش .

كذلك كان لابد أن يشرع الرسول عليه الصلاة والسلام فى العمل على ما من شأنه أن يستخلص المسلمين الذين أكرهتهم قريش على البقاء بمكة، وأخذت تسومهم سوء العذاب ، وتمثل بهم أشنع تمثيل .

وكان واضحاً جدًّا أن لا سبيل إلى تحرير الدعوة الإسلامية وانتشار كلمة الله إلا إذا أزيحت قريش من طريقها ؛ إذ كانت تضع يدها على الكعبة وهى مَحَجّ العرب ، وتنفث سمومها ضد الإسلام بين الحجاج أثناء المواسم ، متخذة من استمساك العرب بما ورثوه عن آبائهم من عادات ، وما يغلب على النفوس من التشبث بالأمر القائم ، ذرائع تنصبها ضد الإسلام ، ووسائل تشنع بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من أجل هذا كله أجمع الرسول أمره على مجاهدة قريش ، انصياعا لأوامر الله ، واتباعا لما أُمر به من الجهاد .

تجارة قريش

كانت قريش تعيش على التجارة ، وكانت الشام من أعظم الأقطار التى تتجر معها ، ولما كانت طريق قريش إلى الشام تمر قريبا من المدينة فقد رأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحارب قريشاً بالاستيلاء على تجارتها ، والتعرض لها أثناء ذهابها أو إيابها ، وكان من عادة قريش أن تحرس تجارتها بحرس مسلح يقوم به أبناؤها ومواليها .

سرية[1] حمزة إلى سيف البحر

بعث النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان من السنة الأولى حمزة بن عبد المطلب ، فى ثلاثين راكبا من المهاجرين ، ليس فيهم أحد من الأنصار ، إلى سيف البحر من ناحية العيص ، ليعارض تجارة لقريش ، فلقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بين الفريقين ، مَجْدِىُّ بن عمرو الجهنى ، وكان موادعاً للفريقين جميعاً ، فانصرف القوم بعضهم عن بعض ولم يكن بينهم قتال .

وكانت الراية التى عقدها الرسول عليه الصلاة والسلام لحمزة أول راية عقدت فى الإسلام .

سرية عبيدة بن الحارث

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال من السنة الأولى عبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف فى ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين فحسب لملاحقة تجارة لقريش ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية الْمُرَّة ، ووجد عندها جمعاً كبيراً من قريش عليهم مِكْرَز بن حفص ، فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعداً بن أبى وقاص ، أحد المسلمين الأولين ، رُمِىَ بسهم فكان أول سهم رمى به مسلم ، ثم انصرف الفريقان كل إلى سبيله .

وحدث حين تراءى الفريقان أن خرج المقداد بن عمرو البهرانى ، وعتبة ابن غزوان من صفوف المشركين ، والتحقا بصفوف المسلمين ، وكانا قد أسلما قبل ذلك وعجزا عن اللحاق بالنبى عليه الصلاة والسلام ، فخرجا مع المشركين ليتوصلا بذلك إلى اللحاق بالمسلمين .

---

(١) السرية : هى جماعة من المقاتلين ، وقد اصطلح مؤرخو الإسلام على هذه التسمية ، أما الغزوة فإنما تكون بجيش كبير ويغلب أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام على رأسه .

السنة الثانية الهجرية

غزوة الأبواء[١]

فى أوائل السنة الثانية الهجرية بلغ النبى عليه الصلاة والسلام أن تجارة لقريش ستمر بطريق الشام ، فخرج إليها فى جمع من أصحابه المهاجرين ليس بينهم أحد من الأنصار ، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة ، وأعطى لواءه لحمزة بن عبد المطلب . وكان اللواء أبيض اللون .

ومضى الرسول بجيشه حتى بلغ ودان[٢] ففاتته العير .

وقد وادع فى هذه الغزوة قبيلة ضمرة من بنى كنانة على أن تكون مع المسلمين ويكون عليهم نصرتها إذا اعتدى عليها .

وكانت هذه الغزوة أول غزوة خرج فيها الرسول بنفسه ولم يلق فيها كيداً .

غزوة بُوَاط

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول من السنة الثانية يريد قريشا ، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، ومضى حتى بلغ بُوَاط من ناحية رضوى . ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى .

غزوة العُشَيْرَة

وفى شهر جمادى الأولى من تلك السنة علم الرسول عليه الصلاة والسلام أن عيراً[٣] لقريش متجهة إلى الشام ، جمعت كل أموالها ولم يبق بمكة قرشى ولا قرشية يملك مثقالا فصاعداً إلا بعث به فى تلك العير ، وقد قدر ذلك بما يقرب من خمسين

---

(١) اسم قرية بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا .

(٢) اسم قرية على طريق المدينة .

(٣) العير : القافلة .

ألف دينار ، وكانت التجارة محمولة على ألف بعير ، وقائد القافلة أبو سفيان بن حرب ومعه تسعة وثلاثون رجلا .

فخرج الرسول عليه الصلاة والسلام ومعه مائتان من المهاجرين فحسب ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، واستخلف الرسول على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وسلك الرسول نقب بنى دينار ثم فَيْفَاء الَخبَار ، فنزل تحت شجرة ببطحاء بن أزهر ، يقال لها : ذات الساق ، فصلى عندها فثَمّ مسجده ، وصنع له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه .

ثم ارتحل النبى عليه الصلاة والسلام حتى نزل العُشَيْرة من بطن ينبع ، وهناك علم أن العير قد مضت قبل ذلك بأيام ، فأقام الرسول بالعشيرة جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة ، ووادع فيها بنى مُدْلج وحلفاءهم من بنى ضُمْرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

غزوة سفوان

وهى غزوة بدر الأولى

ولم يقم الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة بعد رجوعه من غزوة الْعُشَيْرة إلا ليالى قلائل لاتبلغ العشر ، حتى أغار كرز بن جابر الفهرى على سَرْح[1] المدينة ، فخرج الرسول عليه الصلاة والسلام فى طلبه ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر فلم يدركه ، فرجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجب وشعبان .

وتسمى هذه الغزوة أيضاً : بدر الأولى .

---

(١) السرح : هو الماشية .

سرية عبد الله بن جحش

وشرعية القتال فى الشهر الحرام

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجب عبد الله بن جحش الأسدى ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً وأمره أن لاينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، وحين يقرأه يمضى لما أمره به، ولايستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا هو :

« إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم ».

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن أمضى إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره منكم أحداً؛ فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمضى معه أصحابه ولم يتخلف عنه منهم أحد.

وقبل أن يصلوا إلى موضع بعثتهم، أضل سعد بن أبى وقاص وعُتْبة بن غَزْوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا فى طلبه.

وظل عبد الله بن جحش وما بقى معه من أصحابه سائراً حتى نزل بنخلة، فمرت به عِيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأَدَماً[1] وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمى، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل وهما من بنى مخزوم، والحَكَم ابن كَيْسَان، مولى هشام بن المغيرة.

وكان اليوم الذى التقى فيه الفريقان آخر يوم من أيام شهر رجب، وهو أحد الأشهر الحرم عند العرب، فتحرج المسلمون من قتالهم فيه، ثم بدا لهم أنهم إذا تركوهم اليوم أفلتوا منهم غداً بدخولهم الحرم، وأجمعوا على أن ينازلوهم، فرمى واقد

---

(١) الأدم : الجلد.

ابن عبد الله التَّميمى أحدُ الصحابة عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، وأُسر عثمان ابن عبد الله والحكم بن كيسان ، وهرب نوفل بن عبد الله .

واستولى عبد الله بن جحش على العير ، وقسم الغنيمة بين أصحابه بعد أن أخرج منها الخمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كَرَّ راجعاً إلى المدينة ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم جلية الأمر ، قال :

ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام . وأبى أن يأخذ شيئاً من الغنيمة ، فَسُقِطَ فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعَنَّفَهُم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهرَ الحرامَ ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

وقالت يهود — تتطير بذلك على الرسول عليه الصلاة والسلام — : قتل واقد عمر الحضرمى ، وقدت الحرب ، عمرت الحرب ، حضرت الحرب ، فكان ذلك عليهم لا لهم .

فلما أكثر الناس فى ذلك ، أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا[1] »

فلما نزل القرآن بهذا الأمر ، وفرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف والقلق ، أقر رسول الله عليه الصلاة والسلام قضاء عبد الله بن جحش فى الغنيمة ، وقبض على الأسيرين .

وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فأرجأ

---

(١) البقرة : ٢١٧

رسول الله ذلك حتى يعود سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ، خشية أن تكون قريش قد وضعت يدها عليهما ، فلما عادا قبل الرسول فداء الأسيرين ، فرجع عثمان بن عبد الله إلى مكة ومات كافراً ، وأما الحكم بن كَيْسان فإنه أسلم وأقام بالمدينة ومات شهيداً يوم بئر مؤتة .

وكانت هذه أول غنيمة غنمها المسلمون ، وكان عمرو بن الحضرمى أول قتيل قتله المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون .

استقبال الكعبة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل صخرة بيت المقدس فى صلاته ، وكان يرغب إلى الله عز وجل كثيراً أن يجعل الكعبة قبلته ، وقد أتم الله تعالى عليه نعمته بتحقيق رغبته ، فصرف وجهه إلى الكعبة بعد ثمانية عشر شهراً من مقدمه المدينة . وفى هذا يقول القرآن الكريم :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ[١] » .

غزوة بدر الكبرى

النصر الأول للإسلام

وفى شهر رمضان من السنة نفسها ، علم النبى عليه الصلاة والسلام أن عير قريش الحافلة التى خرج من أجلها فى شهر جمادى الأولى وفاتته — كما قدمنا فى غزوة العُشَيْرَة — قافلة من الشام هذه الآونة وعلى رأسها أبو سفيان ومعه من صحبه من الرجال ، فندب الرسول أصحابه لها قائلا : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها ، لعل الله يُنْفِلُكُمُوها » .

---

(١) البقرة : ١٤٤

ولم يحتفل الرسول بحشد الناس بل قال : من كان ظهره [1] حاضراً ، فليركب معنا ، ولم ينتظر من كان ظهره غائباً ، فاستجاب بعض الناس وتثاقل بعضهم ؛ وذلك أنهم لم يظنوا أن الرسول سيلقى حرباً .

وكان أن خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من المدينة لليال مضت من رمضان ، واستخلف عبد الله بن أم مكتوم للصلاة بالناس بالمدينة ، وأبا لبابة والياً عليها ، وخلف عاصم بن عدى على أهل قباء وأهل العالية لشىء بلغه عن المنافقين .

وكان عدد أصحاب الرسول ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا، منهم مائتان ونيف وأربعون من الأنصار والباقون من المهاجرين . وهذه هى أول غزوة يشترك فيها الأنصار مع النبى عليه الصلاة والسلام .

ركائب الجيش

وكانت ركائب الجيش محصورة فى فرسين وسبعين بعيراً ، كان يتعاقب على البعير الواحد ثلاثة أو أربعة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب ومرثد بن مرثد يتعاقبون بعيراً واحداً ، فإذا جاء دور النبى فى الترجل قالا له : اركب أنت يارسول الله ونحن نمشى ، فيقول عليه الصلاة والسلام :

« ما أنتما بأقوى على المشى منى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

حامل اللواء

ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء الجيش إلى مُصْعَب بن عمير العبدرى ، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ رئيس الأوس .

أنباء العدو

وسار الرسول بجيشه يقصد عير قريش ، وأرسل اثنين من أصحابه يَتَحَسَّسَان من أخبارها ، ثم مضى فى سبيله سالكا طرقاً ووديانا مختلفة حتى أتى ذَفِران فنزل فيه .

---

(١) الظهر : ماركب من فرس أو غيرها .

أبو سفيان ينذر قريشاً

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان عن أخبار النبى ، حتى علم أن الرسول قد استنفر أصحابه له ولعيره ، فحَذِر من ذلك ، واستأجر رجلا من غفار لينذر قريشاً .

وجاء النذير مكة ، فبلَّغ قريشاً رسالة أبى سفيان ، فنفر الناس سراعاً ، وهبّت قريش كلها فلم يتخلف من أشرافها أحد إلا أبولهب فإنه أرسل مكانه العاصى بن هشام ، وكان قد استعبده فى الجاهلية ، على ماذكرناه مفصلا فى صدر هذا الكتاب . وتخلّف بنو عدى بن كعب — رهط عمر بن الخطاب — فلم يخرج منهم مع قريش أحد .

الرسول يستشير أصحابه

وجاء النبى صلى الله عليه وسلم خبرُ قريش وهو بمنزله فى ذَفِران ، فأخبر أصحابه بذلك واستشارهم ، فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال :

يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام خيراً ، ودعا له به ، ثم قال :

أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان

---

(١) برك الغماد : موضع بناحية اليمن .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دَهمَه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس له عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم .

رئيس الأنصار يتكلم

فلما قال ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام ، قال له سعد بن معاذ :

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال الرسول : أجل !

فقال سعد بن معاذ :

لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لَصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

فَسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال :

« سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

نحن من ماء !

ثم ارتحل الرسول عليه الصلاة والسلام حتى نزل قريباً من بدر[١] ، فركب هو وأبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما عن شىء حتى تخبرانى من أنتما ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم !

قال الشيخ : فإنه قد بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن

---

(١) اسم بئر .

كان صدق الذى أخبرنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و بلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صدقنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى فيه قريش . فلما فرغ من خبره ، قال : من أنتما !

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نحن من ماء[1] ، ثم انصرفا عنه .

فجعل الشيخ يقول : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

يريدون العير لا الحرب

ثم رجع رسول الله إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر ، يلتمسون الخبر له عليه ، فأصابوا غلامين من غلمان قريش ينزحان لهم ماء فأخذوهما ، وأخذوا يسألونهما عن قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ، فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبى سفيان ، إذ كانوا يؤثرون الاستيلاء على العير ، و يرون ذلك خيراً من الحرب ، وراحوا يضربون الغلامين ، فلما أوجعهما الضرب ، قالا : نحن لأبى سفيان !

ولما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من صلاته ، قال لأصحابه :

إذا صَدَقَا كم ضربتوهما ، و إذا كَذَبَا كم تركتوهما ! صدقا والله إنهما لقريش ، أخبرانى عن قريش ، قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذى تراه بالعدوة[2] القصوى ، فقال لهما الرسول عليه الصلاة والسلام : كم القوم ؟ قالا : كثير ، قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً و يوماً عشراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم بين التسعمائة والألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البخترى

---

(١) فى إجابة النبى عليه الصلاة والسلام تورية صادقة فإن كل مخلوق من ماء .

(٢) العدوة : شاطىء الوادى .

ابن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة ابن عدى ، والنضر بن الحارث ، وربيعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام ، وأمية ابن خلف ، ونُبَيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد وُدّ .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[١] .

إفلات العير

وكان أبو سفيان قد تقدم العير ليقف على أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما علم أنه ينزل قريباً من بدر ، كرّ مسرعاً إلى العير فصرفها عن طريقها والتزم الساحل ، وسار بها سيراً حثيثاً حتى نجا بها ، ثم أرسل إلى قريش ، وقد كانوا نزلوا بالُجحْفَة ، يخبرهم أنه أفلت العير من محمد وأصحابه ، ويشير عليهم بالرجوع إلى مكة ، فقال أبو جهل بن هشام :

والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً — وكان بدر موسماً من مواسم العرب يقام به سوق كل عام — فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر وَنُطْعِمَ الطعام ونُسْقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها ! .

رجوع بنى زهرة

ونادى مناد فى بنى زهرة، يحثها على الرجوع إلى مكة بعد أن نجت أموالها ، فأطاعوه ورجعوا ؛ وبذلك لم يشهد بدر منهم زهرى واحد .

وبنو زهرة أخوال الرسول عليه الصلاة والسلام .

ورجع طالب ابن أبى طالب كذلك إلى مكة .

---

(١) أفلاذ : أى قطع .

وكان مع قريش من آل عبد المطلب : العباس بن عبد المطلب ، وعقيل ابن أبى طالب ، ونوفل ين الحارث بن عبد المطلب . وقد خرجوا مكرهين ، ولما جاء رسول أبى سفيان بنجاة العير ورجعت بنو زهرة ، أراد بنو عبد المطلب الرجوع ، فحال بينهم و بين ذلك أبو جهل بن هشام ، وأبى إلا أن يظلوا مع النفير .

موقع قريش

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادى ، وخلفها كثيب وأمامها البئر ، وهو إلى العدوة الدنيا مما يلى المدينة . و بعث الله السماء فأصاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه من الماء ما شربوا منه وتطهروا ، ولبَّد المطرلهم الأرض فيسر عليهم السير ، فى حين أنه غَزُر فى المكان الذى نزلت به قريش حتى منعها من السير وأثقلها بالوحل والطين .

موقف المسلمين

ونادى الرسول فى أصحابه بالسير ، فساروا حتى إذا جاءوا أدنى ماء من بدر نزلوا به ، فجاءه الُحْبَاب بن المنذر فقال : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أَمَنْزِلاً أنزلكَهُ الله ، ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال : يارسول الله ، إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نُغَوِّر (١) ما وراءه من القُلُب (٢) ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : لقد أشرت بالرأى ، فنهض الرسول ومن معه من الناس وأمضى هذا الرأى بحذافيره .

---

(١) نغور : أى نردم
(٢) القلب : أى الآبار

قريش وخيلاؤها

وجاءت قريش فلما رآها الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال :

« اللهم هذه قريش ، قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تُحَادّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أَحِنْهم الغداة » .

استطلاع وذعر

و بعثت قريش عمير بن وهب ، وكان شيطانا من شياطين العرب ، لِيَحْزُرَ عدد المسلمين ، فجال بفرسه جولة ، وقال : القوم ثلثمائة رجل يزيدون أو ينقصون عن ذلك قليلا . ولكنه قال : إن القوم ليس معهم مَنَعَةٌ ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم .

وأحدث هذا القول ذعراً فى صفوف المشركين ، ومشى بعض كبرائهم إلى بعض يثبطون عن الحرب ، ويحبذون الرجوع إلى مكة . وتولى أمر هذه الدعوة عتبة ابن ربيعة ، وكان مما قاله : اعصبوها بى وارجعوا وخلوا بين محمد و بين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، و إن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون [١] .

و بلغ أبا جهل قولُ عتبة فثار واتهمه بالجبن ، ففشلت الدعوة وأصبح مامن الحرب بدّ .

غيظ قريش من سوء موقعها

وغاظ قريشا استيلاء المسلمين على الماء وحرمانها منه ، فخرج الأسود ابن عبد الأسد المخزومى — وكان رجلا شرسا سيء الخلق — وآلى على نفسه أن يردِ الماء فيشرب منه ، على الرغم من المسلمين ، أو يقتل دونه ، فتصدى له حمزة ابن عبد المطلب وضربه بالسيف ضربة أطار بها قدمه ، ثم أتبعها بضربة أخرى كانت القاضية عليه ، فكان أول قتيل فى المعركة .

---

(١) أى وليس بينكم و بينه دماء وثارات .

بناء عريش للنبي

وجاء سعد بن معاذ — رئيس الأوس — إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا رسول الله ، ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد لك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ؛ فإن أعزنا الله تعالى وظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، و إن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله مانحن أشد لك حبًّا منهم ، ولا أطوع لك رغبة منهم فى الجهاد ونية ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم و يناصحونك و يجاهدون معك .

فقال عليه الصلاة والسلام :

أو يقضى الله خيراً من ذلك .

ومع ما توحى إليه عبارة النبى عليه الصلاة والسلام من توقعه النصر ، استحسن مااقترحه سعد بن معاذ ، فأنشىء عريش على تل مرتفع ، يشرف على ميدان المعركة ليجلس فيه الرسول أثناء الحرب .

شاهت الوجوه

ومضى النبى عليه الصلاة والسلام يعدل صفوف أصحابه و يسويها حتى أصبحت كالبنيان المرصوص .

ولما تراءى الجمعان وتدانى الصفان ، أخذ النبى عليه الصلاة والسلام حفنة من تراب فرماها نحو المشركين ، وهو يقول : شاهت الوجوه .

أكفاء كرام ولكن ؟!

و برز من صفوف المشركين عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبعة وأخوه شيبة ابن ربيعة ، فلما توسطوا ما بين الصفين دعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم نفر من الأنصار ،

فسألوهم من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : أكفاء كرام ، ولكنا نريد قومنا . ثم نادوا : يامحمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم ياحمزة ، وقم ياعلى — وهم عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ؛ وجميعهم من آل النبى عليه الصلاة والسلام .

فلما برزوا من صفوف المسلمين ودنوا من أعدائهم ، سألوهم من أنتم ؟ فلما انتسبوا إليهم ، قالوا : نعم ، أكفاء كرام .

وبارز عبيدة بن الحارث — وكان أسن القوم — عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبةَ بن ربيعة ، وبارز علىّ الوليدَ بن عتبة بن ربيعة .

فأما حمزة وعلى فإنهما لم يُمْهلا عدويهما حتى قتلاهما ، وأما عبيدة بن الحارث وعتبة بن ربيعة فإنهما تبادلا ضربتين كلاهما أثبت[1] صاحبه ، وكرّ حمزة وعلىّ على عتبة بن ربيعة فأجهزا عليه ، واحتملا عبيدة إلى المعسكر ؛ وقد استشهد بعد ذلك متأثرا بجراحه .

أقدنى يارسول الله

وبعد أن كتب الله النصر للمسلمين فى هذه المبارزة التى كانت بشرى لهم وخذلاناً للكافرين ، وقف عليه الصلاة والسلام بين الصفوف يسويها بقضيب كان فى يده ، فمر بسواد بن غزية ، حليف بنى النجار ، وهو غير مستوٍ فى الصف ، فغمزه بالقضيب الذى كان بيده ، وقال : استقم يا سواد !

فقال سواد : لقد أوجعتنى يارسول الله ، وقد بُعِثت بالحق والعدل ، فَأَقِدْنِى من نفسك .

---

(١) أثبت صاحبه : أى ضربه ضربة قاتلة :

فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : اسْتَقِدْ ياسواد .
فاعتنقه سواد وقبّل بطنه ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : ماحملك على ذلك ؟
فقال : يا رسول الله ، قد حضر ماترى ، فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك .

فدعا له النبى بخير .

انتظار الأوامر

وأوصى النبى عليه الصلاة والسلام المسلمين ، أن لايحملوا على المشركين حتى يأمرهم ، وإن اكتنفهم القوم فلينضحوهم بالنبال ، ولا يَسُلُّوا السيوف حتى يغشوهم ، ثم حضّهم على الصبر والثبات .

النبى يستنجز الله وعده

ورجع رسول الله إلى العريش ومعه أبو بكر ، ووقف سعد بن معاذ على بابه يحرسه ، واتجه النبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه يدعوه أن ينصر المسلمين ، وكان من دعائه :

اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد .

ورأى أبو بكر رضى الله عنه ماعليه الرسول عليه الصلاة والسلام من حال فأشفق عليه ، وقال له : يارسول الله ، حسبك ، فإن الله سينجز لك وعده .

أخصر طريق إلى الجنة

فخرج النبى عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرُ » .

ثم قال يخاطب أصحابه :

« والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل ، فيقتَل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قتل قتيلاً فله سلبه » .

فقال عمير بن الحمام — و بيده تمرات يأكلها — : بخ بخ ! مابينى و بين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه وحمل على القوم وقاتلهم حتى قتل .

هزيمة المشركين

ثم التحم الجيشان وحمى الوطيس وأمد الله المؤمنين بالنصر ، فلم تكن إلا ساعة حتى هُزمت قريش وتشتت شملها ، واستحَرَّ القتل فيها حتى بلغ عدد قتلاها سبعين قتيلا .

وكان من بين القتلى طائفة من أشراف قريش وزعمائها وأعظمها كيداً للإسلام وحرباً على المسلمين منهم : أبو جهل بن هشام الذى وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه : فرعون هذه الأمة، وقد قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومُعَوِّذ بن عفراء ، ضربه كل منهما ضربة مثخنة . ثم أجهز عليه عبد الله بن مسعود . وكان مما قاله هذا الطاغية حين رأى ابن مسعود جاثماً على صدره يهم بذبحه : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يارُوَيعِى الغنم .

وقُتل أمية بن خلف وابنه ، وكان من أشد قريش إيذاء للمسلين ،وقد مر طرف من تعذيبه بلال بن أبى رباح بمكة ، وكان أمية قد استأسر لعبد الرحمن بن عوف لصداقة كانت بينهما ، فرآه بلال ، فصاح :

رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا ! فقال عبد الرحمن بن عوف : أعلى أسيرى يابلال ؟ ولكن بلالاً نسى كل شىء إلا تاريخ هذا الطاغية معه وتجبره عليه ، فهتف : يا أنصار الله ، هذا أمية بن خلف رأس الكفر . فهجموا عليه وقتلوه .

ومن القتلى كذلك نوفل بن خويلد ، والجراح والد أبى عبيدة بن الجراح ، قتله ابنه أبو عبيدة ، وقتل عمر بن الخطاب خاله : العاص بن هشام ، وقُتِل العاص ابن سعيد بن العاص ،ومنبه ونبيه ابنا الحجاج بن عامر ، والأسود بن عبد الأسد بن هلال، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وعقبة بن معيط ، والنضر بن الحارث ، وقد قتلا

صبرا[١] . ولم تنج قبيلة من قبائل قريش من قتل واحد أو أكثر من زعمائها .

وأسر من المشركين سبعون أسيراً .

واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً ، منهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وأمر النبى عليه الصلاة والسلام بجمع قتلى قريش وإلقاء جثثهم فى بئر ، ثم جعل ينادى كبراءهم ، قائلا :

أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟

فقال عليه الصلاة السلام :

والذى نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

طريفة

ونذكر هنا طريفة من الطرائف التى قلّ أن يحدث مثلها فى ميدان حرب ومجال كفاح ونضال ؛ فقد حدث حين انهزمت قريش وأخذ المسلمون يضعون أيديهم على الأسرى ، أن مر مصعب بن عمير ، حامل لواء المسلمين ببدر ، برجل من الأنصار وفى أسره أبو عزيز بن عمير أخو مصعب لأبيه وأمه وحامل لواء المشركين فى المعركة .

فقال مصعب للأنصارى :

شُدَّ يديك به ، فإن أمه ذات مال ، لعلها أن تفتديه منك !

فقال أبو عزيز : يا أخى هذه وَصَاتُك بى !

---

(١) يقال : قتل صبرا ، إذا أخذ أسيرا ثم قدم فضربت عنقه .

فقال مصعب ، مشيراً إلى الأنصارى : إنه أخى دونك !

وسألت أم أبى عزيز عن أغلى ما فُدِى به قرشىّ ، فقيل لها : أربعة آلاف درهم ، فبعثت بها إلى المدينة فداء لابنها .

وقد أسلم أبو عزيز بعدُ ، وحسن إسلامه .

أين مالى ياخبيث ؟ !

ومن النوادر الطريفة التى حدثت يوم بدر كذلك ، أن أبا بكر رضى الله عنه رأى من بُعْدٍ ابنه عبد الرحمن فى صفوف المشركين فقال له : أين مالى ياخبيث ؟ فأجابه : لم يبق إلا شكة [1] ويعبوب [2] .

وقد أسلم عبد الرحمن بن أبى بكر فيما بعد ، وقال لأبيه ، يا أبت لقد أهدفت لى يوم بدر مراراً فصدفت عنك .

فقال له أبو بكر :

لو كنت أهدفت لى أنت ماصدفت عنك .

بنو هاشم وأبو البخترى بن هشام

وقال النبى عليه الصلاة والسلام لأصحابه :

إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا؛ فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البَخْتَرِى بن هشام الأسدى فلا يقتله ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله ، فإنه إنما أُخرج مستكرها .

وقد أسر المسلمون العباس عمَّ النبى عليه الصلاة والسلام .

أما أبو البَخْتَرى بن هشام فقد كان من حديثه أنه لم يكن يؤذى النبى عليه الصلاة والسلام بمكة ، وقد كان من أعظم قريش بلاء فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش لمحاصرة بنى هاشم .

---

(١) الشكة : السلاح .

(٢) اليعبوب من الخيل الشديد الجرىء .

وقد لقيه أثناء هزيمة قريش فى بدر أحدُ الصحابة ، وبلغه أمر النبى عليه الصلاة والسلام ، فقال وصاحبى الذى معى ؟ فقيل له : إن الأمر مقصور عليك ، فأبى وقاتل حتى قُتل !

اللين والشدة فى الحرب

حكاية الأسرى

كان عدد الأسرى من قريش ،فى قول معظم المؤرخين ، سبعين أسيراً ، وقد ذهب كبار الصحابة فيما ينبغى أن يُصنع بهم مذاهب شتى من القتل أو الفداء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منطوياً على الرحمة ، مفطوراً على الحسنى ؛ ولذلك كان يميل إلى المن عليهم بالفداء ، ولكنه كان لا يحب أن يستأثر بالرأى فيما يكون من أمر الناس إذا لم يُنَزَّل فيه قرآن ؛ ومن أجل ذلك استشار أصحابه ، فرأى عمر ابن الخطاب رأى الحرب ، وهو القتل ، وقال :

يا رسول الله ، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، فأرى أن تمكننى من فلان — أحد أقربائه — فأضرب عنقه .

وأقره على رأيه سعد بن معاذ ، وعبد الله بن رَوَاحة .

ورأى أبو بكر رأى السلم والبُقيا ، مُصْدِراً فى ذلك عن طبعه الرحيم وخلقه الكريم ، فقال :

يا رسول الله ، هؤلاء أهلكَ وقومك ، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تستبقيهم ، وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك ، فيكونوا لك عضدا .

فقال عليه الصلاة والسلام :

« إن الله لَيُلَيِّن قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مَثَلَكَ يا أبا بكر مَثَلُ إبراهيم قال : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانى فإنّكَ غَفُورٌ رَحِيم » وإن مَثَلَكَ يا عمر مَثَلُ نوح ، قال : « رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

ثم أخذ النبى عليه الصلاة والسلام برأى أبى بكر .

وقد عاتبه الله عز وجل على ذلك ، ثم رضى عما فعل . يقول الله سبحانه وتعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [(١)] » .

وقد شق على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عتاب الله لهم ، وأشفقوا من غضبه ، فلما أجاز لهم ما فعلوا وسوّغ لهم ما غنموا ، سُرُّوا لذلك واطمأنت قلوبهم .

وجُعلت فدية الأسير من أغنياء قريش أربعة آلاف درهم ، وأقلها ألف درهم ، ومَنَّ الرسول على بعض من يتوسم فيهم الهداية للإسلام بالحرية من غير ثمن ، وكلف بعض الفقراء منهم ، ممن يقرأ ويكتب ، تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ثمناً لإطلاق سراحه .

المن على شاعر

وكان من بين الأسرى أبو عزة الجمحى وكان شاعراً ، فسأل النبى عليه الصلاة والسلام أن يمن عليه بالفكاك من الأسر تكرماً لأنه فقير لا مال له ، فاستجاب الرسول لسؤاله وأطلق سراحه، وشرط عليه أن لا يظاهر عليه أحدا . ولقصة هذا الشاعر بقية ستذكر فى موضعها .

الغنـــائم

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمع ما غنمه المسلمون من قريش فجُمِع ، وتضاربت الآراء فى شأنه ؛ فقال من جمعه : هو لنا ، وقال المقاتلون : والله لولا نحن ما أصبتموه ، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله عليه الصلاة والسلام : والله ما أنتم أحق به منا ، ولقد كان فى مُكْنَتِنا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافه ،

(١) الأنفال : ٦٧ — ٦٩ .

ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولـكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كرّة العدو ، فقمنا دونه فما أنتم أحق به منا .

وتدارك الله سبحانه وتعالى المسلمين ، فأنزل على رسوله الـكريم القول الفصل فيه موضحاً فى سورة الأنفال :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين » .

ثم وضحت الآيات بعد ذلك نظام توزيع الغنائم .

فسمع المسلمون وأطاعوا الله ورسوله ، وقسّم الرسول الغنائم بينهم على حسب ما شرعه الله ، وفرض لمن تخلف عن الموقعة بعذر ، أو كان قائماً بمهمة كلفه إياها ، أو عاقه عن متابعة السير مع الركب عائق .

وفرض الرسول كذلك لجميع الشهداء ؛ وهم أربعة عشر نصيباً مثل نصيب الأحياء ، أخذه ورثتهم .

رسولا البشرى

ولما فتح الله على المسلمين أرسل النبى عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة ، وزيد بن حارثة بشيرين إلى أهل المدينة بما فتح الله على المسلمين من نصر مبين .

عودة المنتصر

وعاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ومعه الأسرى ، فخرج إليه مَنْ فيها يهنئونه بما فتح الله عليه ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الإسلام .

فداء الأسرى

وقالت قريش : لا تتعجلوا فى فداء الأسرى ، بل تريثوا حتى لا يشتط عليكم محمد فى الفداء ، ولـكن المطلب بن أبى وداعة السهمى انسل إلى المدينة ، وفدى أباه لقاء أربعة آلاف درهم ، ورجع به فأفسد على قريش تدبيرها ، وراح كل من كان له أسير يرسل إليه بالفداء .

قصة أسير

وكان من بين الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج السيدة الشريفة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخ السيدة خديجة ، وكان من رجال مكة المعدودين : مالا ، وأمانة ، وتجارة ، فلما جهر النبى عليه الصلاة والسلام برسالته ، واستفحل الأمر بينه و بين قريش ، كان من بين ما كادوا له أن سعوا عند أزواج بناته ليطلقوهن حتى يشغلوا النبى عليه الصلاة والسلام بهن ، وقد كانت إحدى بناته مزوجة لعتبة بن أبى لهب ولم يكن قد دخل بها ، فقال : إن زوجتمونى بنت أبان بن سعيد بن العاص طلقت بنت محمد ، فأجابوه لذلك فطلقها وزوجوه ممن طلب . وقد أكرم الله بنت الرسول هذه فتزوجها عثمان بن عفان .

أما أبو العاص بن الربيع فقد أبى أن يطلق زوجه — على الرغم من أنها حين أسلمت لم يقربها — وقال : لا والله إنى لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

فلما أُسِر أبو العاص بن الربيع بعثت السيدة زينب فداءه ، وكان من بينه قلادة لها كانت أمها السيدة خديجة قد أهدتها إليها عند زفافها لزوجها ، فلما رآها الرسول عليه الصلاة والسلام ، رَقَّ لها رقة شديدة ، وقال :

« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها ، فافعلوا » .

فقالوا : نعم يا رسول الله . فأطلقوه وردوا عليها الذى لها ، وأوصاه النبى عليه الصلاة والسلام أن يبعث بالسيدة زينب إلى المدينة عند رجوعه إلى مكة .

زينب بنت الرسول

هجرتها إلى المدينة

قلنا إنه كان فيما أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام أبا العاص بن الربيع زوج ابنته زينب عندما أطلق سراحه من الأسر ، أن يخلى سبيل زوجه ويرسلها إليه

بالمدينة ، و بعد شهر من غزوة بدر بعث النبى عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار معه إلى مكان خارج مكة عينه ، وقال لهما انتظرا زينب هناك حتى تأتى فاقدما بها ، فرحلا إلى حيث أُمِرا .

وفى الوقت المحدد خرج بها كنانة بن الربيع أخو زوجها نهاراً ، فغضبت قريش من ذلك وظنت فيه تحدياً لها ، فخرج نفر منهم واعترض طريقها ، وكان أوقحهم هَبَّار بن الأسود ، فقد روَّع السيدة زينب برمحه حتى جهضت ، ، فجاء كنانة بن الربيع و برك أمام جملها ونثر كنانته ، وأقسم لا يدنو أحد منها إلا رماه بسهم .

وجاء أبو سفيان بن حرب وسأل كنانة أن يمهله حتى يكلمه ، فلما استجاب له ، قال : إنه ليس لهم فى حبس بنت محمد عن أبيها من حاجة ، ولـكنك خرجت بها نهاراً ولا تزال جراح قريش مما أصابها يوم بدر تنزف دماً ، فحسبوا أن فى خروجها على أعينهم ذلا لهم ، فارجع بها حتى تهدأ النفوس ثم اخرج بها ليلا .

فرجع كنانة بالسيدة زينب ، ومكث أياماً ، ثم خرج بها ليلا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدما بها على الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

قريش تبـكى قتلاها

وقع خبر الهزيمة على قريش موقع الصواعق الماحقة ، فقد أَوْدَت سادتها ، وقُتل كبراؤها ، ولم يكن هناك بطن من بطونها لم يفجع بأعزاء عليه ، وقد هدّت المصيبة كيانهم ، فراحوا يبكون و ينوحون ، ومضوا فى ذلك شهراً ، ثم تنبهوا لما يجره هذا الضعف عليهم من شماتة النبى وأصحابه فحرموا البكاء على القتلى ، وكان الأسود ابن المطلب قد أصيب فى ثلاثة من ولده ، وكان يحب أن يبكيهم ولـكنه لا يفعل مجاراة لقريش ، وقد حدث أن سمع نائحة تنوح بالليل ، فبعث غلاماً له لينظر هل أحلت قريش النوح لينوح على ولده ؟ فذهب الغلام وعاد إليه يقول :

إنما هى جارية تنوح على بعير أضلته !

وقاية الله

هَمَّت قريش بقتل النبى عليه الصلاة والسلام غيلة بعد أن نصره الله عليهم ببدر وفُجعوا فيمن فجعوا فيه من زعمائهم ، وقد كادوا له كيداً ولكن الله عصمه منهم ، فذهب حامل المكيدة إلى المدينة والغدر ملء ثيابه والختل يخالط دماءه ، وعاد مسلماً متحدياً من أرسله بالكيد لرسول الله ، مجابهاً أعداء الله ورسوله بما يكرهون .

و بطل هذه القصة هو عمير بن وهب الجمحى ، وهو أحد شياطين قريش ، وممن كان يؤذى النبى عليه الصلاة والسلام قبل هجرته أبلغ الأذى وأشده ، وكان ابنه وهب فيمن أسره المسلمون بواقعة بدر .

وحدث أن كان عمير بن وهب يجلس فى الحجر بجوار الكعبة مع صفوان ابن أمية إثر هزيمة قريش ببدر ، فتذاكرا مصابهم ، وعددا قتلاهم ، فقال صفوان ابن أمية وهو أحد من سلم من رؤساء المشركين : ما فى العيش خير بعدهم !

فقال عمير : أما والله لولا دينْ على ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة : ابنى أسير فى أيديهم .

فاغتنم صفوان بن أمية هذه الفرصة النادرة ، وقال :

علىّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شىء و يعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم شأنى وشأنك . قال : أفعل !

وراح عمير إلى سيفه فشحذه وسقاه السم ، وانطلق حتى قدم المدينة ، وذهب إلى المسجد حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام يجلس هو وأصحابه ، فلما وقعت عين عمر بن الخطاب عليه ، قال للنبى عليه الصلاة والسلام : هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : أدخله علىّ ، فذهب إليه عمر بعد أن أمر جماعة من الصحابة أن يلتفوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

ثم أخذ حمالة سيف عمير فطوقه بها ، وجاء به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال الرسول لعمر : أرسله يا عمر ، ثم قال : أدن يا عمير ، فدنا ، ثم قال : عموا صباحاً ، وهى تحية الجاهلية ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام : تحية أهل الجنة .

فقال عمير :

أما والله يا محمد ، إنْ كنتُ بها لحديث عهد ، قال الرسول : فما جاء بك يا عمير !

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم ، فأحسنوا فيه .

قال الرسول : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال : قبحها الله من سيوف ؛ وهل أغنت عنا شيئاً ؟

قال الرسول : أصدقنى ، ما الذى جئت له ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال الرسول : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب(١) من قريش ، ثم قلت : لولا دين علىّ ، وعيال عندى ، لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك ، على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك و بين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

فقِّهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره . ففعلوا .

---

(١) القليب : هو البئر الذى ألقيت فيه قتلى قريش ببدر .

ثم قال عمير : يا رسول الله ، إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى و إلى رسوله صلى الله عليه وسلم و إلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، و إلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم .

فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة .

وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول :

أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان يسأل الركبان عن أخبار عمير حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً .

ولما قدم عمير مكة ، أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير .

أدب وعتاب

وقد أدب الله عز وجل النبى صلى الله عليه وسلم أحسن تأديب ، وعاتبه أجمل عتاب فيما أنزل عليه فى سورة الأنفال ، فقد نزلت كلها فى موضوع غزوة بدر ، وعرض فيها القرآن الكريم لطائفة كبيرة من شئون الحرب ووصف الحالات النفسية التى تعترى المحاربين ، وكيف أمد الله المؤمنين بجند من الملائكة ، ثم عرض القرآن الكريم لمسائل الأسرى والفداء وما أفاده المسلمون فى هذه الموقعة من نصر وعز .

وليس يكمل علم القارىء بهذه الغزوة إلا بتلاوة هذه السورة ، وتفهم معانيها وتبين مراميها ؛ فليرجع إليها القارىء فإنها شفاء للنفوس ، وطمأنينة للقلوب .

معالم واضحة فى غزوة بدر

لا تستطيع أقلام أهل الأرض جميعاً أن تصف ما كان لغزوة بدر من الآثار ، وما ترتَّب عليها من النتائج ، وصفاً يدانى ما وصفها به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قال يناجى ربه وهو فى عريشه يشرف على سير المعركة ويستنجزه ما وعده من نصر :

اللهم ، إن شئت لم تعبد !

ومغزى هذه العبارة واضح جداً ، فهو عليه الصلاة والسلام يقول فى طَىِّ عبارته : إن هزيمة المسلمين فى هذه المعركة ، قضاء على الإسلام ، ومحو لكلمة الله، وأمداد لرجس الشيطان ، وإملاء لعبدة الأوثان .

وقد استجاب الله لرسوله فنصر المسلمين وخذل المشركين ، وأعز الإسلام وكبت عدوه الألدّ الممثّل فى قريش ، وبُهِرَ جميع العرب فى سائر أنحاء الجزيرة العربية بهذا النصر المبين ، وصارت قوة الإسلام أكبر قوة فى الجزيرة ، يُخْشى بأسها ، ويُرْهَب جانبها .

حقائق بارزة

وقد تميزت هذه الموقعة بطائفة من الحقائق البارزة ، يجمل بنا أن نشير إليها إشارات موجزة :

١ — كانت غزوة بدر الكبرى أول غزوة اشترك فيها الأنصار مع النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه من المهاجرين .

٢ — كان النبى عليه الصلاة والسلام يُجَنِّب الأنصار كل عمل من الأعمال التى تتصل بالحرب خارج المدينة ، مثل السرايا ، ومراقبة الأعداء ، وتعرّف أخبارهم .

٣ — لم يكن من بين الشروط التى تمت عليها بيعة العقبة الثانية ، أن يحارب الأنصار مع النبى عليه الصلاة والسلام خارج المدينة، بل كانت الشروط مقصورة على أن يمنعوه مما يمنعون نساءهم وأولادهم ممن يهاجمه فيها ؛ ومعنى هذا أن هذه المحالفة كانت دفاعية لا هجومية .

٤ — لم يكن الباعث الأول على خروج النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، قتال قريش ، وإنما كان غرضهم متجهاً إلى الاستيلاء على تجارتها .

٥ — حرص النبى صلوات الله وسلامه عليه ، على الوفاء بعهده للأنصار ، فلما علم أن هناك احتمال حرب لم يبرم أمراً إلا بعد مشاورة الأنصار وموافقتهم .

٦ — كان إقدام النبى وأصحابه على حرب قريش ، بعد ماتبينوا ما هناك من تفاوت شديد بن القوتين عدداً وعُدَّة ، مثلا أعلى فى الشجاعة والإيمان .

٧ — برهن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الموقعة على أنه قائد حربى من الطراز الأول ، وكانت أعظم خصائصه فى ذلك رفع الروح المعنوية بين المسلمين حتى إنهم لو أمروا بخوض البحار لخاضوها .

٨ — كذلك برهن عليه الصلاة والسلام على أنه خير الناس تعاوناً مع أصحابه ، لا يستبد برأى ولا يأبى نصيحة ؛ ومصداق ذلك ما كان من تغييره موقف جيش المسلمين حين أشير عليه بذلك وتبين صواب المشورة .

٩ — أقام المسلمون من المهاجرين أعظم الأدلة فى تاريخ البشر على شدة تغلغل العقيدة فى نفوسهم ، و بلوغها منهم منزلة تسمو على صلات الرحم والقرابة ؛ فكان الرجل منهم يقتل أباه أو أخاه ، أو عمه أو قريبه من المشركين ، لا تأخذه فيه شفقة أو رحمة .

١٠ — كانت واقعة بدر بداية عهد جديد بين النبى عليه الصلاة والسلام و بين قريش ، ظل قائماً حتى انتهى بفتح مكة و إسلام قريش .

إجلاء يهود بنى قينقاع

كان يهود بنى قينقاع أغنى يهود المدينة جميعا ، لأنهم كانو صاغة، وقد أبطرهم الغنى، وجرفهم الحسد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والتفاف الأنصار حوله عن سواء السبيل ، فبغوا وطغوا وجاهروا الرسول بالعداء ، واستهانوا بحرمات الأنصار .

وقد حدث أن امرأة من الأنصار ذهبت إلى سوق لبنى قينقاع تبيع بضاعة لها ، ثم جلست إلى صائغ فأرادها على أن تكشف وجهها فأبت ، فعمد هذا الخبيث إلى طرف ثوبها فعقده على ظهرها ، فلما قامت تعرى جسمها ، وضحك اليهود منها ،

فصاحت مستنجدة ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وتكاثر اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين فاستجابوا للنداء ، وكان هذا الحادث بدء الشر بين الفريقين .

وقد أراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يخمد هذه الفتنة ، و يعيد حسن الجوار إلى ما كان من طريق الحسنى ، فجمع اليهود فى سوق بنى قينقاع ، وقال لهم :

يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً .

فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغمارا لايعرفون القتال ، إنك والله لو قابلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا !

وأَهَمَّ أمر هؤلاء اليهود رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأنزل الله عز وجل عليه قوله : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء[1] » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام إثر نزول جبريل عليه بهذه الآية : إنى أخاف من بنى قينقاع .

واعتزم حربهم مستنداً إلى ما رخص له الله فيه من ذلك .

وكان بنو قينقاع حلفاء للخزرج ، فلما علم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج ما كان من الإذن فى حربهم تبرأ من حلفهم ، ولـكن عبد الله بن أبى رأس المنافقين استمسك به وقال: أخشى الدوائر ، وهو إنما يبغى من مناصرتهم الـكيد لله ولرسوله ، وقد أنزل الله تعالى فيه قوله :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أولياء بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين ، فَتَرَى الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِن عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِين » .

وسار إليهم الرسول فى جيش كبير يحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصارى ، وذلك فى منتصف شوال من هذا العام ، ولما علم اليهود بمسير الجيش الإسلامى إليهم تبخرت الشجاعة التى كانوا يتبجحون بها وهرعوا ،

(١) الأنفال : ٥٨ .

إلى حصونهم فقبعوا وراءها ، وقد حاصرهم المسلمون حصاراً شديداً لم يستطيعوا الصمد له أكثر من أسبوعين ، فنزلوا على حكم رسول الله ، وقبل فيهم شفاعة حليفهم رأس المنافقين ، فأخرجهم من ديارهم هم وأولادهم ونساؤهم على أن يتركوا جميع أموالهم غنما حلالا للمسلمين .

وقد ذهب بنو قينقاع إثر إجلائهم إلى أذرعات بالشام. ويقول المؤرخون : إنه لم يحل عليهم الحول حتى بادوا جميعاً .

غزوة السويق

وأقام النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة بقية شوال وذى القعدة من السنة الثانية للهجرة ، ثم خرج فى ذى الحجة غازيا قريشاً غزوة السويق .

وكان من حديث هذه الغزوة أن أبا سفيان بن حرب الذى تزعم كفار قريش بعد هلاك رؤسائها فى بدر ، حلف أن لا يمس النساء ولا يغسل بدنه حتى يغزو محمداً لينتقم لقتلى بدر ، فخرج فى مائتى راكب من قريش لِيَبَرَّ يمينه ، ونزل بجيشه على مسافة يسيرة من المدينة ، وتسلل فى الليل حتى أتى سلام بن مِشْكَم ، سيد يهود بنى النضير فاستأذن عليه فأذن له واحتفل به وأمده بخبر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم عاد أبو سفيان إلى جماعته فأرسل نفراً منهم إلى ناحية من نواحى المدينة فحرقوا نخلها ، ووجدوا هناك رجلا من الأنصار وحليفاً له فقتلوهما وفروا هاربين .

وخرج الرسول عليه السلام على رأس فريق من أصحابه فى طلب أبى سفيان ، فسارع فى الهرب وأغذ السير حتى إنه كان يرمى زاده وفيه السويق تخففا فيستولى عليه المسلمون ، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق .

ولم يلحق النبى عليه الصلاة والسلام أبا سفيان فرجع إلى المدينة .

صلاة العيد

فى هذا العام سُنّت صلاة العيدين . والحكمة فيها بينة ظاهرة إذ فيها تواتى المسلمين فرصة الاجتماع بعضهم ببعض ، فيتبادلون التهانى ويذكرون الله كثيراً ، ويتدارسون أمر دينهم ، ويستمعون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وهى كلها آيات بينات ، وعظات بالغات ، ومن بعده خطب خلفائه وصالحى المؤمنين .

زواج على وفاطمة

وفى هذا العام تزوج على بن أبى طالب من السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو بكر وعمر قد خطباها ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أنتظر بها أمر القضاء ، وكأنهما قد فطنا إلى ما يريده ، فذهبا إلى على وحسَّنا إليه أن يخطبها ، وكان إنما يمنعه من ذلك فقره ، ولكنه بعد مشورة الشيخين ذهب إلى الرسول وخطبها فاستجاب له ، وقال للسيدة فاطمة : إن عليًّا قد خطبك ، فقالت : كأنك ياأبت إنما ادخرتنى لفقير قريش ! فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

والذى بعثنى بالحق ماتكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء .

فقالت فاطمة : رضيت بما رضى الله ورسوله .

وكانت سن على عند زواجه واحداً وعشرين سنة ، وسن فاطمة خمس عشرة سنة رضى الله عنهما .

تشريعات مهمة

الزكاة ، صيام رمضان

شُرعت فى هذه السنة طائفة من الشرائع الاجتماعية ذات الصلة الوثيقة بتعاون الجماعة ورفع مستوى الحياة ؛ ففيها فرضت زكاة المال من نقد ومقتنيات الماشية . وقد وضعت على أسس وحدود معينة اشتملت عليها كتب الفقه . ومبلغ ما نستطيع

أن نتحدث عنها فى هذا المقام هو أنها جاءت وفقاً لصالح الطرفين من صاحب مال ومنفَق عليه ، فلا إعنات لذوى المال ولا حرمان للفقير والمحروم .

وفى هذه السنة كذلك فرضت صدقة الفطر أثناء شهر الصوم وقبيل حلول العيد الأصغر ، ليكون فيها توسعة للفقراء وبرًّا بهم فى هذا الوقت المبارك من السنة .

فريضة الصوم

وفرض على المسلمين فى هذا العام صوم رمضان ، والصوم أساس أصيل من أسس التشريع فى جميع الأديان المنزلة من عند الله ، وقد اختلفت صوره ولكن جوهره — وهو رياضة النفس من طريق حرمانها بعض ما تشتهى — ظل قائماً باستمرار فى الأديان السماوية .

السنة الثالثة الهجرية

غزوة غطفان

كانت الجزيرة العربية لا تزال تهيم فى الضلالة وتخوض فى الجهالة ، دأبها الحرب والضرب والنهب والسلب ، وقد لفتت موقعة بدر أنظارها نحو المدينة ، فهمت قبائل كثيرة بغزوها طلباً للمغنم من جهة وأنفة لهزيمة قريش من جهة أخرى .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رهطاً من فروع غطفان قد تجمع تحت رياسة أحدهم واسمه « دُعْثور » وهم ينوون غزو المدينة ، فخرج إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام فى أربعمائة وخمسين رجلا ؛ وذلك فى شهر ربيع الأول من السنة الثالثة ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

ولما سمعت غطفان بمسير رسول الله إليهم ، تفرقت شذر مذر ، وهربت فى رءوس الجبال خوفاً من الجيش الإسلامى الباسل .

وسار النبى عليه الصلاة والسلام قاصداً إلى موطن أعدائه حتى نزل بماء يسمى ذا أَمَر ، فعسكر به وعلم بتفرق أعدائه .

وحدث أن انتحى النبى عليه الصلاة والسلام ناحية ونزع سلاحه ليستريح قليلا، وأصحابه بعيدون ، وكان رئيس غطفان المسمى بدعثور يترقب حركاته من بعد ، فلما رأى انفراده عليه الصلاة والسلام تسلل حتى وقف على رأسه شاكى السلاح ، وقال :

من يمنعك منى يا محمد ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوة نفس وثبات جنان : الله .

وهنا سقط السيف من يد الرجل ، فتناوله النبى عليه الصلاة والسلام ، وقال لدعثور :

من يمنعك منى ؟

قال : لا أحد .

فعفا عنه النبى عليه الصلاة والسلام ؛ وقد أسلم الرجل ودعا قومه إلى الإسلام .

غزو بنى سليم

و بلغ النبى عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من بنى سليم يهم بغزو المدينة ، فسار إليهم فى ثلثمائة من أصحابه فى أوائل جمادى الأولى ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

ولما وصل إلى بحران وجد القوم قد تفرقوا خوفاً وفزعاً ، فرجع إلى المدينة من غير أن يلقى حرباً .

سرية زيد بن حارثة

واغتنام بضائع قريش

لا حياة لقريش إلا بالتجارة ، فعليها معولهم وفيها أرزاقهم ، وقد أضرت بهم مهاجمة المسلمين المستمرة قوافلهم التجارية ، ولذلك عمدوا إلى العدول عن طريق الشام مما يلى المدينة ، وأرسلوا تجارتهم إلى الشام من طريق العراق .

وقد علم النبى عليه الصلاة والسلام أن عيراً لقريش على رأسها أبو سفيان ابن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحو يطب بن عبد العزى ، ستمر بنجد ، فجرد سرية

بر ياسة زيد بن حارثة ، وسارت حتى باغتت القافلة على ماء يسمى « القَردة » ، ففر أبو سفيان ومن معه ، وترك البضاعة فاستولى عليها المسلمون ، وكان بها فضة كثيرة ، وعادت السرية إلى المدينة ومعها غنيمتها .

وكان ذلك فى شهر جمادى الآخرة من هذا العام .

الساعى إلى حتفه

مقتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف رجلا من طيء ، وكانت أمه من يهود بنى النضير ، فنشأ بين أخواله ونبه فيهم حتى أصبح رأساً من رءوسهم ، وكان إلى ذلك شاعراً مجيداً ، وفتى معجباً بنفسه . ولم يكن يسره ما يراه من رسوخ قدم الإسلام بالمدينة وانتشار أمره بها : شأنه فى ذلك شأن اليهود جميعاً . غير أنه قد زاد على بنى جنسه فى البرم بالنبى وأصحابه . فحدث إثر انتصار المسلمين على قريش فى واقعة بدر ، وما كان مِن قتل مَن قُتل من زعماء المشركين وأسر من أسر منهم ومجيئهم إلى المدينة مقرنين فى الأصفاد ، أن كبر ذلك جدًّا على كعب ، فذهب إلى مكة يرثى قتلاها ، طغاتها على الأخذ بالثأر .

ولما عاد إلى وطنه أخذ ينشىء شعراً يتغزل فيه بنساء المسلمين ، حتى آذاهم وثقل عليهم أمره من جميع الوجوه ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : من لى بابن الأشرف ؟

فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله .

ثم استأذن الرسول فى الترخص ببعض القول فأذن له ، فاتفق مع جماعة من أصحابه على تنفيذ خطة محكمة لقتل عدو الله والمسلمين ، وهم :

سلكان بن سلامة ويكنى بأبى نائلة وهو أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة ، وعباد بن بشر ، والحارث بن أوس بن معاذ ، وأبو عبس بن جبر ، وجميعهم من الأنصار .

وأرسلوا إليه أبا نائلة أخاه فى الرضاع ليكون آنس له ، فتحدث إليه فيما أصاب الأنصار من جهد وضنك بسبب إقامة الرسول فيهم ، وطلب إليه أن يبيعه هو وجماعة من إخوانه المعوزين مثله طعاماً برهن .

فقال عدو الله متبجحاً : أترهنوننى نساءكم ؟

فقال أبو نائلة : كيف نرهنك نساءنا وأنت أعطر العرب ؟

قال : فأبناؤكم ؟

قال : كيف نرهنك أبناءنا فتلحقهم السُّبّة طوال حياتهم أنهم رهنوا فى صاع من شعير ! ولكنا نرهنك السلاح . وقد أراد أبو نائلة من اختيار السلاح أن لا يكون فى حملهم إياه عند القدوم إليه ما ينكره .

فقبل كعب ذلك .

وجاءه أبو نائلة ليلا وهو فى حصنه فهتف به ، فقام ملبياً ، فقالت له امرأته وكانت عروساً : كيف تنزل فى هذه الساعة من الليل وأنت محارب ؟

فهون عليها الأمر ، وقال لها : إنه أبو نائلة ولو وجدنى نائماً ما أيقظنى !

ونزل كعب فوجد أبا نائلة فى أصحابه ومعهم السلاح الذين ينوون رهنه ، فتحدث إليهم ساعة ، ثم أدنى أبو نائلة يده من رأس كعب وتحسس عطر شعره ، ثم شم يده وقال : مارأيت كالليلة طيباً أعطر قط ! ثم فعل ذلك مرة ثانية ، وفى الثالثة أخذ رأسه بين يديه ، وقال :

اضربوا عدو الله فتعاوروه بسيوفهم حتى قتلوه .

وأصابت ضربة من سيوفهم الحارث بن أوس بن معاذ فى رأسه فسال دمه غزيراً ، وكان ذلك مما عاقه عن اللحاق بأصحابه ، فانتظروه حتى جاء فى إثرهم وحملوه ورجعوا إلى المدينة ، وقد كفوا الإسلام والمسلمين هذا العدو البغيض .

غزوة أحد

قريش تعد العدة للأخذ بالثأر

كانت لقريش منزلة مفضلة بين العرب فى الجاهلية ؛ إذ كانت قائمة على البيت الحرام ، وكان العرب يحجون إليه كل عام ، و يتعرفون بكبراء قريش بحكم الوفادة ووظائف الحج التى كانت موزعة على قبائل قريش ، وقد هيأت هذه الظروف مجتمعة لقريش مركزاً مفضلا عند العرب ، يشبه أن يكون رياسة من الناحية الروحية على الأقل ، ولذلك قلّت حروب قريش فى الجاهلية ، وأمنت كثيراً من المكاره التى كانت جميع القبائل العربية عرضة لها من الغزو الدائم والحروب المتتابعة ، وقد امتن الله عز وجل عليهم بذلك فقال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذا الْبَيْتِ . الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [(١)] » .

فلما جاء الإسلام وجدَّ الأمر بين الرسول عليه الصلاة والسلام و بين قريش ، وكانت موقعة بدر ونصرة المسلمين وهزيمة قريش ، غضب كثير من العرب لقريش محفوزين إلى ذلك بحكم الحمية الجاهلية ، متأثرين بما لا يزالون مرتبطين به مع قريش من روابط دينية واجتماعية وتجارية ، و يضاف إلى ذلك أن دعوة الإسلام كانت تلقى من معارضة العرب خارج مكة ما لقيته داخلها ؛ إذ شأن الجميع واحد وهو الإصرار على ما كان يعبده آباؤهم من أصنام وأوثان .

من أجل هذا كله وجد نداء قريش بالأخذ بالثأر من محمد وأصحابه ، صدى فى نفوس أحلافها ، وظاهر عليه صعاليك العرب الذين يقتفون أثر المحاربين ليشتركوا فى السلب والنهب ولا يهمهم مَن الغالب أو المغلوب ؛ إنما هم أشبه شىء بالطيور الكاسرة تقع على صرعى الحروب حيث تجدها .

زعامة قريش

وكانت الزعامة فى قريش قد آلت إلى أبى سفيان بن حرب إثر الفراغ الذى خلفه قتلى بدر من زعماء قريش وكبرائها ، فعمد أبو سفيان إلى حمل قريش على

---

(١) قريش : ٣ ، ٤

النزول عن أرباح التجارة التى كانت سبباً فى موقعة بدر — وهى العير التى خرج المسلمون فى طلبها ونفرت قريش لحمايتها — لتنفق هذه الأرباح على الاستعداد للأخذ بالثأر ، وقد قبل أصحاب رءوس الأموال هذا الاقتراح . وكانت أرباح هذه التجارة مقدرة بخمسين ألف دينار ، وهو مبلغ لا يستهان به فى ذلك الزمن .

الأحـــلاف

ومضت قريش تعد العدة وتقتنى السلاح وتجند الرجال ، حتى اجتمع لها ثلاثة آلاف مقاتل يتألفون من قريش ومن أحلافها « الأحابيش » وهم بنو المصطلق وبنو الهون من خزيمة ، وجماعات من أعراب كنانة وتهامة .

طريد الأوس

وكان مع هذا الجمع الحاشد أبو عامر الراهب الأوسى ، الذى فارق المدينة ولحق مكة كراهية للإسلام ومظاهرة لأعدائه عليه ، ومعه نحو خمسين من الأوس ، ذهبوا مذهبه وكفروا كفره .

حشد الشعر والغناء

ولم تغفل قريش أى سلاح من أسلحة الحرب بل استوعبتها جميعاً ، واختصت بعنايتها النواحى الأدبية ، فجاء أبو سفيان إلى أبى عَزّه عمر بن عبد الله الجمحى الشاعر ، وأغراه أن يهجو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فأبى ، وقال : إنه قد مَنَّ على بالفكاك من الأسر يوم بدر من غير مقابل فلا أريد أن أظاهر عليه . ولـكن أبا سفيان ما زال به حتى أخرجه معه وأنطق لسانه بما أراد .

وأقدم أبو سفيان وطائفة من الزعماء على خطة عنيفة تـكره المقاتل على الصبر حتى القتل ، أو يلزمه عار الدهر وسبة الأبد عند الفرار ، وهى أخذ نسائهم معهم فى الحرب ليجعلوا التفـكير فى الفرار أمراً مستحيلا .

وكان عدد النسوة اللاتى خرجن مع قريش من زوجات الرؤساء خمس عشرة امرأة ، على رأسهن هند بنت ربيعة زوج أبى سفيان بن حرب .

ولم ينس القوم أن يخرجوا معهم « جوقة » من الإماء الضاربات على الدفوف ، المنشدات أناشيد الحرب والحماسة ، ليشددن من عزائم المحاربين ، ويُثرن فيهم النخوة والحمية .

آلة الحرب

أما آلة الحرب البحت فقد أعدت قريش لهذه الموقعة سبعمائة دارع يقابلهم مائة من المسلمين ، وسبعمائة فرس يقابلها اثنان عند المسلمين .

آلة جهنمية

وكان من آلة الحرب التى أعدتها قريش ، إعداد وحش آدمى من نوع خاص لقتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وفارس المسلمين انتقاماً منه لما أسلفهم فى بدر من قتل ونكاية ، فقد كان من بين عبيدهم عبد حبشى اسمه « وحشى » مملوك لجبير ابن مطعم ، وكان ماهراً فى رمى الحراب على الطريقة الحبشية ، يرمى الحربة من بعد فلا تخطىء الهدف ، فقال له سيده جبير : إن رميت حمزة فقتلته فأنت حر ، فأخذ العبد يعد نفسه لذلك بزيادة المران ، وكانت هند بنت عتبة التى قتل حمزة أباها تتعهد هذا الوحش بين الفينة والفينة ، وتقول له :

ويها أبا دسمة ، اشْفِ واسْتشف !

وسارت جموع قريش وأحلافها من مكة قاصدة إلى المدينة حتى نزلت بذى الحليفة مقابل المدينة .

كتاب إلى الرسول

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم بخروج قريش من كتاب أرسله إليه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد أسلم وكتم إسلامه وآثر البقاء بمكة ، ولم يخرج مع المشركين فى أحد ، معتذراً بما أصابه يوم بدر .

الرسول يستشير أصحابه

فجمع النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه من المهاجرين والأنصار ،وأرسل فاستدعى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ليحضر المشورة كى لا يحتج بإهماله فى مثل هذا المقام الخطير فيطلق لنفاقه العنان ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى استدعاه الرسول فيها .

ولما التأم الجمع وعُرض موضوع الحديث ، رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يبقى المسلمون فى المدينة ، وكان يعجبه أن يدخل عليه الأعداء فيقاتلوا فى الأزقة فتنكشف مقاتلهم للمسلمين ، وكان مما قاله عليه الصلاة والسلام :

« فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، و إن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » .

وكان هذا هو الرأى ، ولو أن المسلمين أخذوا به لتغيرت نتيجة الموقعة ، ولأصاب المشركين من الفشل والهزيمة ما أصابهم من ذلك فيما بعد فى غزوة الأحزاب .

ولكن نفراً من المسلمين ممن كتب الله لهم الشهادة ، وجلهم من الشبان التواقين إلى البلاء فى سبيل الله والانتصار لدينه ، وآخرين ممن فاتهم الجهاد يوم بدر حيث تخلفوا عن الخروج مع الرسول عليه الصلاة والسلام لظنهم أنه لن يلقى حرباً — آثروا الخروج للقاء المشركين على البقاء بالمدينة كما أشار به الرسول ، وقد قال قائلهم :

يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جَبُنّاَ عنهم وضعفنا !

وأشار عبد الله بن أبى بن سلول بما أشاربه الرسول عليه الصلاة والسلام وكان مما قاله :

يارسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، و إن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، و إن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

الشباب يتغلب

وانتهت جلسة المشورة هذه بغلبة الرأى القائل بالخروج لكثرة أنصاره ، وشدة حماسة قائليه ؛ وكان معظمهم من الشبان التواقين للجهاد ، المرحبين بالاستشهاد .

النبى يلبس لباس الحرب

وكان اليوم الذى حدث فيه هذا الاجتماع يوم الجمعة الموافق الرابع عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة ، ولما انتهى الرأى إلى الخروج دخل النبى عليه الصلاة والسلام داره فلبس لباس الحرب وضاعف بين درعين ووضع لأمته وخرج .

وكان بعض ذوى الأسنان من المسلمين قد أدركوا وجاهة رأى النبى عليه الصلاة والسلام ، وأحسوا الحرج الذى انساقوا إليه بحمل الرسول على أن يعمل بغير ما رأى ، فحين خرج عليه الصلاة والسلام بلباس الحرب ندموا ، وقالوا : بئس ما صنعنا ، نشير على رسول الله والوحى يأتيه ، ثم قاموا فاعتذروا إليه ، وقالوا : اصنع ما رأيت .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل ، وكان أن خرج من المدينة فى ألف رجل وقد وعدهم بالنصر إن صبروا .

عرْض الجيش

ولما بلغ الرسول مكان الشيخين[1] ، عرض الجيش فرد الأحداث ، وكان ممن ردهم رافع بن خديج لصغر سنه ، فقام على خفين له فيهما رقاع ، وتطاول على أطراف أصابعه ليظهر فى مستوى الرجال ، فأجازه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما فعل ذلك تقدم سَمرة بن جندب ، وهو ممن كان النبى أخرجه لصغر سنه ، يطلب إجازته هو كذلك لأنه أقوى من رافع بن خديج وفى إمكانه أن يصرعه ، فطلب إليهما

(١) مكان بضاحية المدينة عنده حصنان لشيخين من اليهود .

أن يتصارعا ، فصرع سمرة خديجا ، فقبل النبي الاثنين معا ؛ وكانت سنهما خمس عشرة سنة .

ونظم الرسول عليه الصلاة والسلام الجيش ، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب ابن عمير ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن حضير .

المنافقون ينسحبون

وظل الجيش الإسلامى بمكانه ، ثم سار سحراً حتى إذا بلغ الشوط ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، رجع عبد الله بن أبى إلى المدينة ومعه ثلثمائة من المنافقين ، وقال يبرر خيانته :

عصانى وأطاع الولدان فعلام نقتل أنفسنا ؟ !

وقد استنكر المسلمون هذه الخيانة ، وانبرى لابن أبى ، عبد الله بن عمرو ، قائلا له ولأوشابه :

ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم و نبيكم .

قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال !

فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى عنكم نبيه .

وقد كادت الفعلة الشنعاء التى فعلها رأس المنافين تفتن طائفتين من الأنصار ، هما : بنو حارثة من الخزرج ، و بنو سلمة من الأوس ، إذ همَّا بالرجوع ولكن الله عصمهما فثبتا مع المسلمين .

سبعمائة مسلم

ومضى النبى عليه الصلاة والسلام بالجيش وقد صار عدده بعد انسحاب المنافقين سبعمائة رجل ، حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ووجهه إلى المدينة .

مكان الرماة

ووضع الرماة فى أصل الجبل فى وجوه خيل المشركين وكان عددهم خمسين رامياً ، وقال لهم :

لاتبرحوا مكانكم إن رأيتم قد هزمناهم ، فإنا لا نزال غالبين ماثبتم مكانكم ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير ، و بعث ناساً فكانوا وراء الجيش ، وقال لهم : كونوا هاهنا فردوا وجه من فرّ منا ، وكونوا حرساً لنا من قبل ظهورنا .

وأمر صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام أن يكون فى مواجهة ميمنة المشركين ، وأرسل رجالا آخرين من ذوى البأس فكانوا مواجهين لميسرتها .

هدى الروح الأمين

و بعد أن أكمل النبى عليه الصلاة والسلام تعبئة الجيش ، قال :

لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال . ثم خطب المسلمين يحثهم على الصبر والثبات ويرغبهم فى لقاء الله ، وكان مما قاله :

ألقى فى قلبى الروح الأمين ، أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ، لا ينقص منه شىء و إن أبطأ عنها ، فاتقوا ربكم وأجملوا فى طلب الرزق ، لايحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده .

تعبئة قريش

وعبأت قريش جيشها ، فجعلت على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل . وأقبل أبو سفيان يحمل تمثالا لصنمى اللات والعزى ، ووقفت خلفه زوجه هند وحولها النسوة والإماء يضربن على الدفوف ، وينشدن صائحات :

نحن بنات طارق إن تقبلوا نعانق
ونبسط النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

أبو سفيان يساوم الأنصار

وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : مالنا فى قتالكم حاجة ، فخلّوا بيننا وبين ابن عمنا ، فردوا عليه ردًّا شنيعاً أخزاه .

الراهب الفاسق

ونادى أبو عامر الراهب الأوسى وهو فى صفوف قريش الأنصار — وكان قد منَّى قريشاً بانضمام قومه إليه متى التقت الوجوه — فقال : يامعشر الأوس ،أنا أبو عامر . قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق !

فلما سمع ردهم قال : لقد أصاب قومى بعدى شر ! وكان هذا الفاسق من أشد المحار بين ضراوة وأشنعهم عداوة للمسلمين .

بدء القتال

وقد ابتدأ القتال بأن برز طلحة بن عثمان ، صاحب لواء المشركين ، وقال :

يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة ، أو يعجلنى بسيفه إلى النار ؟

فقام إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : والذى نفسى بيده ، لا أفارقك حتى أعجلك بسيفى إلى النار أو تعجلنى بسيفك إلى الجنة ، ثم ضربه فقطع رجله ، فسقط فانكشفت عورته ، فقال : أنشدك الله والرحم يا ابن عم ! فتركه ، وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أمر بالهجوم

وأمر الرسول الكريم المسلمين بالهجوم ، فهجموا عليهم هجمة صادقة ، زلزلت صفوفهم وهدت كيانهم ، وكان المسلمون رجال صدق فى اللقاء ، وأسود غاب فى النزال ، وكان منهم أبطال معلمون وفرسان مبرزون ، فانصبوا على المشركين

انصباب الصواعق ، وطرقوهم طرق المطارق ، منهم أسد الله : حمزة بن عبدالمطلب فقد صال وجال و بطش واستطال وزلزل الصفوف وأرغم الأنوف ، ومُنِيَ المشركون منه بداهية دهياء وقارعة نكراء ، و بينما هو ماض قدُماً يطيح الرءوس و يحصد النفوس إذ بالعبد وحشى يترصده و يتحيّن انهماكه فى قتل سباع بن عبد العزى ، حامل لواء قريش ، فيرسل حربته فتصيب أسفل بطنه وتخرج من بين رجليه . و يبصر أسد الله راميه ، فيهجم عليه يريد الفتك به ولكن قدميه تخونانه فيخر صريعاً كما تخر الجبال أو تهوى الكواكب .

أصحاب البلاء

ومن أبلوا بلاء حسناً فى هذه المعركة : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وأبو دجانة : سِمَاك بن خَرَشة ، وعاصم بن ثابت ، وحنظلة ابن أبى عامر ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وقتادة بن النعمان ، وغيرهم كثيرون .

انهيار صفوف قريش

ولم تتحمل جنود المشركين قوة الحملة الصادقة التى رجهم بها أبطال الإسلام ، وامتحنهم بها جنود الله فانهاروا انهياراً تاما ، وكثر فيهم القتل حتى قتل على بن أبى طالب خمسة من حملة لوائهم الواحد إثر الآخر ، وانكشفوا عن المعسكر وأخذت النساء فى الهرب ، وكادت الهزيمة تكون ، لولا ما سبق فى علم الله من امتحان المسلمين و إكرام بعضهم بالشهادة العظمى .

الرماة المسلمون يخذلون جيشهم

فقد حدث حين رأى رماة المسلمين هزيمة المشركين ، أن تركوا أماكنهم ليشاركوا غيرهم فى جمع الأسلاب وحيازة المغانم ، مخالفين بذلك الأمر الكريم الذى أمرهم به الرسول ؛ وهو عدم مبارحتهم أمكنتهم مهما تكن النتيجة : إن نصراً

وإن هزيمة ، ناسين ما ألقاه الرسول عليه الصلاة والسلام على أكتافهم من تبعات جسام عند التعبئة حيث قال لهم : لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم .

وقد حاول عبد الله بن جبير ، رئيس الرماة ، أن يمنعهم من مخالفة أمر الرسول فلم يسمعوا له ، ومضى أكثرهم يشارك فى جمع المغانم ، فثبت هو ونفر قليل معه .

خيالة المشركين تنتهز الفرصة

ورأى خالد بن الوليد قائد خيالة المشركين أن ظهر الجيش الإسلامى قد كشف بما فعله الرماة ، فهجم على البقية الباقية منهم وأزالها عن مكانها ، وقتل رئيس الرماة ، وجاء المسلمين من خلفهم فحمل عليهم هو وخيالته فزلزل صفوفهم ، وأشاع الفوضى فيها حتى كانوا يقاتلون بعضهم بعضا ؛ لتعذر التفرقة فى هذه الحال بين العدو والصديق ، وهكذا تبدل الموقف بالنسبة للمسلمين من نصر لا شك فيه إلى فوضى سائدة ، فهزيمة منكرة .

وكان لواء المشركين قد ألقى على الأرض أثناء هجمة المسلمين الصادقة على المشركين بعد أن قتل المسلمون حملته ، وشغل المشركون عنه بما كانوا مستغرقين فيه من فشل وهزيمة ، فلما رأت إحدى نسائهم ما كان من نكاية خالد بن الوليد بالمسلمين ، دلفت إلى مكان اللواء ورفعته لتعلن قومها المنهزمين بما حدث من تبدل فى سير المعركة ؛ فجمعوا شتاتهم وتنادوا بالكرّة ، ويمموا شطر اللواء فالتفوا حوله ، ثم كروا على المسلمين فأزالوهم عن أماكنهم : وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً وتمثيلا ، حتى أصبحوا بين قتيل وجريح ، وهائم على وجهه فى الصحراء .

انكشاف موقف الرسول

وكان من جراء ذلك أن انكشف موقف الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما أن وقعت عليه أبصار المشركين حتى غلت فى عروقهم دماء الحقد عليه ، فاتخذوه غرضاً لسهامهم ، ولم يكن فيما حدث من تغير فى الموقف وتعرض للخطر المحقق

ما من شأنه أن يؤثر فى نفس الرسول الزكية ، أو يحمله على مبارحة مكانه قيد أنملة ؛ بل وقف صلوات الله وسلامه عليه ثابتاً كالطود ، راسخاً كالعلم ، لا تهوله الأحداث على تعاظمها ، ولا تنال منه الخطوب على تفاقمها ، فما أعظم وما أكرم ، وما أجل وما أفخم ، صلى الله عليه وسلم .

وثبت مع الرسول جماعة من المسلمين ، آثروه على أنفسهم وقدموا أرواحهم فداء له ، منهم على بن أبى طالب ، وأبو طلحة الأنصارى ، وسعد بن أبى وقاص وأبو دجانة : سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف . وكلهم أبلى فى الدفاع عن رسول الله أعظم البلاء ، وكانت أجسامهم لجسمه الشريف خير وقاء .

فأما أبو دجانة ، فإنه جعل من جسمه ترساً يقى جسم الرسول السهام التى كانت توجه صوبه ، فأعطى ظهره لرماة المشركين ، وانحنى فوق الرسول إمعاناً فى وقايته ، وحرصاً على أن لا يظل أى جزء من جسمه الشريف غرضاً للإصابة حتى ملأت السهام ظهره وهو ثابت لا يتزعزع ، صامد لا يتزحزح .

وأما أبو طلحة الأنصارى فإنه كان رامياً مصيباً ، وداهية فى الحرب أريباً ، فوقف بين يدى الرسول ووقاه بحجفته ، ثم نثر كنانته وراح يرمى المشركين ، ويقول: وجهى لوجهك فداء ، وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لكل من معه نبل : انثرها لأبى طلحة ، وجعل أبو طلحة كلما رأى الرسول يتحول قليلا عن الجدار الآدمى الذى نصبه المسلمون الملتفون حوله من أجسامهم ، ليطلع على حركات الأعداء وموقع السهام منهم ، يقول له :

بأبى أنت وأمى ، لا تنظر يصيبك سهم من سهام الأعداء ، نحرى دون نحرك .

أما سعد بن أبى وقاص ، فإنه كان كذلك يرمى المشركين بالنبل دفاعاً عن رسول الله ، وكان الرسول يقول له : ارم سعد ، فداك أبى وأمى !

وتقدم خمسة من شباب الأنصار باعوا أنفسهم لله ، فدافعوا هجمة المشركين على الرسول ، واستشهدوا جميعاً واحداً إثر واحد ، وكان آخرهم زيادة بن الحارث ، فلما

أثخنته الجراح وأشرف على الموت، وسَّده الرسول قدمه حتى فاضت روحه مكانه هذا .

وخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام حجر رماه به عتبة بن أبي وقاص ، أصاب فمه فكسر رباعيته ، فانقض حاطب بن أبي بلتعة على هذا الجانى الأثيم فقتله .

وتقدم عبد الله بن شهاب الزهرى فشج الرسول فى جبهته ، ثم جاء ابن قَمِئَة فجرحه فى وجنته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر فيها ، فانتزعهما أبو عبيدة ابن الجراح فسقطت ثنيتاه صلى الله عليه وسلم .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليسقط فيها المسلمون ، فسقط الرسول فى واحدة منها ، فأخذ على بن أبى طالب بيده ، ورفعه أبو طلحة حتى استوى قائماً ، ومصَّ مالك بن سنان الدم من وجه الرسول وابتلعه ، فقال عليه الصلاة والسلام : من مَسَّ دمى دمه لم تصبه النار .

وبينما كان دم الرسول يسيل على وجهه قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله قوله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ [١] » .

وفى هذا الوقت العصيب ، وعلى حين أجهد النفر القلائل الذين ثبتوا مع الرسول وتلاشت قواهم أقبل أُبَىّ بن خلف أحد طغاة قريش ، يريد قتل الرسول ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، فأراد بعض الصحابة أن يتصدى له ، فقال عليه الصلاة والسلام : خلوه ، ثم أخذ الحربة من الحارث بن الصّمة أحد أصحابه الثابتين معه ، وانتفض بها انتفاضة تطاير معها أصحابه من حوله تطاير الذباب عن ظهر البعير إذا انتفض به ، ثم استقبل عدوه فطعنه بالحربة طعنة فى عنقه ألقته من على ظهر فرسه إلى الأرض يتدحرج مراراً ، ورجع إلى قومه خائفاً مذعوراً يشكو الموت وهم يقولون : ما بك من بأس ، فيجيبهم : والله لو بصق علىّ محمد لقتلنى ! [٢] .

---

(١) آل عمران : ١٢٨ .

(٢) وبيان ذلك أن أبيا كان يلقى النبى عليه السلام بمكة قبل الهجرة فيقول له : يا محمد عندى فرس أعلفه جيداً لأقتلك عليه ، فكان الرسول يجيبه : بل أنا الذى أقتلك إن شاء الله .

وقد صدق ، فقد مات عدو الله فى قفول المشركين إلى مكة قبل أن يصل إليها ، ولم يقتل رسول الله بيده غيره طوال حياته الشريفة .

وكان مما فت فى عضد المسلمين وزادهم غمًّا على غم وكرباً على كرب ، فقدانهم الاتصال بالرسول وهتاف المشركين بأنهم قتلوه ، وكان الذى أطلق هذه الإشاعة عدو الله ابن قمئة ، فقد قتل مصعب بن عمير حامل راية المسلمين وهو يدافع عن رسول الله وتوهم أنه قتل الرسول نفسه ، فراح يهذى بوهمه ويملأ ما ضغيه فخراً بما ظن أنه قد فعل ، فلما أطبقت هذه الإشاعة على جو المعركة ولم يكن هناك لدى المسلمين المتفرقين أيدى سبا ما ينقضها ، انهدت نفوسهم ، وخارت قواهم ، وزلزلوا زلزالاً شديداً

ووقف جماعة من المسلمين بعيداً عن الميدان فيهم عمر بن الخطاب ، فانتهى إليهم أنس بن النضر أحد أبطال الأنصار ، وقال لهم : ما يجلسكم ها هنا ؟

قالوا : قتل رسول الله !

فقال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم هجم على المشركين فقاتل حتى قتل . رحمه الله من مسلم غيور ، و بطل جسور .

البشرى السعيدة بنجاة الرسول

وكان أول من اكتشف أن رسول الله فى عصمة من كيد المشركين وأنه لا يزال بنعمة الله حيًّا ، كعب بن مالك الأنصارى ، و يقول كعب يصف ذلك :

عرفت عينيه تُزْهران[1] تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتى :

يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ، فأشار إلى الرسول : أن انصت .

والحكمة فى إشارة الرسول هذه أن لا ينتشر خبر نجاته فيبلغ المشركين فيجددوا محاولة الكيد له وما يزال الصحابة متفرقين .

ولما استيقن المسلمون من نجاة الرسول هرعوا إليه والتفوا حوله ، ونهض ونهضوا

(١) تزهران : أى تضيئان .

معه، يقصد إلى أحد الشعاب ليتحصن بها ومعه أبو بكر وعمر وعلى وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصّمة فى رهط من المسلمين .

ولمح عثمان بن عبد الله بن المغيرة الرسول أثناء تحركه ، فشد عليه يريد قتله وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد . فشاء الله العزيز القدير أن يتردى به فرسه فى حفرة فيخف إليه الحارث بن الصمة ، فيقتله و يرسله إلى جهنم و بئس المصير .

ولما استقر الرسول عليه الصلاة والسلام بالشعب جاءت ابنته فاطمة ، فغسلت وجهه بالماء ، وأزالت عنه الدم . وكان علىّ يصب الماء على وجهه الكريم ، ثم أخذت فاطمة قطعة من حصير فأحرقتها وجعلت ترابها على الجروح فتوقف الدم عن السيلان .

ورأى النبى عليه الصلاة والسلام جماعة من المشركين يقفون على ظهر الجبل أعلى الشعب الذى كان فيه ، فقال : لا ينبغى لهم أن يعلونا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك . فنهد إليهم عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين فأجلوهم عن مواقعهم .

وأشرف أبو سفيان على القوم وهو لا يُثْبِتهُم [1] رؤية ، فقال :

أفى القوم محمد ؟

فقال الرسول : لا تجيبوه .

فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟

فقال الرسول : لا تجيبوه .

فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟

فقال الرسول : لا تجيبوه .

فالتفت أبو سفيان إلى أصحابه ، وقال : أمّا هؤلاء فقد قتلوا ، لو كانوا فى الأحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن قال :

كذبت يا عدو الله ، قد أبقى الله لك ما يخزيك .

---

(١) لا يثبتهم : أى لا يتحقق رؤيتهم .

فقال : أُعْلُ هُبَل .

فقال الرسول : أجيبوه . قالوا بماذا نجيب ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل .

فقال أبو سفيان : لنا العُزَّى ولا عزى لكم .

فقال الرسول : أجيبوه . قالوا ما ذا نقول له ؟ قال : قولوا له :

الله مولانا ولا مولى لكم .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، وموعدكم بدر العام المقبل .

ثم نادى أبو سفيان عمر بن الخطاب قائلا : هَلُمَّ يا عمر .

فأذن له الرسول أن يأتيه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟

فقال عمر :

اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

فقال : أنت أصدق عندى من ابن قميئة وأبرُّ .

وكانت قريش قد بلغ بها التسفل حدًّا شنيعاً ، فقد مثّلت بالقتلى ، فصلمت الآذان ، وجدعت الأنوف ، وبقرت البطون ، وعمدت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان إلى بطن حمزة بن عبد المطلب ، فبقرته وأخرجت كبده ولاكت قطعة منها . وقبل أن ينصرف أبو سفيان من موقفه الأخير قال : إنكم ستجدون فى قتلاكم مُثْلَة ، لم آمر بها ولم تسؤنى !

ثم انصرف المشركون عائدين إلى مكة .

الشهـــداء

وقد استشهد فى هذه الموقعة بضع وسبعون رجلا من المسلمين منهم ، من المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير . ومن الأنصار : حنظلة بن أبى عامر ، وعمرو بن الجموح ، وابنه خلاد بن عمر ، وسعد بن الربيع .

وكان بعض أهل القتلى قد هموا بحمل موتاهم ليدفنوهم بالمدينة ، فنهى النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك ، وأمر بدفنهم موضع استشهادهم .

وقد حزن الرسول الكريم حزناً شديداً على وفاة عمه حمزة بن عبد المطلب ، ثم عاد إلى المدينة إثر الفراغ من دفن الشهداء .

الهالكون

وقتل من قريش فى معركة أحد ، اثنان وعشرون قتيلا ، بينهم جماعة من طغاة قريش مثل: طلحة بن أبى طلحة حامل لواء المشركين ، وعثمان بن أبى طلحة ، وهشام ابن أبى المغيرة ، والوليد بن العاص .

غلطة حربية تنجى المسلمين

كان انصراف قريش من أحد مكتفين بما أصابوا من الثأر موضع العجب . ولم يكن مما يتفق وأصول الحرب أن يرجع الجيش الغالب من غير أن يتعقب الجيش المغلوب فيجهز عليه ، ولكن إرادة الله عز وجل قد سبقت بعصمة رسوله ونصرة دينه ، فصرفت قريشا عن تدبير الحرب الصحيح ، وجعلتهم يقنعون بما حصلوا عليه من النصر و يقفلون راجعين .

ولم يفت المعنى الذى ذكرناه من انصراف قريش فى إثر انتهاء المعركة ، النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يخشى أن تعيد الكرة على المسلمين ؛ ومن أجل ذلك أدنى على بن أبى طالب وهو فى مكانه الذى لجأ إليه بعد انتهاء المعركة ، وأسر إليه أن ينظر هل يركب المشركون عند انصرافهم الخيل أو الإبل ؟ فإنهم إذا ركبوا الخيل كان معنى ذلك أنهم سيقصدون إلى المدينة للاستيلاء عليها ، أما إذا ركبوا الإبل وجَنَّبُوا الخيل فإنهم سيعودون إلى مكة .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام لعلى : أى ذلك كان ، فاخفه حتى تأتينى .

قال على رضى الله عنه: فلما رأيتهم قد توجهوا إلى مكة ، أقبلت أصيح، ماأستطيع أن أكتم الذى أمرنى به الرسول عليه الصلاة والسلام لما بى من الفرح .

غزوة حمراء الأسد

وعلى الرغم من عودة النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فإنه لم يمكث بها إلا ليلة واحدة ، ونادى مناديه فى اليوم التالى لمقدمه فى الناس بالنفرة فى طلب العدو ، على أن لا يخرج من الصحابة إلا من شهد أحداً منهم ، وسار بالجيش حتى بلغ حمراء الأسد فعسكر بها وهى على بعد ثمانية أميال من المدينة .

والحكمة فى هذا التدبير الحربى ظاهرة ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يتوقع دائماً أن يعيد المشركون الكرة على المسلمين ، طبقاً لما هو واضح من سياسة الحرب ، ذلك إلى أنه قد يكون من مقاصده الشريفة فى اتخاذ هذا التدبير صرف من أصابتهم مصائب أو جراحات فى موقعة أحد عن التفرغ للحزن على مصابهم ، أو أن يفهم قريشاً والعرب من ورائها بأن القوة الإسلامية لا تزال قوية قادرة على دحر العدو الذى توسوس إليه نفسه بخلاف ذلك تأثرا بما مُنِيَتْ به من خسائر فى موقعة أحد .

وقد أتى هذا التدبير الحكيم ثمره من جميع الوجوه ؛ فقد حدث ما كان يتوقعه الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أسف قريش على ما فاتها من الإجهاز على المسلمين ودخول المدينة ، وأدركت أنها أخطأت خطأ حربيًّا فاحشاً ، فاعتزمت تدارك ما فاتها ، وقررت العودة إلى المدينة عندما بلغت الروحاء ، وعلى ذلك عسكرت فيها تأهباً لإعادة الكرة .

نصير من غير الدين

وبينما النبى عليه الصلاة السلام فى معسكره بحمراء الأسد ، مرّ به ركب من خزاعة على رأسه معبد الخزاعى وهو مشرك ، وكانت خزاعة كلها : مسلمها ومشركها تميل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، تناصحه وتوافيه بالأخبار ، وتحب له النصر على قريش ، وقال معبد للنبى :

أما والله يا محمد ، لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله كان أعفاك منهم .

ثم خرج معبد من عند الرسول وسار حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقالوا : أصبنا جَدَّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، لنَكُرَّنَّ على بقيتهم فَلْنَفْرُغَنَّ منهم .

فلما رأى أبو سفيان معبدا ، قال ما وراءك يا معبد ؟

قال معبد : ورائى أن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، وهم مملوءون حنقاً عليكم ، ورغبة فى التشفى منكم .

قال أبو سفيان : ويلك ما تقول !

قال معبد : والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصى الخيل .

قال أبو سفيان : لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم .

قال معبد : فإنى أنهاك عن ذلك ، فوالله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً من الشعر .

ثم أنشده أبياتاً ارتجلها ، فيها تهويل لجيش الرسول ، وتفخيم لشأن المسلمين ، وإنذار لقريش بالويل والثبور ؛ فثنى ذلك أبا سفيان عن عزمه وواصل السير إلى مكة .

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

ولما كان النبى عليه الصلاة والسلام فى وجهه إلى حمراء الأسد ظفر بأبى عزة الجمحى ، الشاعر الغادر الذى من عليه الرسول بالإطلاق من الأسر فى واقعة بدر من غير فدية ، وشرط عليه أن لا يظاهر عليه أحداً ولكنه خان وغدر — على ما مر ذكره

فى واقعة أحد — فأمر النبى عليه الصلاة والسلام بضرب عنقه ، فتضرع إليه أن يعفو عنه مرة أخرى فأبى ، وقال : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين !

عودة الرسول إلى المدينة

وظل الرسول عليه الصلاة والسلام معسكراً بحمراء الأسد ثلاثة أيام حتى جاءه رسول من معبدالخزاعى يخبره بما كان منه مع قريش، وكيف أنها قد أخذت بما هوّل لها من جيش محمد وعظم استعداده فرجعت إلى مكة ، وحينئذ قفل الرسول عليه الصلاة والسلام راجعاً إلى المدينة .

وقفة لا بد منها على معالم أحد

ابتلاء وعزاء

إن تكن الرسل قد أُمدّت بالمعجزات فى بعض المقتضيات ، فإن إرادة الله عز وجل ، منبى النبيين ومرسل المرسلين ، قد شاءت أن تمضى عامة شئون رسله مجرى السنن الطبعى ، فيتداولها الخير والشر وتتعاورها الهزيمة والنصر ليبرز مناط التكليف بعد أن يختار الله إلى جواره من شرفهم بتبليغ رسالته ، إذ مما هو واضح أن المعجزات خصوصيات لهم والخوارق إنما تحدث فى حياتهم ، ثم يكون أن تستقر الأمور على الهدى العام الذى شرعه الرسل ، وحسب ما تقضى به قوانين الكون ، وتوحى به توجيهات العقل والمنطق ، وتكشف عنه التجربة ، وينتهى إليه الاجتهاد .

ولقد كانت غزوة أحد مُثلا معبرة أبلغ التعبير وأوضحه عن المعانى التى أسلفناها من اقتضاء إرادة الله سبحانه وتعالى أن تمضى سياسة المؤمنين وفقاً لقوانين الكون ، وجرياً على سنن الطبيعة ؛ حتى لا يفتنوا عن أنفسهم ، ولا يخدعوا عن حقيقتهم ، ولكى لا يكلوا أمورهم دائماً إلى المعجزات والخوارق ، فيخرجوا على حكم الله فى خلقه ، و ينحرفوا عن سنة الله فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

كانت غزوة أحد — والشأن على ما قدمنا — درساً بليغاً للمسلمين أفادوا منه فوائد جمّة ، وحصلوا منه على عبر كثيرة ، وكان أهم ما أفادوه وأبلغ ما وعظوا به أنهم — أولا وآخراً — بشر مثل سائر الناس ، وأن كون الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم لا يعفيهم من العمل والاجتهاد ، ولا يكفل لهم النصر إن هم سلكوا مسالك الهزيمة ؛ بل إن النبى عليه الصلاة والسلام نفسه إنما هو بشر مثلهم يجرى عليه ما يجرى عليهم وهو عرضة لمثل ما يصيبهم من أنواع المحن ، وضروب الابتلاء :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ »[١] .

لقد رسم الله ورسوله للمسلمين خطة النصر ، وكشف لهم عن وسيلة الفتح ، ثم وكلهم إلى أنفسهم فى اتباع هذه الخطة أو الانحراف عنها على قدر ما يجرى عليه مناط التكليف ، ولقد سمعوا وأطاعوا أول الأمر فكان النصر حليفهم ، ولكنهم فتنوا حين أغراهم النصر الأول بالجنوح عن الطاعة ، فترك الرماة مواضعهم التى حددها لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال لهم لا تتركوها نصرنا أو هزمنا ، وذلك لكى يشتركوا فى جمع الأسلاب ، ويأخذوا بحظهم من المغانم ، فكانت الكرة على المسلمين بسبب هذه الفعلة الشنعاء .

ولقد أنزل الله فى يوم أحد قرآناً كريماً اشتملت عليه سورة آل عمران ، وصف المولى عز وجل فيه خلجات النفوس وخفقات القلوب ، وعاتب المسلمين على ما فرط منهم ، وأدبهم أدباً إلهياً عظيما ، وعزاهم عزاء كريماً ، فقال تعالى :

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

---

(١) آل عمران : ١٤٤

النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(١) » .

ثم وعدهم بالنصر إذا صدقوه الإيمان وأخلصوا فى طاعة الرسول :

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢) » .

ثم أتم الله نعمته على المسلمين حين أكرمهم بالعفو عما كان منهم من زلل، فقال :

« وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ(٣) » .

أخبار اجتماعية

ونجمل هنا أخبارًا اجتماعية وقعت فى السنة الثالثة من الهجرة ؛ ففيها زوّج النبى صلى الله عليه وسلم ابنته السيدة أم كلثوم من عثمان بن عفان ، بعد أن ماتت زوجه السابقة السيدة رقية بنت الرسول عليه الصلاة والسلام أثناء غزوة بدر ، وقد كان عثمان يلقب بذى النورين لأنه تزوج اثنتين من بنات الرسول عليه الصلاة والسلام .

وتزوج الرسول عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، بعد أن توفى زوجها خنيس بن حذافة السهمى متأثراً بجرح أصابه فى بدر .

وتزوج الرسول كذلك زينب بنت خزيمة الهلالية ، بعد أن توفى زوجها عبد الله ابن جحش فى موقعة أحد ، وكانت تدعى فى الجاهلية : أم المساكين ، لكثرة برها الفقراء ، وإحسانها إلى المساكين .

وفيها ولد الحسن بن على بن أبى طالب — وأمه فاطمة بنت الرسول — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) آل عمران : ١٣٩ .

(٣) آل عمران : ١٥٢ .

وفى هذه السنة حُرِّمت الخمر ، وكانت شائعة بين العرب يتباهون بشربها ، ويعدونها من أسباب المجد والفتوة . وقد تدرج الشارع فى تحريمها مراعاة لذلك ، فكان أول ما نزل بشأنها قوله تعالى :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ(١) » .

فشربها بعد ذلك بعض وتركها بعض ، فلما حدث أن سكر بعض المسلمين وصَلَّى فخلط فى قراءته القرآن ، نزل قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ(٢) » .

فامتنع المسلمون من الصلاة وهم سكارى .

وحدث بعد ذلك أن سكر أناس من المسلمين فتلاحوا فيما بينهم ، واعتدوا على بعضهم البعض ؛ فأنزل الله فيها تحريماً قاطعاً ، قال سبحانه وتعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(٣) » .

السنة الرابعة الهجرية

غدر وخيانة

أسلفنا أن السواد الأعظم من العرب كان لا يزال مشركا ، وكان إلى جانب شركه غير مسالم للإسلام ، بل كان حريصاً على الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) البقرة : ٢١٩ .

(٢) النساء : ٤٣ .

(٣) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

مملوءاً حقداً عليه ، يحار به بجميع الوسائل لا يستثنى عذراً أو خيانة ، ولا يتحرج من كذب أو نقيصة .

وسنقص فيما يلى نبأ حادثين من أشنع حوادث الغدر الوضيع الذى راح ضحيتهما رهط من خيرة الصحابة ، وباء بإثمهما من ارتكبوهما من صعاليك الأعراب وأوغادها .

خيانة الرجيع

قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام فى شهر صفر من هذه السنة رهط من عَضَل[1] والقارَة ، وقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك ، يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام ، فبعث معهم الرسول عليه الصلاة والسلام عشرة من خيرة الصحابة ، خرجوا بهم قاصدين إلى منازلهم ، فلما بلغوا الرجيع[2] غدروا بهم ، ودلوا عليهم قبيلة هذيل ، وهم يعلمون أن لهذيل ثأراً عند المسلمين !

وبينما كان الصحابة فى رحالهم ، رأوا هذيلا تحيطهم بسيوفها ، فعمدوا إلى سيوفهم فاستلوها ، وصعدوا جبلا هناك ليتحصنوا به ، فقالت لهم هذيل : ما بنا إلى قتلكم من حاجة ، إنما نريد أن نصيب بكم شيئاً من قريش ، فانزلوا ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم .

وقد أبى جماعة من الصحابة أن يقبلوا عهداً من مشرك ، وآثروا الشهادة على ذلك ، فقاتلوا حتى قتلوا ، ووثق آخرون بعهد المشركين وأسلموا ذات أيديهم ، وكانوا ثلاثة ، فأخذوهم وغدروا بهم ، فلما رأى أحد المسلمين بوادر الغدر قاتل حتى قتل ، وبقى من الصحابة اثنان باعتهما هذيل لبعض الموتورين من قريش ليقتلوهما فى وترهم .

(١) عضل والقارة : اسم نخذين من قبيلة الهون بن خزيمة بن مدركة .
(٢) الرجيع اسم ماء لهذيل بين عسفان ومكة .

وكان أحد هذين الصحابيين ، خُبَيْب بن عدى ، فلما قُدِّم لِيُقتَل طلب أن يمهلوه حتى يصلى ركعتين فمكنوه من ذلك ، ثم قال : والله لولا أننى أخشى أن أُتهم بالخوف من الموت لأطلت الصلاة ، ثم أنشد أبياتاً منها قوله :

ولست أبالى حين أقتــل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

وقُدِّم فَضُرِبت عنقه .

أما ثانى الاثنين فهو زيد بن الدثنة ، ولما قدم ليقتل دنا منه أبو سفيان بن حرب وسأله :

أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟

فقال زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس فى أهلى !

فقال أبو سفيان :

ما رأيت فى الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً !

خيانة بئر معونة (١)

أما الخيانة الثانية ، فقد وقعت فى شهر صفر نفسه ، ومن سوء الاتفاق أن خبرها وصل إلى الرسـول عليه الصلاة والسلام فى اليوم نفسه الذى وصل إليه خبر الخيانة الأولى ، وكان لهذين الخبرين السيئين ، أثر عميق فى نفسه ، فحزن لهما حزنا بليغاً .

وكان من حديث هذه الخيانة ، أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر : ملاعب الأسنة سيد بنى عامر ، قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الإسلام فلم يستجب ولم يستنـكر ، ولـكنه قال :

---

(١) بئر معونة تقع بين أرض بنى عامر و بنى سليم .

يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

إنى أخشى عليهم أهل نجد .

قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

ولما كان النبى الكريم حريصاً جدًّا على أن تبلغ دعوة الإسلام العرب ، وكان أبو براء معروفاً بالحفاظ على العهد ، فقد أرسل معه وفداً من خيار المسلمين وفقهائهم برياسة المنذر بن عمرو ، وكان عدد رجال هذه البعثة سبعين رجلا ، وكانوا يسمون القراء لعظم تفقههم فى الدين .

وسارت البعثة حتى نزلت بئر معونة ، فبعث رئيسها واحداً منها إلى عامر ابن الطفيل ليدعوه إلى الإسلام فقتله ، ثم استصرخ بنى عامر على البعثة فأبت أن تنفر معه حفاظاً على عهد أبى براء .

وكان عامر بن الطفيل فظًّا غليظ القلب ، شرساً خائن العهد ، فمضى إلى قبائل بنى سليم وأثارها على بعثة المسلمين ، فهجمت عليهم فى عدد لا يحصى ، ولجأ المسلمون إلى سيوفهم وقاتلوا جموع الأوغاد حتى قتلوا جميعاً ما عدا كعب بن زيد ، فإنه عُدَّ بين القتلى فى حسبان الأوغاد لشدة جراحه ، فلما انصرفوا تحامل على نفسه ونجا .

وكان عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار ، وهما من بين أفراد هذه البعثة، قد خرجا يرعيان إبلها ، فلما عادا وأبصرا الطير تحوم على العسكر علما ما حل بالقوم ، فتشاورا فى الأمر ، فأشار عمرو على الأنصارى أن يذهب فيخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بما كان ، فأبى وقال :

ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل المنذر بن عمرو فيه ، وما كنت لأخبر عن قتل الناس ، ثم حارب القوم حتى قتل .

أما عمرو فقد أسره الأوغاد ، ثم سألوه عن نسبه فأخبرهم أنه من مضر فأطلقوه ،

وعاد فخبر الرسول خبر البعثة ، فحزن الرسول عليه الصلاة والسلام لما أصابها حزناً شديداً ، وقال :

هذا عمل أبى براء ، لقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً .

ولما بلغ أبا براء إخفار عامر بن الطفيل ذمته ساءه ذلك .

وأنف أحد فرسان بنى عامر من غدر عامر بن الطفيل بجيران عمه أبى براء ، فضربه بالسيف يريد نفسه ، ولكنه جرح ولم يمت بل أُخِّر لميتة أشنع ، وأَجَلٍ أفظع ، كما سيرد ذلك فى محله من هذا الكتاب إن شاء الله .

إجلاء بنى النضير

كان يهود بنى النضير حلفاء للخزرج ، وكانوا ما يزالون حتى الآن داخلين فى العهد الذى قطعه الرسول الكريم لهم إثر مقدمه المدينة ، ولكن اليهود عامة قد ورمت أنوفهم من استتباب أمر النبى بالمدينة والتفاف الأنصار حوله ، وَوَدُّوا لو استطاعوا الخلاص منه أو القضاء عليه .

وحدث إثر حادث بئر معونة ، أن عمرو بن أمية الضمرى — أحد أفراد البعثة الإسلامية التى أوفدها الرسول عليه الصلاة والسلام لنشر الإسلام فى نجد والتى غدر بها عامر بن الطفيل — صادف أثناء رجوعه إلى المدينة اثنين من بنى عامر كانا على عهد من الرسول وعمرو لا يعلم ، فقتلهما انتقاماً لشهداء الصحابة فى بئر معونة ، فلما قدم المدينة أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فأسف الرسول على ما حدث ، وقرر أن يديهما [1] وفاء بعهدهما .

وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى إلى قباء وإلى بنى النضير يطلب العون على دفع دية القتيلين ، فلما استقر فى منازل بنى النضير وأفصح لهم عن مقصده ، قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه .

---

(١) أى يدفع ديتهما .

ثم خلا بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنداً إلى جدار من جدرهم ، فاتفقوا على أن يعلو البيت أحدهم فيلقى عليه صخرة تقتله ، ويستريحوا منه فى زعمهم ، وانتدب عمرو بن جماش نفسه للقيام بهذه المهمة .

وعارض سَلاَّم بن مِشْكَمَ أحدُ رؤسائهم هذه المؤامرة ، وأنذر قومه بأن محمد سيوحى إليه بتدبيرهم وتكون الحرب ، فلم يسمعوا له ، وصعد عمرو بن جماش ليحقق المؤامرة ، فأوحى الله إلى نبيه الكريم بما دبره القوم ، فقام كأنه يريد حاجة وقصد إلى المدينة رأساً ، وظل اليهود ينتظرونه ويقولون : أبطأ أبو القاسم ، ما حبسه ؟

ولما استبطأ الصحابة عودة الرسول قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلا قادماً من المدينة أخبرهم أن النبى عليه الصلاة والسلام دخل المدينة ، فأتوه وأخبرهم بما هَمَّ به اليهود من قتله ، وكيف أن الله عز وجل عصمه منهم .

ثم دعا الرسول عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة أحد الأنصار ، وأرسله إلى بنى النضير ليقول لهم على لسان الرسول :

« اخرجوا من بلادى فلا تُسَاكِنُونَنِي ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر » .

فجاءهم محمد بن مسلمة وبلّغهم الرسالة ، فقالوا له : ما كنا نظن أن يجيئنا بهذه الرسالة رجل من الأوس !

فقال محمد بن مسلمة : تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود (يقصد العهود السابقة على الإسلام) .

فقالوا : نتحمل .

ولكن رأس المنافقين عبد الله بن أبى أرسل إليهم يقول : لا تخرجوا ، فإن معى من العرب وممن انضوى إلى من قومى ألفين ، فأقيموا فهم سيدخلون معكم .

فأرسل زعيمهم حُدَىّ بن أخطب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يقول له : إنا لا نبرح دار نا ، فاصنع ما بدا لك !

وهنا كبرَّ النبى صلى الله عليه وسلم وآذن بنى النضير بحرب ، ففرعت الصحابة إلى الرسول ، وذهب عبد الله بن عبد الله بن أبى ، وكان من كرام المسلمين ، إلى دار أبيه رأس المنافقين ليأخذ سيفه ويلحق بالنبى عليه الصلاة والسلام وعند أبيه جماعة من بنى النضير ، يطالبونه بإنجاز وعده من نصرتهم ، فلما رأوا ما صنعه ابنه ولم يجدوا أثراً لتحركه أو أحداً ممن ذكرهم ، رجعوا إلى ديارهم وتحصنوا بها .

وحاصرهم الرسول عليه الصلاة والسلام خمسة عشر يوماً ، ثم صالحوه على أن يحقن دماءهم ويأخذوا من أموالهم ما حملته إبلهم غير السلاح ، فقبل الرسول ذلك ، وجلا بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى أذرعات بالشام .

وقد قسم الرسول عليه الصلاة والسلام أموالهم الثابتة ، وما عجزوا عن حمله من منقول على المهاجرين ليرفع مئونتهم عن الأنصار ، فقد كانوا يعينون المهاجرين بأموالهم ويقاسمونهم أرزاقهم ، وأعطى الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاثة من الأنصار لأنهم كانوا فقراء .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد استخلف على المدينة فى هذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وكان حامل رايته على بن أبى طالب رضى الله عنه .

غزوة ذات الرقاع

وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام بعد إجلاء يهود بنى النضير بالمدينة حتى شهر جمادى الأولى ، ثم بلغه أن جموعاً من قبيلتى بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان تتهيأ لغزو المدينة ، فخرج غازياً هاتين القبيلتين حتى بلغ ديارهم ، وتصاف الفريقان ولكن لم تقع بينهما حرب ؛ إذ تفرقت القبائل خوفاً منه فى الجبال .

وقد شُرِعت صلاة الخوف فى هذه الغزوة ، ثم عاد النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وسُمِّيت هذه الغزوة بذات الرقاع لأسباب كثيرة سردها المؤرخون ، أشهرها أن الأرض التى تقابل فيها الفريقان ذات ألوان مختلفة ، أو أن الصحابة رقعوا أرجلهم حين تقطعت نعالهم من كثرة السير .

واستخلف الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذه الغزوة عثمان بن عفان على المدينة .

غزوة بدر الآخرة

كان أبو سفيان قد واعد المسلمين ، إثر انتهاء موقعة أحد ، بدراً من العام المقبل ، ولما دنا هذا الموعد لم يأنس من نفسه القوة للوفاء بوعده ، فعمد إلى الحيلة والتظاهر ليدرأ بهما عن نفسه خلف الوعد . فأما الحيلة فإنه استأجر نعيم بن مسعود الأشجعى — بعد أن علم منه أن النبى يتأهب لغزوه فى جيش كبير — ليذهب إلى المدينة ، فيثبط عزائم المسلمين بما يفتريه عن عظم استعداد قريش ، وكثرة جيشها وقوة سلاحها .

وقصد نعيم إلى المدينة ، وقام بمهمته على أكمل وجه حتى كاد يفلح فيها ، وبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فتور بعض الناس عن الغزو ، فقال :

« والذى نفسى بيده لو لم يخرج معى أحد لخرجت وحدى » .

وعندئذ تدارك الله المسلمين برحمته ، فأنار بصائرهم ، وشد عزائمهم ؛ فخفوا سراعاً مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستصحبوا معهم تجارتهم لأن بدراً كانت سوقاً تقام كل عام ثمانية أيام ، يتجر فيها العرب كلهم من جميع أنحاء الجزيرة .

وسار النبى صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه ، وعدته ألف وخمسمائة مقاتل ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، وذلك فى شهر شعبان من السنة الهجرية الرابعة .

ولما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام بدراً عسكر بها ، وأقام ينتظر قريشاً .

أما التظاهر الذى عمد إليه أبو سفيان فإنه خرج بقريش حتى نزل مجنة من ناحية الظهران على مسيرة ليلتين من مكة ، ثم قال لقريش :

يامعشر قريش ، إنه لايصلحكم إلا عام خصيب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع ، فارجعوا . فرجع الناس متخاذلين ، مستهدفين لِقِيلَة العرب وشماتة المسلمين .

أما المسلمون فقد ظلوا ببدر ثمانية أيام ، ولما لم يصادفوا حرباً انفردوا بتجارة الموسم ، فباعوا واشتروا ، وربحوا الدرهم درهمين والدينار دينارين ، ثم عادوا إلى المدينة سالمين رابحين . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

« فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »(١) .

أخبار اجتماعية

فى السنة الرابعة من الهجرة تزوج النبى صلى الله عليه وسلم أم سلمة زوج أبى سلمة بعد أن توفى عنها ، وهو ابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاعة .

وفيها أمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود ، وقال له : إنى لا آمن أن يبدلوا كتابى .

وفيها توفيت زينب بنت خزيمة زوج الرسول .

السنة الخامسة الهجرية

غزوة دُومة الجندل(٢)

كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أنه قد أصبح غرضاً لجميع مشركى الجزيرة العربية ، كل قبيلة تحاول أن تغزو المدينة لتكسر شوكة الإسلام ، ولتملأ يديها من المغانم ، ومن أجل ذلك كان عليه الصلاة والسلام يتحسس الأخبار ، ويتحرى حركات الأعراب حتى لا يؤخذ على غرة .

وكان فيما جاءه من الأخبار أن جمعاً من الأعراب بدُومة الجندل ينوى غزو المدينة ، فخرج عليه الصلاة والسلام فى ألف من أصحابه فى شهر ربيع الأول من هذا العام ، واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطَة الغفارى ، وكان عليه الصلاة والسلام

---

(١) آل عمران : ١٧٤ .

(٢) بلد على مسيرة خمس عشرة ليلة من المدينة بجوار الشام .

يسير الليل و يكمن النهار ، فلما قرب من دُومة الجندل نذر به القوم فتفرقوا ، واستولى المسلمون على ماشيتهم وأموالهم ، ثم رجع إلى المدينة سالماً غانماً .

غزوة بنى المصطلق

كانت قبيلة بنى المصطلق حرباً على المسلمين ، فقد آزرت قريشاً فى غزوة أحد ، وشاركتها فى دماء الشهداء ، ولم تكتف بذلك بل أعدت العدة لغزو المدينة وقتال المسلمين ، و بلغ النبى الكريم ما أجمعت عليه هذه القبيلة ، فتجهز لغزوها .

وخرج عليه الصلاة والسلام فى شعبان من هذه السنة على رأس جيش كبير ، وخرج معه المنافقون لأول مرة وعلى رأسهم عبد الله بن أبى ، طمعاً فى عرض الدنيا لا عملا على نصرة الرسول .

ومضى الرسول الكريم قدما نحو عدوه حتى لقيه على ماء يسمى « الْمُرَيْسِيع » من ناحية قديد إلى الساحل ، وكان رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار ، فتزاحف الناس واقتتلوا قتالا شديداً ، فهزم الله بنى المصطلق ، وولى رئيسهم هائماً على وجهه ، ووضع المسلمون أيديهم على الأموال وسبوا النساء ، وكانت ابنة رئيس هذه القبيلة ، واسمها برة ، بين السبايا ، ووقعت فى سهم رجل من الأنصار فكاتبته على قدر من المال لتشترى نفسها ، وجاءت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تستعينه فى المكاتبة ، فقال لها الرسول الكريم : أو خير من ذلك ؟ قالت ما هو يا رسول الله ؟ قال : أؤدى عنك مكاتبتك وأتزوجك . قالت : رضيت ، وسماها الرسول : جويرية .

فلما سمع المسلمون بذلك ، قالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسلوا ما بأيديهم ، فأعتق بسببها أهل مائتى بيت من قومها .

ولما علم بنو المصطلق بذلك هزتهم هذه الأريحية ، فجاءوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام وأسلموا كلهم ؛ فلم يكن هناك من العرب امرأة أبرك على قومها من جويرية بنت الحارث أم المؤمنين : تزوجت من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأعتق

بسببها كل من أسر أو سبى من قومها ، ثم أسلموا جميعاً ، وصاروا قوة للإسلام بعد أن كانوا حرباً عليه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد اصطحب معه فى هذه الغزوة زوجتيه السيدتين عائشة وأم سلمة ، لأن القرعة خرجت عليهما .

من حوادث المنافقين

قدّمنا أن عبد الله بن أبى ، رأس المنافقين ، خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم لأول مرة فى غزوة بنى المصطلق طلباً لعرض الدنيا ، وقد حدث بعد أن انتهت المعركة أن تزاحم على البئر لسقيا الماشية ، أجير لعمر بن الخطاب وحليف للخزرج ، وأدى التزاحم إلى تضارب ، فقد ضرب أجير عمر حليف الخزرج ، فصاح الحليف يا للخزرج ، وصاح الأجير يا للمهاجرين ! وسارع كل من الفريقين إلى استجابة النداء ، وكادت تكون فتنة لولا أن أسرع الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ ولما أخبر الخبر تدخل بحكمته حتى فض المشكل على ما يرضى الطرفين .

واستغل عبد الله بن أبى هذا الحادث ، فجلس بين رهط من الخزرج ، وقال : ما رأيت كاليوم مَذَلَّة ، أو قد فعلوها ؟ ! نافرونا فى ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرين إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

ثم وجه الحديث إلى من حوله من الخزرج ، وقال :

هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا .

وسمع هذا الدَّسَّ زيد بن أرقم ، وهو فتى فى صدر الشباب ، فأخبر عمه بما سمع ،

فذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ، فأشار على النبى بقتل عبد الله بن أبى ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذِّن بالرحيل ، وذلك فى ساعة لم يكن الرسول يرتحل فيها .

ومشى عبد الله بن أبى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام لما بلغه أن حديثه مع بعض الخزرج قد نقل إليه ، فحلف بالله ما قال شيئاً من ذلك .

وكان ابن أبى شريفاً فى قومه ، فقال من حضر هذا الحديث من الأنصار : عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل .

فلما سار الرسول مرتحلا لقيه أسيد بن حضير ، وسأله بعد أن حياه بتحية النبوة ، لماذا ارتحل فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ؟ فقال له الرسول : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟

قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : عبد الله بن أبى ، قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل !

قال أسيد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه ، إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، أرفق به ، فوالله لقد جاء الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكا !

ثم سار النبى صلى الله عليه وسلم بالناس سيراً حثيثاً ، يومهم هذا حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم الثانى ، حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فما هو أن وجدوا مسَّ الأرض حتى وقعوا نياماً . وإنما فعل الرسول ذلك ليشغل الناس بما هم فيه من جهد عن الحديث الذى كان بالأمس .

ثم سار الرسول حتى نزل بماء يقال له النقعاء ، فنزلت سورة المنافقين ، وفيها تصديق لرواية زيد بن الأرقم ، وتسفيه للمنافقين ورأسهم عبد الله بن أبى .

أنا أحمل إليك رأسه !

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى ، أن الرسول يريد قتل أبيه ، وكان عبد الله « الابن » من كرام الصحابة وعيون المجاهدين ، فذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال :

قد بلغنى يا رسول الله أنك تريد قتل عبد الله بن أبى ، فإن كنت فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان هناك رجل أبر بأبيه منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا .

حديث الإفك

وحدث أثناء الرجوع من غزوة بنى المصطلق كذلك أن نزل النبى صلى الله عليه وسلم منزلا فى ليلة من الليالى ، وكانت السيدة عائشة قد ذهبت لقضاء حاجة ، فلما رجعت التمست عقداً لها فلم تجده ، وأدركت أنها أضاعته مكانها الذى كانت فيه ، فرجعت إليه لتلتقطه ، وحدث فى هذه الساعة أن أذن النبى عليه الصلاة والسلام فى الناس بالرحيل ، فجاء المكلفون رفع هودج السيدة عائشة على الجمل فرفعوه ، وهم يظنون أنها فيه ، ولم يلحظوا خلوه منها لخفة جسمها .

فلما رجعت السيدة عائشة ومعها عقدها وجدت الناس قد رحلوا ، فتلففت بجلبابها واضطجعت فى مكانها ، موقنة أنهم متى افتقدوها رجعوا إليها .

وبينما هى فى مكانها مر بها صفوان بن المعطل السلمى ، وكانت وظيفته تعهد مكان الجيش بعد رحيله ليتدارك من عسى أن يكون قد تخلف عنه أو تُرِك مكانه فلما رأى سواداً أقبل عليه فعرف السيدة عائشة ، لأنه كان يراها قبل أن يفرض الحجاب فاسترجع ، ثم قرب بعيره واستأخر وقال اركبى يرحمك الله ، وسار بها

حتى أدرك الركب ، وكان غيابها لم يحسه أحد ، فلما رآه الناس يقود بعيره وعليه السيدة عائشة انطلقت ألسن المنافقين بالإفك ، وهلك بعض الناس بالوقيعة فيها .

واتفق إلى ذلك أن مرضت السيدة عائشة ، ورأت فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم تغيراً وهى لم تسمع شيئاً من قول أهل الإفك ولا أخبرها أحد من أهلها به ، فاستأذنت النبى صلى الله عليه وسلم فى أن تذهب إلى أهلها ليتولوا تمريضها ، فأذن لها بذلك .

وكان وقع تخرصات أهل الإفك شديداً جدًّا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستشار من يثق به فى الأمر ، فأثنى بعضهم خيراً على زوجه ، وأشار على بن أبى طالب بطلاقها قائلا : النساء غيرها كثير .

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام آثر التريث ، ولما نقهت السيدة عائشة خرجت ذات ليلة لقضاء حاجة ومعها أم مسطح بنت أبى رُهْم فعثرت فى ثوبها فقالت : تعس مسطح — أى ابنها (وكان مسطح بن أثاثة من أكبر الأفاكين) فقالت عائشة : بئس ، لعمر الله ، ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدراً ؟ قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟

قالت عائشة : وما الخبر ؟

فأخبرتها أم مسطح بالذى قد كان من قول أهل الإفك ، فبكت حتى كاد كبدها أن يتصدع .

وقام رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الناس يخطبهم ، قائلا :

أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهن غير الحق ، والله ما علمت منهن إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما دخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى .

وذهب النبى عليه الصلاة والسلام إلى عائشة وعندها أبوها وامرأة من الأنصار تسعدها [1] على البكاء ، فقال لها الرسول :

---

(١) تسعدها على البكاء : أى تعينها عليه بالبكاء معها .

يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقى الله ، و إن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التو بة من عباده .

وانتظرت عائشة أن يجيب عنها أبواها ولكنهما لم يفعلا ، فقالت :

والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ، والله لئن أقررت بما يقول الناس — والله يعلم أنى منه بريئة — لتصدقنى ، ولئن أنكرت ما يقولون لا تصدقونى ، ولكنى أقول كما قال أبو يوسف :

« فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ »

وكانت عائشة لا تطمع أن ينزل فيها قرآن ، ولكنها كانت ترجو أن يرى الرسول رؤيا تكذب ما قيل فيها ، وتحقق براءتها مما اتهمت به ، ولكن الله عز وجل كان أرحم برسوله وبها ، فحقق ما لم تكن تطمع فيه ، وأوحى إلى رسوله الكريم وهو لم يبرح مكانه الذى ساءلها فيه بما ساءلها آنفاً ، فلما سرى عن الرسول أخذ يمسح العرق عن جبينه ، ثم التفت إلى السيدة عائشة ، وقال لها :

أبشرى ياعائشة ، فقد أنزل الله براءتك . فقالت أم السيدة عائشة لها : قومى ، واشكرى لرسول الله . فقالت عائشة : لا والله ، لا أشكر إلا الله الذى برأنى ! .

ثم خرج الرسول عليه الصلاة والسلام فخطب الناس وتلا عليهم ما أنزل الله من قرآن فى براءة السيدة عائشة ، وهى آيات بينات فى سورة النور أولها :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » الآيات .

وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بإقامة الحد على من صرّح بالقذف وهو ثمانون جلدة ، وكان الذين صرحوا به ثلاثة : مسطح بن أثاثه ، وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش .

وكان مسطح قريباً فقيراً لأبى بكر ينفق عليه ويعوله ، فلما تقوَّل على ابنته قطع عنه ما كان يعوله به ، فأنزل الله تعالى قوله :

« وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى القُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »(١) .

فامتثل الصديق لهدى الكتاب الكريم ، وعفا عن مسطح ، وعاد إلى ما كان عليه من الإحسان إليه .

غزوة الأحزاب

لما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود بنى النضير عن ديارهم ، استشاروا أحقادهم فى ضرب من المكر يهيىء لهم الانتقام منه ، فأفتتهم بما حسبوا أن فيه شفاء نفوسهم المريضة ودواء قلوبهم الكليمة ، وبيان ذلك أن حُيى بن أخطب — وكان مثله فى اليهود مثل أبى جهل فى قريش — وسلام بن مشكم وكنانة ابن أبى الحقيق ، وهم رؤساء اليهود وأهل الرأى فيهم ، ذهبوا إلى قريش وحرضوها على حرب الرسول ، وقالوا لها : نحن حزب عليه معكم ولا ندعه حتى نستأصله .

فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلا ، إن أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ، ولكنا لا نأمنكم حتى تسجدوا لآلهتنا وتشهدوا أن ديننا خير من دينه ، فسجدوا للأصنام ، وقالوا أنتم أهدى سبيلا من محمد لأنكم تعظمون هذا البيت وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم !

وفى هذا نزل القرآن الحكيم : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ والطَّاغوت » الآيات .

وكان ذلك مما نشط قريشاً وأغراها بتكوين حملة كبرى على الرسول ، تستأصل فيها الإسلام والمسلمين ، وتفرغ من الهم الذى ركبها من جراء ظهور الدعوة المحمدية وانتشارها فى الجزيرة يوماً إثر يوم .

(١) النور : ٢٢

وسار وفد اليهود يبث كيده وينشر حقده فى غطفان وماجاورها من القبائل لتنضم إلى قريش وتدخل فيما دخلت فيه من غزو محمد ، ومناها بجيش كبيرمن اليهود يساهم فى هذه الحرب ، ومازال اليهود يغرون زعماء القبائل بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى ذهبوا إلى أن وعدوهم تمر خيبر سنة إن عاونوهم فى هذه الحرب ، فكان أن استجابوا لهم وراحوا يعدون العدة لغزو المدينة مع قريش .

خروج الأحزاب

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وحامل لوائها عثمان بن طلحة العبدرى ، وعددها أربعة آلاف مقاتل ، ومعهم ثلثمائة فرس وألف بعير .

وخرجت فزارة فى ألف فارس وعلى رأسها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، وهو الذى سماه الرسول عليه الصلاة والسلام الأحمق المطاع .

وخرجت بنو مرة فى أربعمائة فارس ، يرأسهم الحارث بن عوف المرى .

وخرجت بنو أشجع فى عدد كبير من محاربيها ، وعلى رأسهم أبو مسعود. ابن رُخَيْلة .

وخرجت بنو سليم فى سبعمائة مقاتل ، وعلى رأسهم أبو سفيان بن عبد شمس .

وتجهزت بنو أسد فى جمع كبير من رجالها ، وعلى رأسهم طليحة ابن خويلد الأسدى .

وكانت عدة هذه الجيوش عشرة آلاف مقاتل ، وقد اتفقت كلمة الجميع على أن يتولى أبو سفيان بن حرب ، رئيس قريش ، القيادة العامة لهذه الحملة الكبرى .

الرسول يستشير أصحابه

ولما انتهت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أنباء هذه الحملة إذ أرسلت إليه خزاعة بخبرها ، استشار أصحابه فى الأمر ، أيخرج إلى لقائها أم يبقى فى المدينة ؟ وقد أشار الصحابى الجليل سلمان الفارسى على المسلمين أن يبقوا فى المدينة ويحصنوها

بحفر خندق واسع من جهتها الشمالية المعرضة للغزو ، ويقيموا على حراسته حتى لا يجتازه العدو من أية ثغرة فيه .

وقد أخذ النبى عليه الصلاة والسلام بهذا الرأى ، ورسم خطة للخندق ، وشرع فى حفره هو والصحابة ، وكان عليه الصلاة والسلام يعمل بيده معهم تشجيعاً لهم ، وأصدر أوامر حازمة أن لا يغادر العمل فى الخندق أحد إلا بإذنه ، وكان المنافقون يتسللون من العمل إلى أهليهم بغير إذن من الرسول .

معجزات الرسول

وقد أمدَّ الله عز وجل رسوله الكريم بطائفة من المعجزات ، تحققت أثناء العمل فى حفر الخندق ، وكثير من أخبار الغيب بشرهم فيها بالاستيلاء على كنوز كسرى وقيصر ، وكانت هذه الأنباء رحمة للمؤمنين وفتنة للمنافقين .

خروج الجيش الإسلامى

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق ، وقد استغرق ذلك حوالى شهرين ، خرج بالجيش الإسلامى ، وعدته ثلاثة آلاف مقاتل ، وعسكر فى الجهة الشرقية مسنداً ظهر الجيش إلى جبل سَلْع والخندق بينه و بين القوم ، واستعمل الرسول على المدينة ابن أم مكتوم ، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة رئيس الخزرج .

معسكر الأحزاب

وجاءت قريش ومن معها من الأحزاب ، فنزلت قريش بمجمع الأسيال ، ونزلت قبائل غطفان ومن تبعها من أهل نجد بذنب نَقْمَى إلى جانب أحد .

ولما رأى المشركون الخندق هالهم أمره ، لأن هذه الخطة من الحرب لم تكن

معروفة لديهم ، فاقتصرت الحرب بينهم و بين المسلمين أول الأمر على التراشق بالنبال والرمى بالحجارة .

يهود بنى النضير

يغوون يهود بنى قريظة

ولما رأى يهود بنى النضير ، المصاحبون للأحزاب ، تحصُّنَ المسلمين بالخندق ، وعجز الجيوش الغازية عن اقتحامه والاشتباك بالمسلمين ، تفتقت أذهانهم المريضة بالحقد والحسد عن تدبير خطير ، ذلك هو أن يغروا يهود بنى قريظة بالدخول فى هذه الحرب ليأتوا المسلمين من خلفهم ، فيقع المسلمون بين شقى الرحا ، و يحيط بهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم ، فيتم للأحزاب القضاء عليهم .

وندب حُيَىّ بن أخطب ، رئيس بنى النضير وأعدى أعداء الإسلام ، نفسه لهذه المهمة ، وذهب حتى أتى كعب بن أسد القرظى ، رئيس بنى قريظة ، وكان بينه و بين الرسول عليه الصلاة والسلام عهد ، ذلك إلى ما كان بينه و بين الأوس من حلف ، وأخذ حُيَىّ بن أخطب يغريه بالاشتراك فى هذه الحرب ، فتمنع عليه أولا ، ولـكنه ما زال يحاوره و يمنيه حتى قبل الغدر والخيانة ، وكان فيما عاهده عليه حُيَىّ أنه إذا انصرفت الأحزاب من غير أن تحارب المسلمين ، دخل معه حصنه وشاركه فيما يحل به من مصير .

التحقق من الخيانة

وعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بأمر هذه الخيانة ، فاستدعى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، وسعد بن عبادة رئيس الخزرج ، وطلب إليهما الذهاب لتعرف جلية الأمر ، فإذا أَلْفيَا غدرا أشارا بذلك عند عودتهما ولم يفصحا حتى لا يداخل الوهن نفوس المسلمين . فلما بلغ السعدان ديار بنى قريظة أساءوا استقبالهما وأفحشوا بالقول فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأراد سعد بن عبادة الرد عليهما ، فقال له سعد

ابن معاذ : إن ما بيننا أربى من ذلك ، ولما رجعا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام قالا له : عضل والقارة[١] .

اشتداد البلاء على المسلمين

وهنا اشتد البلاء على المسلمين وفدحهم الخطب وشملهم الكرب ، وليس فى قدرة مخلوق أن يصف هذا البلاء كما وصفه الخالق جل وعلا حين يقول فى محكم التنزيل :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا »[٢] .

واتخذ النبى عليه الصلاة والسلام لهذه الخيانة ما تقتضيه من الحذر ، فأرسل مسلمة بن أسلم فى ما ئتين ، وزيد بن حارثة فى ثلثمائة رجل لحراسة المدينة .

وفى هذه الآونة الحرجة انسحب جماعة من المنافقين من الجيش وقالوا : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا[٣] » .

صفقة لم تتم

ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن من الحكمة تشتيت الأحزاب من طريق السياسة ، فراسل عيينة بن حصن والحارث بن عوف — وكان لهما الكلمة على سائر غطفان — يصالحهما على أن لهما ثلث ثمار المدينة إذا رجعا بمن معهما من سائر قبائل غطفان ، وكانت المفاوضات لا تزال دائرة فى هذا العرض حين أطلع الرسول

---

(١) عضل والقارة : أى غدر وخيانة ، إشارة إلى غدر ها تين القبيلتين ببعثة إسلامية .
(٢) الأحزاب : ٩ — ١١
(٣) الأحزاب : ١٣

على الأمر سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رئيسى الأنصار ، فقالا يارسول الله : أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! وهكذا فشلت المفاوضة وحكمت السيوف .

ابنة عبد المطلب !

لما خانت بنو قريظة الله ورسوله وأعطت من يدها للأحزاب ، حدث ذات يوم أن رأت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه الصلاة والسلام — وكانت مقيمة بحصن فارع لحسان بن ثابت وهو مقيم مع النساء ولم يخرج لحرب — رجلا من اليهود يطيف بالحصن وهو مملوء بالنساء والصبيان ، فقالت لحسان بن ثابت : ياحسان ، إن هذا اليهودى قد رأى من أمرنا ما رأى ، وما آمن أن يدل علينا اليهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله .

فقال حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا .

فلما رأت صفية أن حسان ليس هنا لك شدت وسطها وأخذت عمودا ونزلت من الحصن وضربت اليهودى فقتلته ، ثم صعدت إلى حسان فطلبت إليه أن ينزل فيسلبه لأنه لم يمنعها من ذلك إلا أن القتيل رجل .

فقال حسان : مالى بسَلْبه من حاجة ياابنة عبد المطلب ! .

ثُلمة فى الخندق

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يعرف أن هناك ثُلْمة فى الخندق، فكان يذهب إليها بالليل ليحرسها بنفسه ويقول : ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها ، فإذا أخذه البرد عاد إلى قبته ليدفأ قليلا ثم يعود إلى مكانه ، وفى إحدى عوداته إلى القبة ، قال : ليت رجلا صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة ! فسمع صوت السلاح ، فقال عليه الصلاة والسلام : من هذا فقال القادم : سعد بن أبى وقاص ، أتيت أحرسك ، فقال عليه الصلاة والسلام : عليك هذه الثلمة فاحرسها ، ثم نام حتى قام لصلاة الصبح .

اقتحام الخندق

وبعد أيام من الحصار اقتحم فرسان من قريش الخندق من مكان ضيق فيه ، وكان بينهم عمرو بن عبد وُدّ العامرى وعكرمة بن أبى جهل ونوفل بن عبد الله ، وطلب عمرو بن عبد ودّ المبارزة ، فبرز إليه على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقتله ، وهرب عكرمة بن أبى جهل ، ووقع نوفل بن عبد الله فى الخندق فاندق عنقه ، وفر الباقون لا يلوون على شىء .

الحرب خدعة

نصير ليس فى الحسبان

وقيض الله للمسلمين نصيراً لم يكن فى حسبانهم ، كاد للمشركين وليهود كيداً أوقع الخلف بينهم ، وقضى على ما كان بينهم من حلف وثيق وتعاون أكيد . وبيان الأمر أن نُعيَم بن مسعود ، أحد وجهاء غطفان ، جاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام وأخبره أنه قد أسلم وأخفى إسلامه عن قومه وهو ينتظر أمر الرسول فيما يفعله لنصرته .

فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : إنما أنت فينا رجل واحد فَخَذِّلْ عنا إن استطعت ، فإن الحرب خُدعة .

فذهب نعيم إلى بنى قريظة وكان صديقاً لهم ، وقال لهم : إنكم غدرتم بمحمد

وأنتم تساكنونه فى بلد واحد، وانضممتم إلى قريش وأحلافها، وهى إن وجدت نهزة انتهزتها، وإلا رحلت وخلّت بينكم وبين محمد، فتلقون منه ما لا تطيقون، والرأى عندى أن تطلبوا من قريش ومن غطفان رهائن من أشرافهم حتى تضمنوا مناجزتهم محمدا. فقالوا: نعم ما أشرت به.

ثم ذهب نعيم إلى قريش، فلقى أبا سفيان وكان له صديقاً، وقال له: عندى أمر مهم فاكتمه على، ثم أخبره أن قريظة ندمت على خروجها على محمد، وأرسلت تعرض عليه تسليمه رهطاً من أشراف قريش ليقتلهم تكفيراً عما تورطت فيه من الغدر به، وعلامة على رجوعها إليه، فإن طلبت منكم رهائن فلا ترسلوها إليها.

فقال أبو سفيان: نعم ما أشرت به.

ثم خرج نعيم إلى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ، ولا أراكم تتهموننى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عنى، ثم قال لهم ما قال لقريش.

وأراد أبو سفيان أن يستوثق من الأمر فأرسل عكرمة بن أبى جهل فى نفر معه إلى بنى قريظة، يصفون ما بلغته قريش ومن معها من الجَهد والضيق، ويطلبون إليهم الاستعداد للقتال ومناجزة المسلمين، فطلبوا أن يرسلوا إليهم رهائن ليضمنوا بقاءهم حتى يناجزوا المسلمين ويستأصلوهم، فلما رجعت رسل قريش إليها بما قال اليهود تبينت صدق نعيم، وأرسلت إلى بنى قريظة تأبى عليها إرسال رجل واحد، وحينئذ تبين بنو قريظة صدق ما قاله نعيم، ووقع الخذلان بين الفريقين.

الريح العاتية من جنود الله

وأرسل الله على الأحزاب ريحاً عاتية، كفأت قدورهم وأشاعت الفوضى فى صفوفهم وجعلتهم فى ظلام حالك، فارتفعت ضوضاؤهم وسمعها الرسول، فقال: لا بد من حادث، ثم التفت إلى أصحابه وقال: مَن رَجُلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة؟ فما قام رجل من شدة الخوف والجوع والبرد،

وكرر الرسول عليه الصلاة والسلام قوله ثلاثاً ، فلم يستجب أحد ، فنادى حذيفة ابن اليمان وكلفه هذه المهمة وأمره أن لا يحدث حدثاً ، فأطاع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذهب إلى القوم وشاهد الكرب الذى عَمَّهُم وكيف تعصف الريح بكل شىء فى معسكرهم من نار و بناء وخيام ، وسمع أبا سفيان وهو يقول : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ جليسه ، فأخذ حذيفة بيد الرجل الذى يليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

أبو سفيان يركبه الهلع

ثم إن أبا سفيان اشتد به الخوف ، وتملكه الذعر ، وخشى أن ينتهز المسلمون و بنو قريظة معهم — على حسب ما ظهر منهم أخيراً — الفرصة فيهاجموا قريشاً فى هذه الحال التى لا تملك فيها من أمرها شيئاً ، فقال :

يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الْكُراع[1] والخف[2] ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ماتطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل .

و بلغ من شدة ذعره ، أنه قعد على بعيره قبل أن يتم حل عقاله ، وأنكر صفوان ابن أمية على أبى سفيان هذا الهلع ، وقال له : إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضى ! فنزل وأذّن فى الناس بالرحيل ، وعهد إلى خالد بن الوليد فى جماعة من الرجال أن يحموا ظهور الجيش أثناء انسحابه لئلا يُدْهم من ورائه .

وكان حذيفة بن اليمان يرى كل هذا و يسمعه ، ولولا عهد الرسول إليه أن لا يحدث حدثاً لأمكنه أن يقتل أبا سفيان بسهم يرميه به .

انسحاب بقية الأحزاب

ولما علمت غطفان بانسحاب قريش ، حذت حذوها وكرت راجعة إلى بلادها .

---

(١) الكراع : الخيل . (٢) الخف : الإبل .

وعاد حذيفة بن اليمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بما كان، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ضحك حتى بدت ثناياه فى جوف الليل ، وقال حين جلاء الأحزاب : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، وقد صدّقت الأيام نبوءته ؛ فكان ذلك من معجزاته الشريفة .

رجوع المسلمين إلى المدينة

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة ، وانصرف المسلمون إلى دورهم .

وكانت هذه الغزوة فى شوال من السنة الخامسة الهجرية وقد دام حصار المشركين المدينة بضعاً وعشرين ليلة .

إصابة سعد بن معاذ

وأصيب فيها سعد بن معاذ رئيس الأوس بسهم رماه به أحد المشركين فقطع أكحله[١] ، ودعا الله سعد أن لا يقبضه إليه حتى يشفيه من بنى قريظة لغدرهم بالرسول ، وقد استجاب الله دعاءه .

غزوة بنى قريظة

كان غزو بنى قريظة أمراً تقتضيه ضرورات الأمن القصوى إذ لم يصبح جوارهم مأمونا ، ولا سلمهم مكفولا بعد ما أحدثوه من غدر وخيانة ، وممالأة لأعداء الله على المسلمين أثناء محنة لم يروا لها مثيلا ، ومن أجل ذلك أوحى الله عز وجل صبيحة جلاء الأحزاب بغزو بنى قريظة ، فأذن الرسول فى الصحابة بالذهاب إلى هذه الفئة الباغية الغادرة ظهر اليوم نفسه ، وسلم لواء الجيش لعلى ابن أبى طالب وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

---

(١) الأكحل : عرق فى الذراع .

بنو قريظة يلتمسون النجاة بأنفسهم

وحاصر الجيش حصون بنى قريظة خمساً وعشرين ليلة حتى جَهَدَهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب وفت الخوف فى عزائمهم ، وعلموا أنهم إن أقاموا على هذا الحصار ماتوا جوعا .

كتيبة الإيمان

وكان الحادث الذى قضى على البقية الباقية من جلدهم أن على بن أبى طالب صاح ذات يوم فى جيش المسلمين قائلا :

يا كتيبة الإيمان ، وتقدم هو والزبير بن العوام ، وقال : والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأقتحمن حصنهم .

فلما رأى اليهود ذلك وعلموا أن لا قبل لهم بغضبة أبى الحسن كرم الله وجهه ، انهارت قواهم وأزمعوا التسليم ولكنهم بدأوا فطلبوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينزلوا على مانزل عليه بنو النضير، من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، فأبى ذلك عليهم الرسول ، فأرسلوا أن لا حاجة لهم بشىء من الأموال لا من السلاح ولا غيره، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكمه من غير قيد أو شرط .

مستشار تأخذه رقة

فطلبوا إلى الرسول أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه فى أمرهم، وكان لهم صديقاً وحليفاً ، فأذن الرسول بذلك ، فلما ذهب أبو لبابة إليهم ، أحاط به النساء و الأطفال يبكون فرق لهم ، وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

قال : نعم ! وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح ، وعلم أبو لبابة أنه خان الأمانة فخرج رأساً إلى المسجد ، وربط نفسه فى أحد عمده ، مقسما أن لا يبرح مكانه حتى يتوب الله عليه .

ولما علم الرسول بخبره ، قال : لو جاءنى لاستغفرت الله له . وقد تاب الله على أبى لبابة وأنزل فيه :

« وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ، عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[(١)] » .

تحكيم رئيس الأوس

ولم يجد يهود بنى قريظة مناصا من النزول على حكم الرسول ، فنزلوا فأمر بهم فأُوثقوا ، وجاء الرسول أناس من الأوس وهم حلفاء بنى قريظة ، يطلبون إليه أن يعامل بنى قريظة حلفاءهم كما عامل بنى النضير حلفاء الخزرج .

فقال لهم الرسول : ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ فقالوا : نعم . قال : فاختاروا ، فأجمعوا على اختيار سعد بن معاذ سيد الأوس حكما فى هذه القضية ، وكان سعد لا يزال يعانى من أثر الجرح الذى أصابه من السهم الذى رمى به أثناء غزوة الخندق ، فبعث الرسول عليه الصلاة والسلام من جاء به راكباً على حمار والأنصار حوله يقولون له : أحسن فى مواليك ، ألا ترى ما فعل ابن أُبَىّ فى مواليه ؟ وهو يقول لهم :

لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم .

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل ، فنعى لهم بنى قريظة قبل أن يحكم سعد فيهم ، مستنداً إلى العبارة التى سمعها منه .

ولما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قوموا إلى سيدكم ، فقاموا إليه ، وقالوا : يا أبا عمرو ، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم كما حكمت ؟

قالوا : نعم !

---

(١) التوبة : ١٠٢

قال : وعلى من ها هنا ؟ أى فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن الرسول إجلالا له ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم !

قال سعد :

فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

لقد حكمت فيهم بحكم الله .

تنفيذ الحكم

فخرج الرسول إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم أتى بهم وهم بين ثمانمائة وتسعمائة مقاتل ، وضربت أعناقهم .

حيى بن أخطب رأس المحرضين

وقد كان من بينهم عدو الله حُيىّ بن أخطب رأس يهود بنى النضير الذين حزبوا الأحزاب فى غزوة الخندق ، وقد وفَّى لـكعب بن أسد رئيس بنى قريظة بما وعده به من أنه إذا رجعت قريش إلى بلادها ولم تناجز المسلمين جاءه فدخل عليه حصنه وشاركه فيما يصيبه ، وقد جىء به مغلولة يداه إلى عنقه ، فلما قدم ليقتل ، قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : ألم يمـكن الله منك يا عدو الله ؟ !

فقال : أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولـكنه من يَخْذِلِ اللهَ يُخْذَل ، ثم قال يخاطب الناس :

أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة ، كتبها الله على بنى اسرائيل .

وكانت هذه العبارة آخر كلماته ثم شيع إلى الجحيم .

ولم يقتل من النساء إلا امرأة اسمها نباتة ، كانت قد طرحت من فوق الحصن رحا على خلاد بن سويد فقتلته .

الغنائم

وجمعت الغنائم فكانت ألفاً وخمسمائة سيف ، وثلثمائة درع ، وألفى رمح ، وخمسمائة ترس وجحفة ، وعدداً كبيراً من الإبل والغنم ؛ فقسم ذلك كله على المسلمين طبقاً لنظام الغنائم ، واصطفى الرسول لنفسه ريحانة بنت عمرو وقد أسلمت ، وظلت عند الرسول حتى وفاته .

وفاة رئيس الأوس

وعلى إثر الفراغ من تنفيذ الحكم فى بنى قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فمات شهيداً ، وقد بكاه الصحابة ، وحزن عليه الرسول حزناً شديداً ، وفقد فيه المسلمون جميعاً رجلا من أولى العزم ، وركنا من أركان الدين ، وقائداً حكيما، ومشيراً عليما .

روت كتب السنة الموثوق بها : أن جبريل عليه السلام ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض سعد بن معاذ من جوف الليل ، معتجراً بعمامة من إستبرق ، فقال : يا محمد ، من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء ، واهتز له العرش ؟ قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً يجر ثوبه إلى سعد ، فوجده قد مات .

أخبار اجتماعية

فى هذه السنة تزوج النبى صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة مولى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى ابنة عمة النبى فأمها أميمة بنت عبد المطلب ، وقد كان النبى عليه السلام زوّجها من زيد ابن حارثة مولاه ، رغما من أهلها ، إذ كان من عادة العرب أن لا يزوجوا الموالى ، ولكن الإسلام جاء بإزالة الفوارق ومحو الطبقات ، واعتبار الناس كلهم سواسية كأسنان المشط:

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »[1] .

(١) الحجرات : ١٣

وقد قصد الرسول من هذه الزيجة محاربة العادات العربية البغيضة ، و إعطاء المثل والقدوة بناس من أهله ، ولـكن النفوس تتأثر بالعادات ولا تتخلى عنها إلا بعد مران ورياضة ، ومن أجل ذلك لم يصحب هذه الزيجة ما ينبغى أن يصحبها من انسجام بين الزوجين ، إذ كانت الزوج دائبة الإعراض عن زوجها ، لما وقر فى نفسها من تباين النسب والحسب بينها و بينـــه ، وقد شكاها زوجها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أكثر من مرة ، فكان الرسول يقول له : أمسك عليك زوجك . وحدث فيما بين ذلك أن أوحى إلى الرســول بالموافقة على التفرقة بينهما ، وزواجه صلى الله عليه وسلم بزينب لحـكمة تشريعية بليغة ؛ وبيان ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد تبنى زيداً ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، وكان من عادة العرب أن يحرموا على أنفسهم الزواج من نساء من يتبنونهم ، إنزالا لهن منزلة نساء الأبناء من أصلابهم ، فأراد الشارع الأعظم أن ينسخ هذه العـادة التى تحشر فى ذوى الأرحام من ليس منهم ، وتقحم فى الأبناء من هم أجانب عنهم ، فشرع الله عز وجل زواج نبيه من مطلقة متبنيه وأنزل فى ذلك آيات محكمات ، فقال تعالى فى سورة الأحزاب :

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » وهو زيد بن حارثة ، أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم الرسول عليه بالولاء « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ » .

أى بعد أى شكا إليك إعراضها عنه ونفورها منــه « وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ » من أمر الله بوجوب التفرقة بينهما «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » أى تخشى تقوّل العرب واليهود عليك فى هذه التفرقة وما يعقبها من زواجك بمطلقة مولاك ، ولا تخشى الله وهو المتفرد بوجوب الخوف منه والخشية لذاته « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرا » والمعنى ظاهر جداً ، فقد بين المولى عز وجل حكمة التشريع فى هذا العمل ، وقطع بهذا القرآن المبين دابر الإشاعات والأراجيف .

وقد جرت عادة أصحاب السير على إطالة الوقوف فى هذا المقام بغية الإفاضة فى

تكريم الرسول عليه الصلاة والسلام عما أرجف به المنافقون واليهود ، ولكننا نرى أن من أبلغ التكريم لذات الرسول عليه الصلاة والسلام أن نقبل بقلوب مخلصة ونفوس مطمئنة تعليل الله عز وجل الحادث فى القرآن ، فقد شفى وَأَرْبَى وكفى وزاد : «لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد» .

فرض الحجاب

وفى هذه السنة فرض الحجاب على أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونهى المسلمون عن إيذاء رسول الله عليه الصلاة والسلام بالتحدث عن أزواجه ، كما حرم على زوجات الرسول أن يتزوجن أحداً من بعده .

أما سائر المسلمات فقد أمرن بغض الأبصار وحفظ الأعراض .

فرض الحج

وفرض الحج على الأمة الإسلامية فى هذه السنة فى أرجح الأقوال . ومن المسلم به أن قريشاً كانت لا تزال على شركها وحربها لله ورسوله ، ولكن فريضة الحج جاءت مشروطة بالاستطاعة .

السنة السادسة الهجرية

مقتل سَلاَّم بن أبى الْحُقَيق

لم يكن للأنصار هَمٌّ ، بعد الانتهاء من غزوة بنى قريظة ، إلا تصيد زعماء اليهود بعد أن آذوهم بخيانتهم وتآمرهم مع الأحزاب ، فاجتمع رهط من الخزرج وتدارسوا أمر زعماء اليهود الذين حزبوا الأحزاب على المسلمين ، وكان سلام بن أبى الحقيق من أولهم كيداً وأشدهم غدراً ، فقصد إليه خمسة من الخزرج وقتلوه فى فراشه .

غارة على بنى بكر بن كلاب

أرسل النبى صلى الله عليه وسلم فى أوائل محرم من هذه السنة سرية برياسة محمد بن مسلمة فى ثلاثين راكباً لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب ، وكانوا ينزلون بمكان يسمى ضرية ، وهو على مسيرة سبع ليال من المدينة ، وكانوا يضارون الله ورسوله والمسلمين ، فدهمتهم السرية وقتلت عشرة منهم ، واستاقت ما شيتهم ورجعت سالمة .

رجل كريم : ثُمامَة بن أثال الحنفى

وحدث أثناء رجوع سرية محمد بن مسلمة إلى المدينة أن أخذت رجلا من بنى حنيفة حتى أتوا به الرسول ، فقال لهم : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمال بن أثال الحنفى ، أحسنوا إساره ، ثم رجع الرسول إلى أهله ، فقال : اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه ، وأمر الرسول بأن يرسل إليه لبن ناقته صباحاً ومساء ، فكان يأتى على كل ما يرسل إليه من طعام وشراب ولا يبلغ منه شِبَعاً .

ويأتيه الرسول فيقول له : أسلم ياثمامة ، فيقول ثمامة : إيْهاً يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن ترد المال تعطه ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، فيقول النبى عليه الصلاة والسلام : اللهم أكلة من جزور أحب إلى من دم ثمامة .

وظل الأمر على هذه الوتيرة مدة ، ثم أمر النبى عليه الصلاة والسلام بإطلاق سراحه فعظم النبى عليه الصلاة والسلام فى عين ثمامة وكبر الإسلام فى نفسه ، وأدرك أن هذه الأخلاق الكريمة لاتكون إلا لنبى ، فجاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام وأسلم مختارا ، ثم قال :

يا محمد ، والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح أحب الدين كله إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح أحب البلاد إلى .

فلما أمسى جاءوه بما كانوا يأتونه به فلم يمس منه إلا قليلا ، فعجبوا من ذلك ، فقال الرسول : ممَّ تعجبون ؟ إن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، وإن المسلم يأكل فى مِعًى واحد[1] .

وخرج ثمامة معتمراً فلما بلغ البيت الحرام ، رفع صوته بالتلبية فكان أول مسلم دخله ملبياً ، فأخذته قريش وأرادت قتله ، ثم تذكروا حاجتهم إلى حبوب اليمامة فتركوه ، ولكنه مع ذلك أنذرهم بأنه لن تصل إليهم حبة من حبوب اليمامة إلا بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عند قوله فما كاد يصل إلى اليمامة حتى حرم غلاتها من الحبوب على قريش ، فأرسلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يقولون :

إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا ، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع .

فكتب الرسول إلى ثمامة أن يخلى بينهم وبين ما يقتاتون به ، وهذا واحد من مثله العليا عليه الصلاة والسلام فى الكرم والرحمة .

وكان لثمامة موقف كريم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حين ارتدت بنو حنيفة وتابعت كذابها مسيلمة ، فقد وقف فيهم خطيباً وقال :

يا بنى حنيفة أين عزبت عقولكم « بسم الله الرحمن الرحيم : حٰمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ »[2] .

أين هذا من : يا ضفدع نقى كما تنقين ، لا الشراب تكدرين ولا الماء تمنعين ، مما كان يهذى به مسيلمة ؟ فأطاعه منهم ثلاثة آلاف وانحازوا إلى المسلمين ، ففت ذلك فى عضد بنى حنيفة وأوهن شوكتها ، وأدى إلى أن تكون كلمة الله هى العليا .

---

(١) مفاد هذا الكلام الشريف أن قناعة المؤمن تغنيه عن الإفراط فى تناول الطعام .
(٢) غافر : ١ — ٣

غزوة بنى لِحيان

بنو لحيان هم القوم الذين غدروا بأصحاب الرجيع ، وقتلوا بعضهم ، و باعوا اثنين منهم إلى قريش : وهما خبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة فقتلوهما ، ولم يكن النبى عليه الصلاة والسلام ليترك دم أصحابه ؛ ومن أجل ذلك خرج فى ربيع الأول من هذه السنة على رأس جيش مؤلف من مائتى راكب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وكان عليه الصلاة والسلام يكتم وجهته حتى لا يُنْذَرَ أعداؤه بمقدمه إليهم ، ولكن حدث على الرغم من ذلك أن نَذِروا به ، وتمنعوا فى رءوس الجبال ، فذهب فى مائتى راكب إلى قريب من مكة ، ليُرِى قريشاً أنه قد جاءهم ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم [1] ، و بعد ذلك كرّ راجعاً إلى المدينة وكان يقول فى قفوله : آيبون تائبون ، إن شاء الله لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال .

على قبر أمه

ولما رجع الرسول عليه الصلاة والسلام من غزو بنى لحيان ووصل إلى الأبواء ، نظر يميناً وشمالا فرأى قبر أمه : آمنة بنت وهب ، فتوضأ وصلى ركعتين ، ثم بكى و بكى الناس معه ، فقال لهم : ماذا أبكاكم ؟ قالوا : بكيت فبكينا يا رسول الله . قال : ماذا ظننتم ؟ قالوا : ظننا أن العذاب نازل علينا ! قال : لم يكن من ذلك شىء ، قالوا : ظننا أن أمتك كلفت من الأعمال مالا تطيق ! قال : لم يكن من ذلك شىء . ولكنى مررت بقبر أمى فصليت ركعتين ، ثم استأذنت ربى عز وجل أن استغفر لها فزجرت زجراً أبكانى .

---

(١) كراع الغميم : واد بينه و بين عسفان ثمانية أميال ، و بين عسفان و بين مكة مرحلتان .

غزوة ذى قَرَد[1]

وحدث بعد أن قدم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة عائداً من غزوة بنى لحيان بليال قلائل ، أن أغار عيينة بن حصن الفزارى فى خيل من غطفان على إبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت ترعى بمكان يسمى الغابة على مسيرة يوم من المدينة ، وكان يرعاها أبو ذر الغفارى ومعه امرأته وابنه ، فقتلوا ابنه وسبوا امرأته ونجا هو منهم ، ثم استاقوا الإبل وكان عددها عشرين ناقة لبونا .

وكان أول من نذر بهم من المسلمين سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى، فأشرف على المدينة من مرتفع وصاح : واصباحاه، فأسمع ما بين لابتيها[2] ، ثم خرج يعدو إثر القوم ويرميهم بالنبل وكان عدّاء يسبق الخيل ورامياً مصيبا ، فإذا كروا عليه فاتهم بسرعة عدوه ، وإذا انطلقوا حاذاهم على مرتفع ورماهم وهو يرتجز :

خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع[3]

وما زال يناوشهم ويعوق سيرهم حتى خافوا أن يلحقهم الطلب فألقوا كثيراً من متاعهم بغية التخفف ، ثم اشتد بهم الخوف حتى تركوا عشراً من النوق .

ولما بلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام صياح بن الأكوع نادى : ياخيل الله اركبى ، ففزع إليه المسلمون ، وكان أول من لبى النداء المقداد بن عمر وأبو قتادة وعباد بن بشر وسعيد بن زيد ثم تلاحقت الفرسان فأرسل النبى عليه الصلاة والسلام طليعة منهم تحت قيادة المقداد بن عمرو لتتعقب الأعداء حتى يلحقها الجيش ، ثم خرج عليه الصلاة والسلام وجعل على حرس المدينة سعد بن عبادة وعلى الصلاة بن أم مكتوم ، وسار بالجيش فوجدوا قتيلا مسجى ببرد لأبى قتادة فقال المسلمون : يرحم الله أبا قتادة . فقال النبى عليه الصلاة والسلام : ليس بأبى قتادة ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع

---

(١) اسم ماء ، ويقال لهذه الغزوة أيضا غزوة الغابة .

(٢) اللابة : مكان منخفض فيه حجارة ذات ألوان .

(٣) الرضع : أى اللئام .

عليه برده ليعرف أنه صاحبه ، وقد صدق رسول الله ، فإن أبا قتادة لقى صاحب هذه الجثة واسمه حبيب بن عيينة وكان قد قتل فارساً من المسلمين اسمه الأخرم الأسدى فقتله أبو قتادة ، وفى هذه الواقعة قال النبى عليه الصلاة والسلام لأبى قتادة : أفلح وجهك ياأبا قتادة ، فقال : ووجهك يا رسول الله ، ثم قال النبى عليه الصلاة والسلام :

أبو قتادة سيد الفرسان . بارك الله فيك يا أبا قتادة وفى ولدك وولد ولدك .

ومضى الرسول عليه الصلاة والسلام فى إثر الأعداء فلم يدركهم ، فأقام يوما وليلة بذى قرد ثم كر راجعاً إلى المدينة .

و بعد قليل من عودته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، أقبلت امرأة أبى ذر على ناقة للرسول اسمها العضباء ، وكان من حديثها أنها تفلتت من الوثاق ثم قصدت إلى هذه الناقة فحلت عقالها وركبتها وسارت بها سيراً حثيثاً فلم يدركها الأعداء ، وكانت قد نذرت أن تنحرها إن نجاها الله عليها ، فلما أخبرت النبى بذلك تبسم ، وقال : بئس ما جزيتها أن حملتك ! لا نذر فى معصية ولا فيما لاتملكين ، إنما هى ناقة من إبلى ، ارجعى إلى أهلك على بركة الله تعالى .

حملات تأديبية

وكثرت فى هذا العام الحملات التأديبية ، التى كان يرسلها النبى صلى الله عليه وسلم لتأديب الأعراب الذين يتجمعون لكيده أو يحدثون حدثا ضده ، فكان عليه الصلاة والسلام يرسل السرايا برياسة نفر من الصحابة ، وكان عدد أفرادها يختلف باختلاف الأحوال ، ونحن نجمل ما قصته كتب السيرة عنها فيما يلى :

إلى بنى أسد

بعث النبى عليه الصلاة والسلام سرية إلى بنى أسد برياسة عُكاّشة بن محصن ، فى أربعين راكباً لتأديب هذه القبيلة التى دأبت على إيذاء من يمر بها من المسلمين ، ولما شارفت السرية منازلهم علموا بها فهربوا ، ولكن المسلمين وجدوا رجلا نائماً

فأيقظوه ، وأمنوه على نفسه إذا دلهم على نعم القوم ، ففعل ، فذهبوا إليها واستاقوها وكانت مائة بعير وعادوا إلى المدينة سالمين .

إلى ذى القصة (١)

وانتهى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن أعرابا بذى القصة يعتزمون الإغارة على المدينة ليستلبوا نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء من ضواحيها ، فأرسل إليهم محمد ابن مسلمة فى عشرة من المسلمين ، فعلم بهم المشركون وراقبوهم حتى ناموا ، ثم هجموا عليهم ، واستيقظ المسلمون وقد أحيط بهم فعمدوا إلى السلاح ولكنه لم يغن عنهم شيئاً لكثرة عدد عدوهم ، وما فوجئوا به من الغارة ، وقد استشهدوا جميعاً ما عدا رئيسهم محمد بن مسلمة ، فقد أصيب بجراحات خطيرة حتى عد فى القتلى ، فلما ابتعد الأعداء عاد إلى المدينة وأخبر الرسول بما حدث .

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام أبا عبيدة بن الجراح على رأس عدد كبير من المسلمين ليقتص من هؤلاء الأعداء ، فلما علموا بمقدمه هربوا فى الجبال ، فساق نعمهم وعاد إلى المدينة سالماً هو ومن معه .

إلى بنى سليم

وعلم النبى عليه الصلاة والسلام أن قبيلة بنى سليم — وهى من قبائل الأحزاب التى هاجمت المدينة — تضار المسلمين فى رحلاتهم التجارية ، فأرسل إليها زيد ابن حارثة فى جماعة من المسلمين ، وسار حتى بلغ منازل القوم ، فوجدهم قد أمعنوا فى الهرب .

وعثرت السرية بامرأة دلتهم على مكان يختبىء به بعض الأعداء ، فقصدوا إليه وأسروا عشرة منهم ، كان من بينهم زوج هذه المرأة ، ثم ساقوا نعم القوم وعادوا إلى المدينة ، فلما أطلعوا الرسول عليه الصلاة والسلام على شأن المرأة أنعم عليها وعلى زوجها بالحرية .

---

(١) موضع قرب المدينة .

الاستيلاء على عير لقريش

وأنبئ الرسول عليه الصلاة والسلام أن عيرا لقريش مقبلة من الشام تريد مكة وفيها تجارة كثيرة ، فأرسل إليها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكبا ، فتربص بها حتى استولى عليها وأسر من فيها من الرجال ، وكان من بينهم أبو العاص بن الربيع زوج السيدة زينب بنت رسول الله فاستجار بزوجه فأجارته ، وأمضى النبى والصحابة جوارها ، ثم ردوا على أبى العاص التجارة كلها لأنه كان الأمين عليها اكراما للرسول عليه الصلاة والسلام وأهله ، وأطلق الرسول أبا العاص ، ولما رجع أبو العاص إلى مكة وأدى أمانته وأعطى كل ذى حق حقه أعلن إسلامه ، وهاجر إلى المدينة .

قصاص

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام فى جمادى الآخرة زيد بن حارثة فى خمسة عشر رجلا للقصاص من بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم مقيمون بالطرف [١] ، فلما أشرفت السرية على الأعداء حسبوها طليعة لجيش إسلامى كبير ، فولوا الأدبار وتركوا أموالهم وكانت كثيرة ، فاستولى عليها المسلمون وقفلوا راجعين إلى المدينة سالمين .

إلى وادى القرى

كان زيد بن حارثة راجعاً إلى المدينة فى تجارة له ، فاعترضته بنو فزارة واستولت عليها وكادت تقتله ، فلما رجع إلى المدينة أخبر الرسول بما حدث له فأرسله فى رجب على رأس جماعة من المسلمين ليؤدب هذه القبيلة الباغية ، فسار فى جماعته حتى بلغ وادى القرى ، ودهم الأعداء وقتل منهم خلقاً كثيرا .

إلى بنى كلب

وجهز رسول الله عليه الصلاة والسلام فى شعبان من تلك السنة جيشاً قوامه

---

(١) الطرف : ماء على ستة وثلاثين ميلا من المدينة على طريق العراق .

إلى بنى كلب

وجهز رسول الله عليه الصلاة والسلام فى شعبان من تلك السنة جيشاً قوامه سبعمائة رجل من الصحابة برياسة عبد الرحمن بن عوف ، لغزو بنى كلب فى دومة[١] الجندل . وقبل خروج الجيش أوصاهم النبى عليه الصلاة والسلام بقوله :

« اغزوا جميعاً فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا[٢] ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » .

وكان من اللطائف التى تميزت بها هذه الغزوة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى عبد الرحمن بن عوف بأن يتزوج بنت رئيس القوم إذا فُتحَ عليه .

فلما بلغ الجيش منازل بنى كلب ، ويدعى رئيسهم الأصبغ بن عمرو ، دعاهم المسلمون إلى الإسلام ثلاثة أيام تباعاً ، فأسلم رئيسهم فى اليوم الثالث ، وتابعه على إسلامه السواد الأعظم من قومه ، ورضى الآخرون بدفع الجزية ، وكانوا أهل كتاب ، فقبل منهم المسلمون ذلك .

وخطب عبد الرحمن بن عوف ابنة رئيس القوم إلى نفسه فزوجها منه ، وهكذا تمت بركات الرسول عليه الصلاة والسلام .

واستمرت الحملات التأديبية قائمة ، كلما سمع الرسول عليه الصلاة والسلام بكيد كائد سارع إلى رد كيده فى نحره ، وكلما علم بتجمع أسباب جريمة بادر إلى خنقها وهى ما تزال فى مهدها ، حتى هابته العرب ، وسبقته الروعة منه شهراً بمسير الناس فى ذلك الزمان .

صلح الحُدَيْبِيَة[٣]

كان من أمر الحديبية أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه هو وأصحابه يطوفون بالمسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، فاعتزم العمرة وأذن بها

---

(١) مكان على مسيرة خمس عشرة ليلة من المدينة وخمس من دمشق .
(٢) الغلول هو إخفاء شىء من الغنيمة قبل توزيعها .
(٣) الحديبية : اسم ضاحية من ضواحى مكة متصلة بالحرم .

فى أصحابه ، ودعا من حول المدينة من أهل البوادى من الأعراب المسلمين وهم قبائل أسلم وغفار وجهينة ومزينة فتثاقل كثير منهم ،وقالوا : أنذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره[1] فنقاتلهم ، واعتلّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم .

وخرج النبى عليه الصلاة والسلام من المدينة فى شهر ذى القعدة فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ، واصطحب زوجته أم سلمة وساق معه الهدى سبعين بدنة وأشعرها[2] وقلدها[3] ليعلم الناس أنها هدى ولم يحمل معه سلاحاً ، فلما كان بذى الحليفة قال له عمر بن الخطاب :

يا رسول الله ، تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع[4] ؟

فبعث الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فلم يترك بها سلاحاً ولا خيلا إلا جاء بها ، ثم سار حتى بلغ عسفان[5] فقابله هناك بشر بن سفيان الكعبى وكان الرسول قد بعثه إلى مكة عيناً له ليتعرف أخبار قريش ، فقال له :

يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم الخيل والرجل ولبسوا جلود النمور ونزلوا بوادى طوى ، وهم يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً ، وأرسلوا خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم .

فقال عليه الصلاة والسلام : يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش؟ فو الله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[6] .

مخالفة طريق قريش

ثم سأل النبى عليه الصلاة والسلام : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، ثم سار بهم فى طريق وعرة حتى أفضوا إلى

---

(١) إشارة إلى غزوة الأحزاب . (٢) الأشعار : جرح بصفحة سنامها .
(٣) التقليد : تعليق قطعة جلد أو نعل بعنق البدنه وهو دليل على أنها هدى .
(٤) الكراع : الخيل . (٥) موضع بينه وبين مكة مرحلتان .
(٦) السالفة : صفحة العنق كنى بذلك عن الموت .

أرض سهلة ، ثم سلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحَمْض ، فلما رأت طلائع قريش غبار جيش المسلمين وأنه قد خالف طريقهم ، رجعت راكضة إلى قريش فخبرتها .

حبسها حابس الفيل

وسار الرسول عليه الصلاة والسلام حتى بلغ ثنية المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة ، فبركت ناقته ، فقال الصحابة : خلأت[1] الناقة . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة ، يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

ثم قال للناس : انزلوا . فقيل له ما بالوادى من ماء ننزل عليه ، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل به فى بئر به وشل من ماء لا يغنى شيئاً ، فغرزه فى جوفه ففاض الماء حتى أنشأوا حوله سدًّا يحول بينه وبين السيلان !

سفارة صديق

فلما اطمأن الرسول عليه الصلاة والسلام بمنزله جاءه بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى رئيس خزاعة — وهو وخزاعة كلها حلفاء الرسول ونصحاؤه — فسأله عما أقدمه ، فأخبره الرسول عليه الصلاة والسلام : أنه جاء زائراً للبيت ومُعَظِّماً لحرمته ، ولم يجىء محارباً .

فذهب بديل إلى قريش وأخبرها أن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً هذا البيت ، فأساءوا الرد عليه لما يعلمون من صلته بالرسول ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تتحدث العرب عنا بذلك

سفراء قريش

ثم بعثوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام مِكْرَز بن حفص ، فأعاد عليه الرسول ما قاله لبديل ، فرجع وخبر قريشاً بما سمع .

---

(١) خلأت : أى حرنت .

ثم بعثوا إليه الْحُلَيْس بن علقمة ، سيد الأحابيش[١] ، فلما رآه الرسول من بُعد قادماً عليه ، أمر المسلمين بأن يبعثوا الهدى فى وجهه لما كان يعلمه عنه من تعظيم البيت الحرام واحترام مناسكه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى بقلائده هاله الأمر ورجع من غير أن يصل إلى الرسول إعظاماً لما رأى ، واحتج على قريش لمنعها الرسول عن زيارة البيت ، وقال : ما على هذا حالفناكم ، وتهددهم بأن يُنَفِّر عليهم الأحابيش إن لم يخلوا بين محمد وبين البيت ، فقالوا له اجلس ، فإنما أنت أعرابى فكف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما ترضى به .

ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال له : يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إن قريشاً قد جمعت لك ولكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك .

فرد عليه أبو بكر رداً عنيفاً وقال له : أنحن ننكشف عنه ؟!

ثم جعل عروة يتناول لحية الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان كلما فعل ذلك يقرع المغيرة بن شعبة يده ويقول له : اكفف يدك عن وجه رسول الله .

ورأى عروة أثناء ذلك من تعظيم أصحاب الرسول له ومحبتهم إياه ما أذهله ؛ فهم لا يحدقون النظر إليه ، ولا يرفعون صوتهم إذا تحدثوا معه ، ولا يسقط منه شىء إلا ابتدروا إليه يلتقطونه تبركا به ، ولا يتوضأ إلا تبادروا فمسحوا وجوههم بماء وضوئه .

ثم أعاد الرسول على عروة ما قاله لمن تقدمه ، من أنه جاء زائراً ولم يجىء محارباً .

ورجع عروة إلى قريش وقد بهره ما رأى ، فقال لهم :

إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشىء أبداً ، فروا رأيكم ، وقد عرض عليكم رشداً فاقبلوا منه .

---

(١) الأحابيش : اسم يطلق على قبائل الهون والحارث بن عوف وبنو المصطلق لأنهم تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له : حبشى

أسر طلائع قريش

وكانت قريش قد أرسلت خمسين رجلا منهم ليطوفوا بمعسكر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويجيئوا بمن يستطيعون من أصحابه ، فذهبوا إلى المعسكر ورشقوه بالنبل والحجارة ، فأخذهم المسلمون أخذاً ، وجاءوا بهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

إيفاد عثمان بن عفان إلى قريش

ورأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يرسل إلى قريش أحد أصحابه الذين يعول عليهم ليبلغها ماجاء له ، واختار لهذه المهمة عمر بن الخطاب ، فاعتذر عن عدم القيام بها لما تعرفه قريش من غلظته عليهم ، ولقلة من بقى من بنى عدى قومه بمكة ، ثم أشار بإيفاد عثمان بن عفان لهذه المهمة لما له من العصبية الشديدة بمكة .

وكلف الرسول عليه الصلا والسلام عثمان بهذه المهمة ، فذهب إلى مكة ، فكان أول من قابله أبان بن سعيد بن العاص ، فأجاره ، وأردفه خلفه ، وذهب به إلى البيت الحرام وحوله عظماء قريش ، فبلغهم رسالة النبى عليه الصلاة والسلام ، فلما فرغ منها . قالوا له : إن شئت الطواف بالبيت فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم احتبسته قريش عندها ثلاثة أيام، واحتبسوا معه عشرة من الصحابة كانوا قد دخلوا مكة بإذن من الرسول عليه الصلاة والسلام .

بيعة الرضوان

وشاع بين المسلمين أن قريشاً قتلوا عثمان ومن معه من المسلمين ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا المسلمين إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة بيعة الرضوان ؛ وكانت على الفتح أو الشهادة .

وبايع النبى عليه الصلاة والسلام لعثمان فوضع يده اليمنى على يده اليسرى ، وقال : اللهم إن هذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك .

ولما جاء عثمان بعد إطلاق سراحه ، إذ أن خبر مقتله لم يكن أكثر من إشاعة ، بايع الرسول على ما بايعه عليه إخوانه .

قريش تطلب الصلح

وترامت إلى أسماع قريش أنباء البيعة ومغزاها ، فهالهم الأمر وأدركوا أن الأمر جد وأنه لا عاصم لهم من الهلاك إلا طلب الصلح ، فأرسلوا سهيل بن عمرو ليلتمس من الرسول ذلك ، وكان سهيل رجلا سمحاً ذا خلق ، فلما رآه النبى مقبلا قال : لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل .

وابتدأ سهيل كلامه ، فقال : يا محمد ، إن الذى كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا بل كنا كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به ، وكان من فعل سفهائنا فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرتهم .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى .

فبعث سهيل إلى قريش بذلك ، فخلوا سبيل عثمان ومن معه .

ثم تحدث سهيل فى الصلح فأطال ، ثم تراجعا واتفقا على شروط الصلح ، وقد كان ظاهرها ينم عن حرج شديد للمسلمين وغلبة ظاهرة للمشركين ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام قبلها لما كشف الله عن بصيرته فأراه الفوائد العظمى التى سيحصل عليها المسلمون من مهادنة قريش .

وسيأتى فى تعقيبنا على هذا الصلح ، آخر هذا الفصل ، إيضاح أكثر لهذا الموضوع .

شروط الصلح

وهذه هى أهم شروط الصلح :

١ — وضع الحرب بين المسلمين وقريش سنتين .

٢ — من جاء المسلمين من قريش مسلماً يردونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يردونه .

٣ — أن يرجع محمد هـذا العام من غير عمرة ، ثم يأتى العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش ، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه إلا السيوف فى قربها والقوس .

٤ — من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه .

وهنا تواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم .

شدة الأمر على المسلمين

ولما تراضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمرو على هذه الشروط ، وقبل أن تُكتب . عظم على المسلمين جداً أن تفوز قريش بهذه الشروط المخلة فى نظرهم بناموس الكرامة ، وغير المتعادلة مع ما تقتضيه الحال ، فقد كانت شوكة المسلمين أشد من شوكة قريش وأغلب ، وكانوا يستطيعون أن يطحنوها طحن الرحا لو أذن لهم الرسول بذلك ، فكيف ينقلب الأمر عليهم وتكون العاقبة لغيرهم ؟ !

زد على ذلك أن الصحابة كانوا يعلمون الرؤيا التى رآها الرسول من دخول المسجد الحرام ، وكانوا يعدون رؤياه بمنزلة الوحى ، فكيف لم تصدق هذه الرؤيا ؟ وقد ظل هذه السؤال يحير عمر بن الخطاب حتى قال له أبو بكر : أو قد عيَّن النبى صلى الله عليه وسلم العام ؟

عمـــر يثور

ووثب عمر فأتى أبا بكر وقال له :

أليس برسول الله ؟

قال أبو بكر : بلى !

قال عمر : أو لسنا بالمسلمين ؟

قال أبو بكر : بلى !

قال عمر : أو ليسوا بالمشركين ؟

قال أبو بكر : بلى !

قال عمر : فعلام نعطى الدَّنيَّة فى ديننا ؟

قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه [1] ، فإنى أشهد أنه رسول الله ،

قال عمر : و إنى أشهد أنه رسول الله .

ثم جاء عمر النبى صلى الله عليه وسلم وسأله ما سأل أبا بكر قبله ، فأجابه النبى : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

ولقى عمر من تلك الشروط أمراً عظيما ، وجعل يرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقول ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فجعل عمر يتعوذ بالله من الشيطان ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر إنى رضيت وتأبى !

وكان عمر رضى الله عنه يقول بعد ذلك :

ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

كتابة الشروط

ودعا النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ليكتب شروط الصلح ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمر : لا أعرف هذا (أى الرحمن الرحيم) ولكن اكتب باسمك اللهم !

---

(١) الغرز للرحل بمكان الركاب للسرج ، أى الزم أمره .

فضج المسلمون حين طلب سهيل تغيير البسملة ولكن النبى عليه الصلاة والسلام ، قال لعلى :

اكتب باسمك اللهم ، فكتبها على .

ثم أملى النبى عليه الصلاة والسلام على على :

هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل بن عمرو .

فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

وهنا ضج المسلمون ضجيجاً شديداً والنبى عليه الصلاة والسلام يشير عليهم أن اسكتوا فلا يسكتون ، وتقدم أسيد بن حضير وسعد بن عبادة فأمسكا بيد على ومنعاه أن يكتب إلا « محمد رسول الله » وإلا فالسيف بيننا وبينهم ، وجعل المسلمون يقولون : لم نعط الدَّنيَّة فى ديننا ، ولكن النبى عليه الصلاة والسلام طلب إلى على أن يمحو هذه الكلمة ويكتب اسمه واسم أبيه ، فقال على : ما أنا بالذى يمحوك .

فطلب إليه النبى عليه الصلاة والسلام أن يريه مكان الكلمة فأراه إياه فمحاها بيده الشريفة وكتب علىٌّ اسم محمد وأبيه .

وشهد على وثيقة الصلح جماعة من المسلمين فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وشهد عليها من المشركين : سهيل بن عمر ومكرز بن حفص وحويطب بن عبدالعزى

أول امتحان للصلح

وحدث أثناء كتابة وثيقة الصلح ، أن جاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، أبو جندل بن سهيل بن عمر ، سفير المشركين القائم بأمر الصلح بينهم وبين الرسول ، يرسف فى الحديد وهو مسلم ، قد آذاه أبوه وقيده وعذبه ، فلما رآه أبوه ضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد ، قد لَجَّت[1] القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا .

---

(١) « لجت » أى تمت .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : صدقت !

وجعل أبوه يجره ليرده إلى قريش وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا و بين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، و إنا لانغدر بهم .

وقد جاء حادث أبو جندل ضغثاً على إبالة بالنسبة للمسلمين ، فقد كانوا فى حال من الكرب عظيمة بسبب شروط الصلح ، فزادهم هذا الحادث كرباً على كرب ، وحملهم غمًّا فوق غم ، حتى كادوا يهلكون .

محنة

فلما فرغ الرسول عليه الصلاة والسلام من أمر الصلح ، قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فلم يقم منهم أحد ، فكرر ذلك عليهم ثلاثاً ، وهم لا يقومون ، غضباً لله ولرسوله مما حلّ بهم فى زعمهم من الهوان بسبب ما توهموه فى شروط الصلح من استعلاء المشركين على المسلمين .

مشورة موفقة

فدخل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى زوجه أم سلمة ، فذكر لها مالقى من الناس ، ثم قال : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا .

فقالت أم سلمة : يارسول الله ، اعذرهم ، فقد حملت نفسك أمراً عظيما فى الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون . ولكن اخرج يارسول الله وابدأهم بما تريد ، فإذا رأوك فعلت اتبعوك .

فعمد النبى عليه الصلاة والسلام إلى هديه فنحره ، وجلس لحلق ، فما رآه المسلمون يفعل حتى تواثبوا فنحروا ، وأخذ بعضهم يحلق رؤوس بعض متعجلين حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا .

ثم رجع النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه إلى المدينة ، وقد لاقى من الشدائد مالم يلقه فى رحلة قبلها ؛ إذ أن شدته فيها جاءت من قبل أصحابه لامن قبل أعدائه ، ولكن الله سبحانه وتعالى تدارك المسلمين برحمته ، وأنزل سورة الفتح ، يبين فيها حكمة تدبير الرسول ، ويشرح صدور المسلمين لما تم فى حادث الحديبية من نصر وفتح ، وما سيترتب عليه من إعلاء شأن الدين ونصر المؤمنين .

الفتح المبين

أو صلح الْحُدَيْبِيَةَ

ليست تسمية صلح الحديبية « فتحاً مبيناً » من عندنا وإنما هى من عند الله عز وجل ، فقد أنزل سورة الفتح فى هذا الحادث العظيم وأولها : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ووجه الإعجاز فى هذه التسمية هو أن المسلمين الذين صاحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام فى عمرة الحديبية كانوا بين رجلين : رجل عصمه إيمانه بالله ورسوله عن الشك فى صواب الخطة التى سلكها الرسول مع قريش ، وراض نفسه على أن الخير فيما اختاره الله ورسوله وإن كانت جميع الظواهر تعترض هذا الإيمان ، وعلى رأس هذا الفريق الصديق العظيم أبو بكر بن أبى قحافة ، والله سبحانه وتعالى أدرى بمن كان على رأيه من الصحابة ، وهل كان معه أحد أو أنه كان منفرداً بهذا الاعتقاد السامى النبيل .

ورجل نظر إلى الأمر نظرة مستندة إلى بوادر العقل وسياسة الحرب وعوامل الكرامة والسمعة ، فشق عليه التصديق بصواب الخطة المسالمة التى اختطها الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الأمر ، وكاد يفقد إيمانه ، ويمثل هذا الفريق عمر بن الخطاب ومن ورائه سواد المسلمين ، ويقول عمر فى هذا المقام : « ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً » .

ولم يكن ما داخل المسلمين يوم الحديبية من الشك فى صواب الخطة التى سلكها الرسول والتلكؤ فى طاعته عن خوف ، فقد بايعوه على الموت ، وقدموا أنفسهم فى سبيل الله ، وإنما كان ناشئاً من قصور مداركهم عن تفهم ما قصد إليه الرسول عليه الصلاة والسلام من مطاولة قريش وإرخاء الحبل لها ، وما تبع ذلك من الغضب لله ولرسوله أن تظن قريش والعرب من ورائها ضعفاً بالمسلمين واستعلاء لقريش .

كان المسلمون يرون أنفسهم الأغلبين ، ويبصرون عن كثب ضعف قريش وقد واتتهم الفرصة ليبطشوا بها ، فماذا يمنعهم ، وقد ركبوا أكتافها ، وهزموا طلائعها ، أن يستأصلوها ويستولوا على مكة ويضعوا أيديهم على مفاتح الكعبة والمسجد الحرام ؟

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يرجو دائماً أن تسلم قريش فيكون فى إسلامها إسلام الجزيرة العربية كلها ، ويأمن المسلمون عدوهم الكلب وخصمهم العنيد ، فيتجهوا إلى غيره محمِيّ الظهور مطمئنى النفوس ، ويضاف إلى ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعلم أن بمكة كثيرين من المسلمين الذين كتموا إسلامهم خوفاً من قريش ، فإذا دهم الجيش الإسلامى مكة أصابهم على غير علم وخلط دماء المسلمين بدماء المشركين « وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ »[(١)].

وقد قامت البراهين القاطعة التى تواترت بعد هذا الحادث على صواب التدبير الذى آثره الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلم المسلمون فيما بعد أن الخير فيما اختاره الله ورسوله ، ولكن بعد أن زلزلت نفوس واضطربت عقول .

أما تسمية هذا الحادث بأنه « فتح مبين » فلذلك وجوه :

منها أن المسلمين هزموا طلائع قريش وتكشف الأمر عن حقيقة واضحة جداً ، ألا وهى أن النصر حليف المسلمين لو قاتلهم المشركون .

ومنها أن قريشاً باءت بسوء السمعة بين العرب لصدها الرسول وأصحابه عن

---

(١) الفتح : ٢٥

المسجد الحرام ، وقد جاءوا مسالمين حتى قال رسـولهم إلى النبى وأصحابه : الحليس ابن علقمة رئيس الأحابيش أحلاف قريش : أيصد ابن عبد المطلب عن بيت الله ، وقد جاء معظماً له وتطوف به لخم وجذام ؟ ثم تهددهم بحرب إذا منعوا محمداً وأصحابه عن المسجد الحرام .

ومنها أن الهدنة التى عقدت ، رفعت عن المسلمين من قريش الذين لم يهاجروا ضغط قريش و إيذاءها إياهم ، فعبدوا الله آمنين مطمئنين ، ودخل فى دين الله بدعايتهم فى سنتى الهدنة مثل عدد المسلمين جميعاً قبل الهدنة .

ومنها أن المسلمين فرغوا من أمر قريش مؤقتا والتفتوا إلى أعراب الجزيرة و يهود خيبر فبلغوا مرادهم منهما .

من أجل هذه الوجوه وأكثر منها مما لا يتسع المقام لذكره ، سمى الله حادث الحديبية « فتحاً مبيناً » وحقاً كان كذلك !

ومن حق الصديق العظيم أبى بكر رضى الله عنه أن نختم هذا التعليق برأى أبداه فى صلح الحديبية ، وهو :

ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولـكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد صلى الله عليه وسلم و بين ربه ، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . لقد رأيت سهيل بن عمرو بعد إسلامه فى حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة والرسول ينحرها بيده ، ودعا الرسول الحلاق لحلق رأسه فأنظر إلى سهيل كلما يلقط من شعره صلى الله عليه وسلم يضعه على عينيه وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله ، فحمدت الله وشـكرته الذى هداه للإسلام .

وقف أشنع شرط

من شروط الصلح

وحدث إثر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أن جاءه أبو بصير : عتبة بن أسيد بن جارية ، وكان ممن أسلم وحبسه المشركون بمكة وعذبوه، فكاتب أهله الرسول أن يرده عليهم وفاء بشروط الصلح ، وأرسلوا رجلا من بنى عامر ومعه مولى لهم ليتسلماه ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

« يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ماقد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » .

فانطلق معهما حتى إذا كانوا بذى الحليفة[1] ، انتهز أبو بصير نوم صاحبيه فأدنى وثاقه من سيف أحدهما وتحامل عليه حتى قطع السيف الوثاق ثم انتزع السيف وقتل العامرى ، وهرب المولى راجعاً إلى المدينة فخبر النبى بما حدث واستجار به فأجاره .

وجاء أبو بصير على أثره ، وقال للرسول عليه الصلاة والسلام : وفت ذمتك ، أسلمتنى إلى القوم ، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : اذهب حيث شئت .

فخرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر طريق قريش فى تجارتهم إلى الشام ، وسمع به المسلمون الباقون بمكة فتسللوا إليه ، وبلغ عددهم سبعين رجلا أخذوا يقطعون الطريق على تجارة قريش ويسلبون أموالها ، ويقتلون من فى التجارة من رجالها ، فضجت قريش واستغاثت بالنبى عليه الصلاة والسلام منهم ، وناشدته الرحمة أن يدعوهم إليه ليقيموا عنده فليست لها بهم من حاجة.

وهكذا نسخ الله أعنف شرط وأغلظه وقعاً على نفوس المسلمين من شروط صلح الحديبية ، وهكذا تحقق وعد رسول الله للمستضعفين من المسلمين فى قريش من أن الله سيجعل لهم مخرجاً مما هم فيه من ضيق .

---

(١) قرية بينها وبين المدينة ستة أميال .

أمر المهاجرات

وهاجرت إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، أم كلثوم بنت عقبة بن معيط ، فخرج فى أثرها أخواها عمارة والوليد حتى قدما إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلبان ردها عليهما وفاء بالعهد ، فقالت أم كلثوم :

يا رسول الله ، إنى امرأة و إن رجعت إليهم فتنونى فى دينى ! فأنزل الله حكمه فى هذه القضية ، يقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »[١] .

وكان الامتحان الذى فرض عل المهاجرات هو أن تحلف المهاجرة أنها ماخرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين ، وما خرجت إلا حبًّا لله ولرسوله .

وقد سارع المسلمون بعد نزول هذه الآية إلى تطليق زوجاتهم المشركات .

الدعوة عامة

مخاطبة الملوك والأمراء داخل الجزيرة العربية وخارجها

أرسل الله محمد عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، داخل الجزيرة العربية ، وخارجها ، زمانه الذى عاش فيه وما يليه من الأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، و يرد الناس إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون .

---

(١) الممتحنة : ١٠

وقد كان من خيرات صلح الحديبية ، تمكين الرسول عليه الصلاة والسلام من تعميم دعوته و إبلاغ رسالته إلى الناس جميعاً ، من عرب وعجم ، وسود و بيض ، ومن أهل المشرق وأهل المغرب على السواء ، وكان الملوك الكبار فى زمن الرسالة ممن يتصل بهم العرب ويعرفونهم ثلاثة : كسرى ملك الفرس ، وقيصر ملك الروم ، والنجاشى ملك الحبشة ، وكان لهؤلاء الملوك الثلاثة نواب عنهم يحكمون طائفة من المقاطعات البعيدة عن صلب المملكة التى يتبعونها ، ولبعضهم من المظاهر والمراسم ما عد فى زمنه ملكا على من يليه من رعيته ، ولبعض لقب الإمارة . وقد آثر الرسول عليه الصلاة والسلام خطابهم جميعاً ليدعوهم إلى الإسلام ، وأرسل إليهم رسلا من أصحابه يحملون كتبه ؛ فمن الملوك والأمراء من استجاب للدعوة فأسلم بذاته ، ولم يجد من نفسه الشجاعة لإظهار إسلامه ودعوة شعبه إليه ، ومنهم من أخذته العزة بالإثم فقتل الرسول أو أساء إليه ، ومنهم من وقف بَيْنَ بَيْنَ ، لم يقرب ولم يبعد ، ولكنه تقبل خطاب الرسول وحامله بقبول حسن .

وسنورد فى هذا المقام نصوص الكتب الشريفة وما جاء فيها من أخبار وآثار ؛ ففيها عظة وعبرة ، وفى الكتب نفسها حكمة وبلاغة .

كسرى ملك الفرس

وجه النبى عليه الصلاة والسلام ، عبد الله بن حذافة السلمى إلى كسرى ملك الفرس بكتاب الدعوة إلى الإسلام ، يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس » .

وقد كَبُرَ على كسرى أن يخاطبه أحد العرب هذا الخطاب ، فقال : كيف يكتب إلى هذا وهو عبدى ! ثم مزَّق الكتاب الكريم ، وكتب إلى باذان عامله باليمن أن يرسل نفراً من عنده إلى محمد ليأتيه به ، فأرسل باذان اثنين من قبله إلى الحجاز ، فمرا بالطائف وقابلا نفراً من قريش وأنهيا إليهم مهمتهم ففرحت قريش بذلك ، وقالوا قد نصب ملك الملوك لمحمد ، ثم دلوا المبعوثين على مقر النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، فذهبا إليها وقابلا الرسول عليه الصلاة والسلام وبلغاه الرسالة ، فأخبرهما بما أوحى الله إليه به وهو أن ابن كسرى قتل أباه الذى أرسلهما وخلفه على ملكه . وعاد الرسولان إلى باذان فأخبراه بما سمعا من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فآثر الانتظار ليتثبت من صحة هذه النبوءة ، فإن كانت حقاً كان لها من الشأن مالها ، وإن كانت كذباً جرد على محمد جيشاً جراراً .

وبعد قليل جاءه كتاب من الملك الجديد بما حدث من الأحداث فى الملك ، ويطلب إليه أن لا يتخذ أى تدبير ضد محمد حتى يوافيه بجديد فى هذا الشأن . وقد أسلم باذان ومن معه من الفرس فى اليمن لتصديق الأنباء التى أخبرهم به الرسول قائلا : ليس هذا بملك وإنما هو نبى .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد دعا على كسرى حين علم أنه مزق كتابه أن يمزق الله ملكه ، فاستجاب الله دعاء رسوله ومزق الإسلام مملكة الفرس شر ممزق ، وأحالها أرضاً إسلامية عز بها الإسلام وساد .

قيصر ملك الروم

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام ، دحية الكلبى إلى قيصر ملك الروم بكتاب الدعوة ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، السلام على

من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، و إن تتول فإن إثم الأكارين[1] عليك .

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون[2] » .

وكان قيصر هذا رجلا قد قرأ الكتب ووقف على ما يعلمه أحبار المسيحية من أن نبي العرب الذى سيملك دينه ما تحت قدميه ، والذى بشر به موسى وعيسى ، قد آن أوان ظهوره ، فمال إلى الإسلام ، ولكنه أراد أن يمتحن عظاء مملكته فدعاهم ومعهم الأحبار والعلماء وقال لهم :

يامعشر الروم ، إنى عارض عليكم أمراً فانظروا فيه ، فقالوا : ما هو ؟ قال : تعلمون والله إن هذا الرجل لنبى مرسل ، إنا نجده فى كتابنا ، نعرفه بصفته التى وصف لنا ، فهَلُمَّ فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا ، فنخروا نخرة رجل واحد ، ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا ثائرين فوجدوها مقفولة،وهنا خافهم قيصر على نفسه ، فقال لهم : يامعشر الروم ، إنى قد قلت لكم هذه المقالة لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذى قد حدث ، وقد رأيت منكم الذى أُسَرُّ به . فوقعوا له ساجدين .

بين قيصر وأبى سفيان

وحدث أن أبا سفيان خرج بتجارة فى نفر معه من قريش إلى غزة ، بعد صلح الحديبية ، واتفق أن كان قيصر قد انتصر على فارس واسترد الصليب الأعظم ، وجاء القدس ليشكر الإله على هذه النعمة ، وأصبح ذات يوم مهموماً تعلو وجهه سحابة كدر ، فسأله بطارقته عما به،فذكر أنه رأى رؤيا تنبيء أن مُلْكَ الختان ظاهر ، فقالوا

---

(١) الأكارين : أى الفلاحين .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

ما نعلم أمة تُخْتتَنْ إلا اليهود وهم فى سلطانك ، فأْمُرْ بضرب أعناقهم جميعاً لتستريح من همِّك .

و بينما هم فى هذا الحديث جاءه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يحدِّث بظهور دين جديد فى الجزيرة العربية ، يدعو إليه محمد بن عبد الله ، فاستخبره قيصر الخبر فأخبره ، ثم أراد مزيداً من البيان ، فطلب إلى أعوانه أن يأتوه بأناس أكثر علماً بهذا الدين وأمس رحماً بصاحبه ، فوقع الأعوان على أبى سفيان وصحبه ، وأحضروا إلى قيصر ، فسألهم هل أنتم من رهط هذا الرجل ؟ — يقصد إلى النبى عليه الصلاة والسلام — قالوا : نعم . فسأل عن أدناهم رحماً به . فقال أبو سفيان : أنا أدناهم رحماً به ، فقرّبه إليه وأجلس من معه خلف أبى سفيان وقال لهم : إنى سائل هذا الرجل عن أشياء فإن صدق فصدقوه و إن كذب فكذبوه .

قال أبو سفيان — زعيم أعداء الإسلام وعدو محمد الألدّ :

والله ، لو كذبت ما ردوا على ، ولكننى كنت امرأ سيداً أتكرّم عن الكذب.

وقال قيصر يسأله :

أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ، كيف نسبه فيكم ؟

قلت : محض ، أوسطنا نسباً .

— هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول، فهو يتشبه به ؟ قلت : لا .

— هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوه عليه ؟ قلت : لا

— أخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟

قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

قال : فأخبرنى عمن تبعه أيحبه و يلزمه ، أم يقليه و يفارقه ؟ قلت : ما تبعه رجل ففارقه .

قال : فأخبرنى كيف الحرب بينكم و بينه ؟ قلت : سجال ، يُدَال علينا ونُدَال عليه .

قال : فأخبرنى ، هل يغدر ؟ قلت : (ولم أجد شيئاً مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها) لا ، ونحن منه فى هدنة ولا نأمن غدره ، فوالله ما التفت إليها منى ، ثم كرَّ على الحديث .

قال : سألتك ، كيف نسبه فيكم ، فزعمت أنه محض ، من أوسطكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبى إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً .

وسألتك ، هل كان أحد من أهل بيته يقول ما يقوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا ، وسألتك هل كان له فيكم مُلْك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه ، فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه ، فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان ، وسألتك عمن يتبعه ، أيحبه ويلزمه ، أم يقْليه ويفارقه ؟ فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه ، وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت ، أن لا ؛ فلئن كنت صدقتنى عنه ، ليغلبن على ما تحت قدمى هاتين ، ووددت أننى عنده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك .

قال أبو سفيان : فخرجت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى ، وأقول : أى عباد الله ، لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة[١] ، أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم !

المقوقس والى مصر

وأرسل النبى الكريم حاطب بن أبى بلتعة بكتابه إلى المقوقس والى مصر من قبل هرقل . ونصه كنص كتابه الشريف إلى قيصر مع استبدال كلمة « القبط » بالأكارين .

وكان المقوقس يقيم حينئذ بالإسكندرية ، فلما مثل بين يديه حاطب بن أبى بلتعة وترجم له خطاب الرسول العربى ، قال لحاطب :

---

(١) أبو كبشة : كنية زوج حليمة مرضعة الرسول وكانت قريش تطلقها على الرسول من باب السخرية .

ما منعه إن كان نبيًّا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟

فقال حاطب على الفور : وما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أراد قتله فيهلكهم الله ؟

فقال المقوقس : أنت حكيم جاء من عند حكيم ، ثم أخذ يسأل حاطباً عن رسالة النبى عليه الصلاة والسلام وما يدعو إليه من خلق وتعاليم . ولما استوعب ذلك كله ، قال :

إنى قد نظرت فى أمر هذ الملك فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة : إخراج الغائب المستور والإخبار بالنجوى ، وسأنظر .

ثم أجاب عن كتاب النبى عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب :

من المقوقس عظيم القبط إلى محمد بن عبد الله ، سلام عليك . أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيًّا قد بقى وكنت أظنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط وبثياب ، وأهديت إليك بغلة تركبها ، والسلام .

وقد اصطفى الرسول الكريم إحدى هاتين الجاريتين لنفسه واسمها مارية ، فولدت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، وأهدى الجارية الثانية لحسان بن ثابت شاعر الرسول ، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان ، وكان شاعراً كذلك .

النجاشى ملك الحبشة

وأرسل النبى صلوات الله وسلامه عليه عمرو بن أمية الضمرى بكتابه إلى النجاشى ملك الحبشة وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة ، سلام ، أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ،

وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيــده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى .

وقد أكرم النجاشى رسول النبى عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن أمر الرسول جديداً عليه ؛ فقد كان عليما به منذ أوى مهاجرو المسلمين من مستضعفى قريش إليه فراراً بدينهم من جبروت قريش وطغيانها .

وذكر النجاشى لعمرو بن أمية خيراً عن الإســلام ، بل روى « الطبرى » فى تاريخه أنه أسلم وأرسل ابنه فى ستين من وجهاء الحبشة ليبايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، فغرقوا فى البحر .

النجاشى وكيل النبى

فى زواجه من أم حبيبــة

وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد طلب إلى النجاشى ، على لسان رسوله إليه ، أن يخطب إليه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب بعد أن فارقت زوجها الذى هاجر معها إلى الحبشة مسلماً وارتد عن الإسلام ، فأرسل النجاشى إلى أم حبيبة وأعلمها نبأ الخطبة فوافقت عليها فرحة مستبشرة ، وقام النجاشى بتزويجها من الرسول وأصدقها نيابة عنه بأربعمائة دينار ، وأهدى إليها طيباً ولباساً .

إعادة مهاجرى الحبشة

وكان من المهمات التى كلف الرسول عليه الصلاة والسلام عمر بن أمية الضمرى بها ، فى رحلته إلى الحبشة ، إعادة من بقى فيها من مهاجرى المسلمين بعد أن أمن الله المسلمين ، وجعل لهم من المدينة حصناً حصيناً وموطناً كريماً .

إلى جميع الأمراء والأقيال

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتباً مماثلة للكتب السابقة إلى جميع الأمراء والأقيال ، نذكر منهم : أمير بصرى وقد قتل رسول النبى إليه فى الطريق ، والحارث بن أبى شمر أمير دمشق من قبل هرقل فأساء إلى الرسول ، والمنذر بن ساوى ملك البحرين ، فأسلم وتابعه على إسلامه كثيرون من رعيته ، وملكى عمان جيفر وعبد ابنى الجلندى فأسلما ، وهوذة بن على ملك اليمامة ، فأبى ومات على الأثر .

السنة السابعة الهجرية

فتح خيبر (١)

كانت خيبر حصن اليهود بالحجاز ، وأهلها أقوى اليهود شكيمة وأكثرهم مالا ، وكانوا إلى ذلك أشد اليهود عداوة لله ولرسوله ، وقد آزروا الأحزاب التى حاصرت المدينة ، وأبدوا من ضروب الغدر والخيانة ما هم معروفون به طبعاً وتخلقاً ، وكان مما لابد منه لأمن المسلمين و إراحة بالهم أن يناجزوا هؤلاء اليهود و يقضوا على شوكتهم ، ليأمنوا كيدهم و يتفرغوا إلى ما هم عازمون عليه من نشر الإسلام فى الجزيرة العربية كلها بعد أن هادنوا قريشاً واكتفوا شرها إلى حين .

ففى المحرم من السنة السابعة الهجرية ، وبعد الرجوع إلى المدينة من الحديبية بقليل ، أمر النبى عليه الصلاة والسلام بإعداد العدة لغزو خيبر ، واستعمل على المدينة نُمَيْلَةَ بن عبد الله الليثى ، ودفع رايته إلى على بن أبى طالب وكانت بيضاء .

ولما أشرف الرسول عليه الصلاة والسلام على خيبر ، قال لأصحابه : قفوا ، ثم قال :

اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرَضين وما أقللن ، ورب الشياطين

---

(١) خيبر تطلق على مجموعة حصون لليهود على بعد مائة ميل من المدينة إلى الشمال الغربى .

وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله .

وكانت خيبر مجموعة حصون منفصلة بعضها عن بعض ، ومنقسمة إلى ثلاثة أقسام ، وهى :

القسم الأول ، يسمى حصون النطاة وهى تتألف من : حصن ناعم ، وحصن الصعب ، وحصن قلة .

والقسم الثانى ، يسمى الكتيبة وهو يتألف من : حصن أبى ، وحصن البرىء .

والقسم الثالث يسمى الشق ، وهو يتألف من : حصن القموص ، وحصن الوطيح ، وحصن السُّلالم .

ونزل الرسول عليه الصلاة والسلام بجيشه بواد يقال له الرجيع ، بين خيبر وبين منازل غطفان ، ليحول بين غطفان وبين إمداد خيبر لأنهم كانوا حلفاء ، وقد تحركت غطفان لنجدة خيبر حين علمت بمقدم الجيش الإسلامى ، ولكنها حين غادرت منازلها سمعت ضوضاء فيها ، فكرت راجعة لتوهمها أن المسلمين قد ناجزوها ، وكانت غطفان على حرب دائمة ومناوشات متصلة مع المسلمين .

وكان أول حصن حاصره الجيش الإسلامى ، حصن ناعم ، وقد ظل الحصار سبعة أيام كان النبى عليه الصلاة والسلام أثناءها يعطى الراية كل يوم لواحد من كبار الصحابة ، فأعطاها يوماً لأبى بكر و يوماً لعمر وفى الأيام الباقية كان يعطيها لآخرين ، وحدث أن كانت الراية يوماً مع أحد المهاجرين وخرجت كتائب اليهود يقدمهم ياسر ، فكشف من أمامه من المسلمين حتى انتهى إلى رسول الله فى موقفه ، فاشتد ذلك عليه وبات مهموماً .

فلما كانت الليلة السابعة من الحصار وكان عمر بن الخطاب رئيس الحرس أُتِىَ برجل من اليهود فى جوف الليل فأمر بضرب عنقه ، فقال : اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه ، فأمسك عنه وقاده إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، فقال له : ما وراءك ؟

فقال : إذا أمنتمونى على حياتى فإنى أدلى إليكم بأخبار أنتم فى أشد الحاجة إليها وفيها نجاحكم ، فأمنوه على حياته ، فقال : إن القوم قد أجهدهم الحصار ، وهم يرسلون الأطفال إلى حصن آخر إذ أنهم قرروا أن يناجزوكم غداً ، فإذا فتح الله عليكم هذا الحصن ، فإنى أدلكم على بيت فيه منجنيق ،[١] ودبابات ،[٢] وسيوف ودروع ، تعينكم على فتح بقية الحصون .

حامل راية المسلمين

رجل يحب الله ورسوله ويحبانه

وقد بات الجيش الإسلامى معدًّا نفسه لخوض المعركة ، وقال النبى عليه الصلاة والسلام فى العشية : سأعطى الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله و يحبانه ، فراح كل ذى شأن من الصحابة يمنى نفسه أن يكون هو الرجل المختار .

فلما أصبح الرسول عليه الصلاة والسلام والتف أصحابه حوله ، سأل عن على ابن أبى طالب ، فقيل له : إنه يشكو وجعاً بعينيه ، فدعا به فجاء وهو يضع على عينيه عصابة ، فتفل عليه الصلاة والسلام فيهما ، ودعا له بالشفاء ، فعوفى من وجعه كأن لم يكن بعينيه شىء ، ولم يرمد طوال حياته بعد ذلك وأعطاه الرايةوسار على رأس الجيش إلى الحصن ، فوجد اليهود على أهبة القتال ، وخرج واحد منهم يطلب المبارزة فقتله أحد المسلمين ، ثم خرج فارس اليهود الأول مرحب وهو فى أكمل لباس للحرب وكان يرتجز بشعر ارتجله ، وطلب المبارزة ، فبرز إليه على بن أبى طالب وقتله ، وبرز من بعده أخوه ياسر ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، وعلى أثر ذلك هجم المسلمون على اليهود وأعملوا فيهم السيوف فولوا الأدبار ، وغلبهم المسلمون على الحصن ففروا إلى الحصن الثانى .

---

(١) المنجنيق : آلة حرب تقذف العدو بالحجر والنفط الملتهب .

(٢) الدبابة فى ذلك الزمن عبارة عن شبه حجرة من الخشب أو الجلد يضعها الجيش المهاجم لصق جدار الحصن ويقف فيها الرجال لنقب جدار الحصن وهم آمنون .

سقوط الحصون

حصناً بعد حصن

وتتبع الجيش الإسلامى الحصون اليهودية حصناً إثر حصن ، يحاصرها ويرميها بالمنجنيق إن استعصت عليه ، ويحول بينها وبين الماء حتى استولى عليها جميعاً بالقوة ، ماعدا حصنى الوطيح والسُّلالم فإنهما فتحا صلحاً ، وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة جداً من مآكل وملابس ، وعدة الحرب على اختلاف أنواعها . ويقول بعض الصحابة إن المسلمين لم يملأوا بطونهم من طعام إلا بعد فتح خيبر .

وقد استشهد من المسلمين فى غزوة خيبر خمسة عشر رجلا ، وقتل من اليهود نحو المائة .

وقد أذن النبى عليه الصلاة والسلام لليهود الذين لم يجلوا عن ديارهم أن يبقوا فيها ، ويقوموا على شئون النخل والزراعة لقاء حصة لهم ، على أن يخرجهم الرسول منها إذا شاء ، وقد ظلوا على هذا العهد حتى أجلاهم عمر بن الخطاب بعد أن علم أن النبى عليه الصلاة والسلام قال فى مرضه الذى توفى فيه : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان .

يهودية غادرة

تسم النبى ويسعها حلمه

ولما انتهت الحرب واطمأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أهدت إليه زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم اليهودى ، شاة مشوية مسمومة ، وكانت قد سألت أى عضو من الشاة أحب إلى محمد ؟ فقيل لها : الذراع ، فزادتها سماً ، ثم جاءت فوضعت الشاة بين يديه ، وكان معه من أصحابه بشر بن البراء ، فتناول النبى عليه الصلاة والسلام الذراع ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، فلفظها وقال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم . أما بشر فازدرد ما أكل فمات ، ثم دعا بالمرأة فاعترفت ، فقال لها ما حملك

على ذلك ؟ قالت بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان نبيًّا فسيُخْبَر ، و إن كان ملكا استرحت منه .

وقد وسعها حلم النبى عليه الصلاة والسلام فعفا عنها .

تشريعات مهمة

نهى النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين فى غزوة خيبر عن أربعة أشياء هى :

١ — الاتصال بالسبايا قبل الاستبراء .

٢ — أكل لحم الحمر الأهلية .

٣ — أكل كل ذى ناب من السباع .

٤ — بيع المغانم حتى تقسم .

وكانت تصحب الغزوة نساء ، فمن يعمل التمريض للجرحى ، و إعانة الجيش بما هو فى استطاعتهن ، فأعطاهن الرسول نصيباً من الغنائم لا يبلغ سهم المقاتلين .

و يؤخذ من هذا أن عادة اصطحاب الجيوش بعض النسوة لإسعاف الجرحى وأداء الخدمات التى لا يتفرغ لها الرجال أثناء القتال، عادة قديمة جدًّا .

زواج النبى

بصفية بنت حُيَيّ بن أخطب

وتزوج النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد انتهاء القتال فى خيبر ، بصفية بنت حُيَيّ ابن أخطب أحد زعماء اليهود بعد أن أسلمت ، وجعل مهرها عتقها .

احتيال ودهاء

ولما فتحت خيبر جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم الحجاج بن عِلاط السُّلَمى ، واستأذنه فى السفر إلى مكة ليستخلص أمواله من التجارة فيها ، واستأذن النبى الكريم فى أن يقول ما يرضى قريشاً من الكذب عليه — أى على الرسول — حتى يعينوه على جمع ماله ، فأذن له .

وجاء الحجاج مكة وقابل زعماءها وهم متلهفون على سماع أخبار الرسول فى خيبر: حصن الحجاز ريفا ومنعة ورجالا ، فلما سألوه عما عنده من الأخبار ، وهم لا يعلمون إسلامه ، قال لهم : إن محمداً هُزم هزيمة منكرة ، وقتل أصحابه وأُسر ، وقد استحسن اليهود أن يأتوا به إليكم لتقتلوه بمن أصاب من رجالكم ، وإنى قد جئت لآخذ أموالى فأتجر بها فى خيبر ، فأعينونى على ذلك حتى لا تفوتنى الفرصة .

فصاحت قريش صيحات الفرح والسرور ، وجمعوا له أمواله جمعاً حثيثاً ، وعلم العباس بن عبد المطلب بالخبر فأرسل غلاماً له إلى الحجاج ليتعرف منه الحقيقة فطلب إليه أن يبلغ سيده أن يلقاه خفية فى مكان عينه ، فلما التقيا قال له : إن ابن أخيك قد فتح حصون خيبر كلها ، واستولى على ما فيها من أموال ، وقد تركته مُعَرِّسًا بابنة ملكهم ، فاكتم على ذلك ثلاثة أيام حتى أفوت الطلب ، ثم قل ما بدا لك !

وفى اليوم الثالث لبس العباس أفخر لباسه وتطيب وذهب إلى البيت الحرام ، يطوف به وهو هاش باش ، فقالت قريش: هذا والله هو التجلد على المصيبة يا أبا الفضل !

فقال : وأية مصيبة ؟ قالوا : مصيبة محمد ، وأسره واستقدامه إلى مكة ليقتل بها .

فقال العباس : هذا كذب ، وقد فتح محمد خيبراً ، وهو الآن معرس ببنت ملكهم

فقالوا : من أخبرك بهذا ؟

قال : الذى أخبركم بضده ، وقد كذب عليكم لتعينوه على جمع أمواله من غرمائه ، وهو فوق ذلك ممن آمن بمحمد .

فقالوا : أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن . ثم لم يلبثوا أن جاءتهم الأخبار من كل جانب بالحقيقة ، فماتوا غيظاً وكمداً .

تسليم أهل فَدَك

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ، قذف الله الرعب فى قلوب أهل فَدَك حين بلغهم ما أوقع الله بأهل خيبر ، فبعثوا إلى الرسول يصالحونه على

النصف من غلة أموالهم ، فقبل منهم ذلك ، فكانت فدك لرسول الله خاصة لأنه لم يوجف[١] عليها بخيل ولا ركاب .

وأهل تيماء

وكذلك فعل يهود تيماء ، فرضوا بدفع الجزية ، ولم يظهروا خلافاً أو يقدموا على حرب .

فتح وادى القرى

ولكن يهود وادى القرى لم يتعظوا بما حل بيهود خيبر ، وأبوا أن يستسلموا أو يصالحوا المسلمين ، فسار إليهم الجيش الإسلامى وعلى رأسه النبى عليه الصلاة والسلام ، وحاصروهم ثم قاتلوهم وهزموهم ، وقد قتل منهم أحد عشر رجلا ، وغنم منهم المسلمون مغانم كثيرة ، وقد انتهى بهم الأمر إلى أن يقبلوا الوضع الذى قبله أهل خيبر ، فيزرعوا الأرض ويخدموا النخل ولهم نصف الغلّة .

عودة النبى إلى المدينة

ثم عاد النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سالماً غانماً ، وعاد أصحابه إليها معه ، وقد فتح الله عليهم ورزقهم وأغناهم ، وأراح بالهم من عدو ماكر خبيث .

مهاجرو الحبشة يعودون

قدمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كلف عمرو بن أمية الضمرى ، حين أرسله بكتابه الكريم إلى النجاشى ، أن يطلب إلى المهاجرين المسلمين فى الحبشة أن يعودوا إلى المدينة ، وقد فعلوا .

وكان مقدمهم إلى المدينة إثر عودة النبى عليه الصلاة والسلام إليها من غزوة خيبر .

---

(١) يوجف : يجتمع .

وكان بين العائدين جعفر بن أبى طالب ، وقد فرح الرسول بلقائه فرحاً شديداً ، وقبّله بين عينيه وقال :

ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ !

وكان عدد هؤلاء المهاجرين العائدين من الحبشة فى هذه الدفعة ستة عشر رجلا .

حملات تأديبية

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الأشهر التى أعقبت عودته إلى المدينة ، حملات تأديبية إلى جهات شتى ، لتؤدب الأعراب الذين يعترضون طريق المسلمين ، أو يهمون بالإغارة على المدينة .

إلى هوازن تربة

ففى شعبان من هذه السنة أرسل عليه الصلاة والسلام عمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلا من المسلمين ، إلى فخذ من هوازان يقيمون فى مكان يسمى تربة[(١)] ، فلما تسامع القوم بسير المسلمين إليهم رحلوا من مكانهم هائمين على وجوههم ، فرجعت السرية من غير أن تلقى كيداً .

إلى بنى مرة بفدك

ووجه النبى عليه الصلاة والسلام بشير بن سعد الأنصارى ، فى نفر من الصحابة ، إلى بنى مرة النازلين بقرب فدك ، فساق نَعَم القوم ولم يصادف منهم أحداً ، ولما جاء القوم الصريخ تبعوا بشيراً وأصحابه فى جمع غفير يفوق عدد من معه أضعافاً مضاعفة ، وظلوا يناوشونهم طوال الليل ، وفى الصباح هجم المشركون على جماعة المسلمين فقتلوهم جميعاً ما عدا رئيسهم فإنه ترك جريحاً ، وقد ظن القوم أنه قتل فتحامل على نفسه وعاد إلى المدينة يخبر بالواقعة .

---

(١) تربة : مكان على مسير يومين من مكة .

إلى أهل الميفعة

وأرسل النبى عليه الصلاة والسلام سرية عددها ثلاثون ومائة مقاتل ، برياسة غالب بن عبيد الله الليثى ، إلى أهل الميفعة [١] ، وكانوا قوماً مشاغبين ، فأحسن المسلمون تأديبهم ، وأوغلوا فيهم قتلا وأسراً .

وحدث أثناء المعركة أن طارد أسامة بن زيد رجلا من المشركين وضيق عليه الخناق ، فلما أحس المشرك الموت قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحسب أسامة أن المشرك يقولها اتقاء للقتل لا إيماناً فقتله ، فلما عادت الحملة إلى المدينة وعرف الرسول عليه الصلاة والسلام الخبر ، أنكر هذا العمل وقال لأسامة :

أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله ؟ ! .

فلما قال أسامة : يا رسول الله ، إنما قالها متعوذاً من القتل ، قال عليه الصلاة والسلام : فهلاَّ شققت عن قلبه ، فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ .

وقد أنزل الله فى هذه الواقعة قوله تعالى :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ [٢] »

وقد عدَّ النبى عليه الصلاة والسلام فعل أسامة من قبيل القتل الخطأ ، وأمره بعتق رقبة كفارة عن عمله .

إلى غطفان

وكان عينية من حصن الفزارى رئيس فزارة قبل أن يسلم من أكبر المشاغبين وأكثرهم تجنياً على المسلمين ، وقد انتهى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أنه تآمر مع جماعة من غطفان ، يقيمون بأرض تسمى يمن وجبار بقرب خيبر ، للإغارة على

---

(١) الميفعة : مكان على بعد ثمانية برد من المدينة .
(٢) النساء : ٩٤ .

المدينة ، فأرسل عليه الصلاة والسلام بشير بن سعد فى شوال من هذه السنة إليهم على رأس ثلثمائة مقاتل ، وكان الجيش الإسلامى يسير الليل ويكمن النهار ، حتى فاجأ القوم فأصاب نعمهم واستاقها ، وخاف القوم المسلمين فركبوا رءوسهم هرباً وفرقاً .

عمرة القضاء

وجاء شهر ذى القعدة من هذه السنة ، وبذلك حل موعد عمرة القضاء بعد انتهاء العام المضروب فى صلح الحديبية بين النبى عليه الصلاة والسلام وبين قريش ، فخرج معتمراً ومعه أصحابه الذين كانوا شهود الحديبية ، واستخلف على المدينة عويف بن الأخبط الديلى ، وأمر المسلمين بحمل سلاحهم وخيلهم ، وجعل على الخيل محمد بن مسلمة ، وعلى السلاح بشير بن سعد .

وقد اتخذ النبى عليه الصلاة والسلام هذه التدابير عملا بالأحوط ، لأنه كان يخشى أن تغدر قريش به ، فلما بلغ مر الظهران بقرب مكة شاهد نفر من قريش المسلمين وهم فى سلاحهم ، فراعهم ذلك وهرعوا إلى قومهم ينذرونهم ، فجاءه وفد ليَخْبُرَ خَبْرَهُ وقال قائلهم :

والله يا محمد ما عُرِفْتَ صغيراً ولا كبيراً إلا بالوفاء ، وإن قريشاً لم تحدث حدثاً .

وقد طمأنهم الرسول عليـه الصلاة والسلام ، وذكر لهم أنه لا يدخل الحرم بالسلاح ، فرجع أولئك النفر إلى قريش وأخبروها بما وعدهم الرسول إياه .

وحمل الفضول أهل مكة على الاصطفاف بجوار دار الندوة ، ليشاهدوا الرسول وجيشه ، وكان الرسول ممتطياً راحلته ، وأمامه عبد بن رواحة يهتف قائلا : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم يرتجز بأبيات لطيفة من الشعر فيها عنف على قريش واستخفاف بها .

ولمـا دخل الرسول عليه الصلاة والسلام وجيشه مكة ، خرج أهلها منها كراهية أن يجتمعوا به فيها .

وأرجفت قريش أن محمداً وأصحابه يلقون جهداً ، فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام عضده الأيمن من باب شكر الله على ما أنعم عليه من نعمة الصحة والقوة والعافية ، وقال :

رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة .

ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت ، واستلم الركن اليمانى ، مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف .

وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ثلاثة أيام ، ثم جاءه حويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش ، فقالوا له : إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست [1] بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟

قالوا : لا حاجة لنا فى طعامك ، فاخرج عنا . فخرج الرسول وفاء بعهده .

تصديق الرؤيا

وقد نزلت فى هذه العمرة الآية الشريفة :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً [2] » .

وهكذا حقق الله رؤيا نبيه التى رآها قبل ذلك العام ، وملأ قلوب المشركين رعباً من الجيش الإسلامى وما هو عليه من مظاهر القوة والفتوة ؛ أما الفتح القريب الذى ورد فى الآية الشريفة فهو فتح خيبر .

---

(١) أعرس الرجل . إذا دخل على زوجه ، وسيرد تفسير هذه العبارة فى فصل تال .
(٢) الفتح : ٢٧

سبعة أعوام

وقد كانت عودة الرسول إلى مكة إثر سبعة أعوام تقريباً من خروجه منها مهاجراً إلى المدينة ، وكان من نعم الله عليه أنه خرج من مكة خائفاً يترقب ، ورجع إليها عزيزاً كريماً ، وسيداً مطاعاً .

زواج النبي

من السيدة ميمونة

وأثناء كان النبي عليه الصلاة والسلام بمكة ، تزوج من السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهى أرملة عمه حمزة بن عبد المطلب وأخت زوج عمه العباس بن عبد المطلب ، وقد وكلت عمه العباس عنها فى هذا الزواج ، وأصدقها النبى عليه الصلاة والسلام أربعمائة درهم ، وهى آخر أمهات المؤمنين ، فلم يتزوج الرسول بعدها .

وقد خلف النبى مولاه أبا رافع بمكة ليأتى إليه بالسيدة ميمونة ، فوافاه بها فى « سرف »[1] ، فبنى بها الرسول عليه الصلاة والسلام .

إسلام بطلى قريش

خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وفى هذه السنة شرح الله للإسلام صدرى بطلى قريش : خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص ، فأقفر منهما نادى الكفر وعمرت بهما مساجد يذكر فيها اسم الله ، وانهدّ بفقدهما ركن المشركين ، وعز بهما الإسلام والمسلمون .

سيف الله

كان الوليد بن الوليد أخو خالد بن الوليد من المسلمين الأولين ، وكان كثيراً ما يقرأ فى وجه النبى عليه الصلاة والسلام ويسمع من حديثه ما يفيد الرغبة فى أن يهدى الله

---

(١) موضع قرب التنعيم .

للإسلام أخاه خالداً ، فلما حدثت عمرة القضاء افتقد الوليد أخاه ليرغبه فى الإسلام فلم يجده لأن رؤساء قريش غادروا مكة حين دخلها النبى وأصحابه ، فترك له خطاباً يخبره فيه أن النبى عليه الصلاة والسلام سأل عنه وأثنى على عقله ، وقال : ما مثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له ، ولقدمناه على غيره . ثم ختم الوليد كتابه بقوله : فاستدرك يا أخى مافاتك فقد فاتك مواطن صالحة !

وكان خالد قد فكر فى الإسلام من قبل ، ورأى أنه يضيع جهوده عبثاً فى محاربته فعرض الأمر على صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل فخيبا ظنه ، وقالا له : لو لم يبق أحد ضد محمد لكنا نحن ضده[1] .

ثم عرض الأمر على عثمان بن طلحة فاستجاب له ، واتفقا على الهجرة فى زمان ومكان عيناهما ، ولما تلاقيا فى الموعد سارا غير قليل فإذا بهما يجدان عمرو بن العاص فسألهما أين يريدان ؟ فقال خالد :

لقد استقام الميسم[2] وإن هذا الرجل لنبى فأذهب فأسلم فحتى متى ؟!

قال عمرو : وأنا ماجئت إلا لأسلم .

وسار الجميع حتى بلغوا أول المدينة فنزلوا ليصلحوا من أمرهم ، فجاءهم الوليد بن الوليد وقال لأخيه خالد : أسرع ، فإن رسول الله قد سر بقدومكم وهو ينتظركم .

قال خالد بن الوليد : فأسرعنا المشى فاطلعت عليه ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم إلىّ حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال النبى عليه الصلاة والسلام : الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلّا إلى خير .

قلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

فقال عليه الصلاة والسلام : الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله .

---

(١) ومع ذلك فقد هداهما الله للاسلام عام الفتح .

(٢) الميسم : أى الطريق .

وقال عمرو بن العاص :

قدمنا المدينة واطلعنا على النبى صلى الله عليه وسلم وإن لوجهه تهللا ، والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا ، فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، وتقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه صلى الله عليه وسلم فما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه ، فبايعته على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى ولم يحضرنى ما تأخر !

فقال عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجب ما كان قبلها .

قال عمرو : فوالله ما عدل بى رسول الله و بخالد بن الوليد أحداً من الصحابة فى أمر حربه منذ أسلمنا ، ولقد كنا عند أبى بكر رضى الله عنه بتلك المنزلة ، ولقد كنت عند عمر رضى الله عنه بتلك الحالة ، وكان عمر على خالد كالعاتب .

السنة الثامنة الهجرية

حملات تأديبية

ومكث النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة بعد عودته من مكة ، يتعهد شأن الدعوة الإسلامية ، ويزيد فى انتشارها يوماً بعد يوم ، ثم أخذ يوجه حملات تأديبية إلى كفرة الأعراب .

إلى بنى الملوح بقديد

ففى صفر من السنة الثامنة أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبد الله الكلبى من بنى ليث فى جماعة من المسلمين إلى بنى الملوح بقديد ، وبينما هو فى طريقه إليهم لقى الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء الليثى فأخذه ، فقال : إنما جئت لأسلم ، فقال له غالب : إن كنت إنما جئت مسلماً فلن يضيرك رباط يوم وليلة ، وإن كنت

على غير ذلك ، استوثقنا منك ، ثم أوثقه وعهد به إلى رجل جَلْد وأمره أن يقتله إن بدا منه غدر .

وأرسل أمير السرية جندب بن مكيث الجهنى عيناً له على القوم ، فعمد عند الغروب إلى صعود تل يشرف على القوم فانبطح عليه ، وأبصره واحد من الأعداء فرماه بسهم فى جنبه فنزعه من غير حركة وظل مكانه ساكناً ، فرماه بسهم آخر أصاب عاتقه فنزعه وظل ساكناً كذلك .

فقال الرجل الرامى : والله ، لقد خالطه سهماى ، ولو كان ربيئة[1] لتحرك .

وانتظر جندب حتى خيم الظلام فعاد إلى المعسكر وأخبر القائد بخبر القوم ، فأمهلهم حتى ناموا ثم هجم عليهم فقتل منهم طائفة واستاق نعمهم وسار بها ، ولكن الأعداء تداعَوْا ، وتجمع منهم عدد كبير جداً ، ومضوا يتعقبون المسلمين حتى إذا لم يكن يفصل بين الفريقين غير بطن الوادى ، أرسل الله مطراً غزيراً استحال إلى سيل جارف حال بين القوم و بين المسلمين ، فوقفوا ينظرون إلى أموالهم وهى تساق تحت أبصارهم ، و إلى قلة أعدائهم ولا يستطيعون حراكا .

الاقتصاص ممن قتلوا

بعثة بشير بن سعد

وقد رشح النجاح الذى أصابه غالب بن عبد الله الليثى صاحبه للقيام بمهمة جديدة كانت تشغل بال النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ألا وهى الاقتصاص من بنى مرة بناحية فدك لقتلهم بعثة بشير بن سعد ، فكان أن بعثه النبى عليه الصلاة والسلام فى مائتى رجل للقيام بهذه المهمة ، فحالفه النجاح فيها ؛ ذلك أنه قتل من الأعداء مقتلة عظيمة ، واستاق نعمهم كلها .

---

(١) الربيئة : هو من يستطلع أخبار العدو .

غزوة مؤتة[1]

استشهاد ثلاثة من القادة

لما بعث النبى عليه الصلاة والسلام رسله إلى الملوك والأمراء فى السنة السادسة الهجرية يحملون إليهم كتبه بالدعوة إلى الإسلام ، كان من بينهم الحارث بن عمير الأزدى ، وقد أُرسل إلى أمير بصرى ، فلما بلغ قرية مؤتة قابله شرحبيل بن عمر الغسانى وهو من أمراء قيصر على الشام ، ولما علم أنه رسول النبى صلى الله عليه وسلم قتله . ولم يُقْتل من رسل المصطفى غيره ، وقد حزن عليه الصلاة والسلام لقتله حزناً شديداً ، ولم يعزب عن خاطره الشريف الاقتصاص له .

وبعد سنتين من هذا الحادث ، وحين سنحت الفرصة للرسول عليه الصلاة والسلام ، جهّز جيشاً كبيراً لهذه المهمة عدده ثلاثة آلاف مقاتل ، وذلك فى جمادى الآخرة من السنة الثامنة ، وجعل أمير الجيش زيد بن حارثة ، فإن أصيب فجعفر ابن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ، وقد وقع فى نفس جعفر شىء من تقديم زيد بن حارثة عليه فى الإمارة ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير ؟ .

وقد خرج النبى عليه الصلاة والسلام وكبار الصحابة لوداع هذا الجيش ، وأوصاهم الرسول بقوله :

« اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ، ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناء » .

ومضى الجيش حتى أتى معان من أرض الشام ، وهنالك وجدوا أن الروم

---

(١) مؤتة : قرية على مشارف الشام .

قد جمعوا لهم جيشاً من مائة ألف منهم ، يرفده جيش من العرب المتنصرة يبلغ عدده خمسين ألف مقاتل .

ولما صحت لديهم هذه الأنباء ، تبادلوا الرأى فيما يفعلون : هل يناجزون العدو على الرغم من كثرة عدده وقلة عددهم وبعدهم الشاسع عن مركز إمدادهم ، أو يطاولونه حتى يرسلوا للنبى صلى الله عليه وسلم بالواقع ليرى رأيه ؟

وقد قضى على هذا التردد خطاب عبد الله بن رواحة فيهم ، فقد خطبهم يقول : يا قوم : والله إن التى تكرهون لَلَّتى خرجتم تطلبون ، ألا وهى الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور و إما شهادة .

فتشجع الناس ، وقالوا : صدق ابن رواحة ، ومضوا للقاء عدوهم حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل ، فتعبأ الجيش ، وكان على ميمنته قطبة بن قتادة العدوى ، وعلى ميسرته عُبَايَة بن مالك الأنصارى .

مقتل الأمراء الثلاثة

ثم التحم الجيشان فى معركة عنيفة لا تعادل فيها بحال من الأحوال ، فقتل الأمير الأول زيد بن حارثة .

فأخذ الراية الأمير الثانى جعفر بن أبى طالب ودافع عنها دفاع الأبطال حتى قطعت يمينه ، فأخذها بشماله فقطعت ، فاحتضنها بعضديه حتى قتل و به أكثر من سبعين جراحة .

وأخذ الراية الأمير الثالث عبد الله بن رواحة وقاتل قتال المستميت ، حتى قتل . فأخذ الراية أبو اليسر ودفعها إلى ثابت بن أقرم العجلانى ، فدفعها بدوره إلى خالد بن الوليد وهو يقول له : أنت أعلم بالقتال منى .

سيف الله يأخذ الراية

فلما أخذ خالد الراية ، قاتل القوم بقية يومه قتالا عنيفاً حتى اندقت فى يده تسعة أسياف ، فلما تحاجز الفريقان مساء أدخل تغييراً وتبديلا فى نظام تعبئة الجيش ، فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، والساقة مقدمة والمقدمة ساقة ، مما خيل للروم أن المسلمين تلقوا مدداً جديداً ، وقد حاربهم خالد وهم تحت هذا الاعتقاد بمهارة وحذق معروفين عنه فى الحرب ، وكان أثناء ذلك يتراجع بالجيش حتى انحاز إلى قرية مؤتة ، ثم أخذ يناوش الأعداء سبعة أيام ولا يزال يأتى أثناءها من فنون الاحتيال ما يوهم الأعداء أنه يتلقى إمدادات متجددة ، وأنه يستدرجهم إلى الصحراء ليقاتلهم فيها ؛ فألقى الله الرعب فى قلوبهم وكروا راجعين .

ولما رأى خالد انسحاب الأعداء رجع بالجيش إلى المدينة .

النبى عليه الصلاة والسلام

يخبر أصحابه بما حدث

وقد أطلع الله عز وجل نبيه الكريم على ما حدث فخبّر به أصحابه وقت حدوثه ، فقال :

أخذالراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ، نعم عبد الله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سلّه على الكفار والمنافقين ، من غير إمرة حتى فتح الله عليهم .

وقد حزن النبى صلى الله عليه وسلم لمقتل هؤلاء الأبطال حزناً شديداً ، وكان يلقى على الصحابة أخبارهم وعيناه تذرفان الدمع .

وقد ظن المسلمون بالجيش العائد الظنون ، وذهبوا إلى وصفه بالجبن والفرار لأنه لم يثبت أمام العدو حتى ينتصر أو يفنى عن بكرة أبيه ، فحثوا التراب فى وجوه أفراده

وبلغ الأمر حدًّا مزعجاً ، فقد كان الصبيان يتلقون الجنود العـائدين و يصيحون فى وجوههم : يا فُرّار ، يا فُرّار . .

وكبر الأمر على بعضهم حتى لزم داره لايخرج منهـا تجنباً للأذى وخجلا من الناس !

وبلغ النبى الـكريم ذلك ، فقال :

ليسوا بالفرار ولـكنهم الـكرار ، إن شاء الله .

وقد قدَر النبى عليه الصلاة والسلام عمل خالد بن الوليد حق قدره ، فسمى الخطة التى اتخذها وأفضت إلى سلامة الجيش « فتحاً » وهى جـديرة حقًّا بهذه التسمية الموفقة ، إذ لم يكن من اليسير تنفيذها إلا على يد قائد محنك ، ولم يكن من الهين على المسلمين أن يفقدوا جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل هم ز بدة القوة الإسلامية وصفوة أعيانها فى غير جدوى وبدون طائل .

جراب من تمر زاد جيش

بلغ النبى عليه الصلاة والسلام عن قبيلة قضاعة النازلة على ساحل البحر أنها تعد لحرب المسلمين،فسير إليها جيشاً من ثلثمائة مقاتل على رأسه أبو عبيدة بن الجراح وزودهم جرابا من تمر فـكان يزودهم منه و يعده عليهم عدًّا ، ولمـا أوشك التمر على الفراغ كان يعطى الرجل تمرة واحدة فى اليوم ، وفى آخر يوم نقص التمر واحدة عن عدد الجيش فـكان لذلك وقع شديد على الناس ذلك أن واحداً منهم حرم غذاؤه .

و بعد أن فرغ التمر جَهِدَهم الجوع حتى أ كلوا ورق الشجر، ثم أرسل الله إليهم حوتاً ضخماً فأ كلوا منه وشبعوا عشرين يوماً،وقد بلغ من ضخامة الحوت أنهم نصبوا ضلعاً منه وأركبوا أطول رجل فيهم أضخم بعير فى الحملة فمر من تحته من غير أن تمسه رأسه .

وكانت هذه الغزوة فى شهر رجب من السنة الثامنة الهجرية .

غزوة ذات السلاسل

علم النبي عليه الصلاة والسلام ، أن جموعاً من قضاعة فيما وراء وادى القرى قد احتشدت تريد غزو المدينة ، فأرسل عليه الصلاة والسلام إليها جيشاً من المسلمين قوامه ثلثمائة رجل وعلى رأسه عمرو بن العاص ؛ و إنما اختير لهذه المهمة بذاته لأن جدته قضاعية فأراد النبي أن يتألف الأعداء بإرسال ابن أختهم إليهم ، وكانت هذه الغزوة فى شهر جمادى الآخرة من هذه السنة .

وسار عمرو حتى بلغ ماء بأرض جذام يسمى السلسل ، ثم جاءته أنباء بكثرة الجموع المحتشدة فعسكر على الماء وأرسل يستمد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأمده بمائتى رجل فيهم أبو بكر وعمر ، وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح ، فلما قدم على عمرو قال له عمرو إنما جئت مدداً لى ، يريد أنه الرئيس ، فقال أبو عبيدة ياعمرو إن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لى : لا تختلفا و إنك إن عصيتنى أطعتك . قال عمرو : فإنى الأمير عليك . فقال أبو عبيدة : دونك فصَلِّ بالناس .

ثم مضى الجيش حتى التحم بالعدو ، فلم تك إلا ساعة حتى انهزم وولى لا يعقب على شيء ، وقد استحوذ المسلمون على أموالهم ومنعهم عمرو من اقتفاء أثرهم خوفا أن تكون هزيمتهم إحدى مكائد الحرب ، كما كان قد منعهم أثناء السفر من إيقاد نار ، وقد اعترض عليه عمر بن الخطاب فى ذلك فمنعه أبو بكر وقال له : إن رسول الله اختاره رئيساً علينا لمعرفته بالحرب أكثر منا .

ولما عاد الجيش إلى المدينة وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بما فعله عمرو سأله عنه ، فأجاب بما يفيد أنه فعل مافعل مبالغة فى الحذر والحيطة ، فتبسم النبي وأثنى عليه .

إسلام العباس بن مرداس

كان العباس بن مرداس زعيما فى قومه بنى سليم ، وفارساً من فرسان العرب ، وشاعراً من شعرائها ، وممن حرم على نفسه الخمر فى الجاهليه ، وكان له صنم يعبده ، يقال

«ضِمَارِ» ، فبينما هو ذات يوم يتعبده إذ سمع صوتاً يخرج من جوف الصنم وهو ينشد :

قل للقبائل من قريش كلها هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يعبد مدة قبـــل الصلاة على النبي محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قريش مهتدى

فذعر العباس مما سمع ، وجاء قومه فأخبرهم الخبر ، ثم خرج فى ثلثمائة منهم حتى أتوا الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة فلما رآهم تبسم ، وقال : إلى ياعباس ، كيف إسلامك ، فقص عليه القصة و بايعه هو وقومه على الإسلام .

فتح مكة

قريش بين التسليم والإسلام . تطهير الكعبة من الأوثان والأصنام
بلال يؤذن : الله أكبر . الله أكبر فوق الكعبة

حين يبدأ المرء دراسة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونشأة الإسلام ، يرى العظمة تحيط به من كل جانب ، و يبصر السمو والرفعة يكتنفانه فى كل موطن ، وكلما استغرقه مشهد من المشاهد العظيمة التى تحفل بها سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، خيل إليه أنه بصدد أعظم مشاهدها وأروع آياتها ، ولكنه كلما ارتقى درجة ترقت معه الحوادث واتسعت الآفاق حتى إذا بلغ نهاية السيرة واستوعب دلائل عظمتها وانشرح صدره بالتفقه فيها ، رأى من معالم المجد ومحافل الفضل ومصادر الإشراق ومنابع الإغداق مالا يحيط به وصف واصف ولا يطيقه قلم كاتب ، ومبلغ ما يستطيعه القلم الحصيف هو المقاربة و بذل الوسع ، فهما حسبه وأنعم بهما إذا صاحبهما التوفيق .

ونحن الآن على أبواب مشهد من أعظم مشاهد السيرة النبوية بل هو من أعظم مواقف الإسلام ، إلا وهو فتح مكة وولاية المسلمين على الكعبة والمسجد الحرام ، وغلبة الإسلام على الأصنام وعابديها والأوثان ومن يليها .

ومن حق هذا الفتح العظيم أن يفرد بكتاب مستقل ، يستوعب تاريخه ويلم بحوادثه ويحيط بجميع جوانبه من سياسية وحربية ودينية واجتماعية ، فإنها جوانب فسيحه الأرجاء رحبة الأنحاء ، للفكر فيها مجال ، وللخيال فيها ضيال ، وللعبرة فيها موضع ، وللأسوة فيها مرجع ، ولكنا قد استعنا بالله على رسم صورة واضحة المعالم لهذا الفتح الأعظم فأعاننا فله الحمد والشكر ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

قريش تنقض صلح الحديبية

كانت مدة الهدنة بين النبى عليه الصلاة والسلام وبين قريش سنتين ، وقد علم القراء أن خزاعة دخلت فى عهد رسول الله ودخلت بكر فى عهد قريش ، ومنازل هاتين القبلتين مجاورة لمكة ، وقد كانت بينهما قبل ظهور الإسلام حروب ومنازعات مستمرة ، فلما كان صلح الحديبية وانحازت خزاعة إلى المسلمين وبكر إلى قريش سكن ما بينهما إلى حين .

ثم حدث بعد مضى زمن على الصلح — أى فى السنة الثامنة الهجرية — أن تحرشت بكر بخزاعة ، وكانت تستعلى عليها بقرب منازلها من حليفتها قريش وبعد منازل خزاعة من المدينة مقر الرسول ؛ وكان بدء ذلك أن رجلا من بكر وقف يهجو رسول الله عليه الصلاة والسلام على مسمع من أحد الخزاعيين فغضب الخزاعى لذلك ، وكان أن تضارب الرجلان ، وحرك هذا الحادث ما بين القبيلتين من عداء قديم ، وسارعت بكر إلى تبييت خزاعة على ماء يقال له الوتير ، فلم تحل قريش بينها وبين هذا العدوان وهى تعلم ما سيجره من العواقب بل أعانت حليفتها سرًّا بالرجال والسلاح ، وكان ممن أعان بكراً على خزاعة من زعماء قريش وهم متنكرون : صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمر وغيرهم كثيرون . وقد لجأت خزاعة إلى البيت الحرام بعد ما أصابها على الوتير فلم تجرها قريش ولم تحمها مع تبجحها فيما مضى بحرمة البيت وحق كل لاجىء إليه فى المنعة والحماية ، وقد قتل من خزاعة فى هذه الموقعة عشرون رجلا .

وبادر عمرو بن سالم الخزاعى فقدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام فى أربعين راكباً فيهم بديل بن ورقاء ووقف عليه فى المسجد وأصحابه من حوله فقال :

يارب إنى ناشد محمداً ... حِلفْ أبيه وأبينا الأتْلَدَا[1]

قد كنتم وُلْدا وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يداً[2]

فانصر هداك الله نصراً أعتدا[3] ... وادع عباد الله يأتوا مدداً

فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفا وجهه تربدَا[4]

فى فيلق[5] كالبحر يجرى مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لى فى كَدَاء رصدا[6]

وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عدداً

هم بيتونا بالوتير هجدا[7] ... وقتلونا ركعاً وسجدا

فانصر هداك الله نصراً أيِّدا[8]

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : نصرت يا عمرو بن سالم . ثم عرض للنبى الكريم سحاب فى السماء ، فقال : إن هذه السحابة لَتَسْتَهِلُّ بنصر بنى كعب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام :

والله لأمنعنكم مما أمنع نفسى منه .

وعاد الخزاعيون إلى بلادهم مطمئنين ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه : كأنكم بأبى سفيان قد جاء ليشد العقد ويزيد فى المدة !

---

(١) الأتلدا : القديم .

(٢) يريد أن بنى عبد مناف أمهم من خزاعة .

(٣) اعتدا : أى حاضرا .

(٤) تجردا ؛ تهيأ وشمر للحرب . سيم : كلف خطة لا يرضاها . خسفا أى ذلا ، تربدا : تغير لون وجهه إلى السواد .

(٥) الفيلق : العسكر الكثير .

(٦) كداء كسحاب : موضع بأعلى مكة ، رصدا : جمع راصد أى رقيب .

(٧) الوتير : اسم ماء بأسفل مكة .

(٨) أيدا : أى شديدا ، وهو من الأيد أى القوة .

قريش تدرك خطأها

ولم يغب عن قريش ما جَرَّته على نفسها من شر بسبب نقضها عهد الرسول بما أعانت به بكراً على خزاعة ، وعلمت أن الأمر سينتهى حتما إلى الرسول ، فتشاورت فيما بينها ، وهداها الرأى إلى إيفاد أبى سفيان إلى المدينة ليؤكد العهد الذى بين قريش وبين الرسول و يزيد المدة ، فلما كان بعُسفان [1] لقى بديل بن ورقاء الخزاعى عائداً من المدينة ، فسأله : من أين أقبلت يا بديل ؟ قال : من زيارة لخزاعة على الساحل . قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال بديل : لا .

ولـكن أبا سفيان لم يرض هذا الجواب ، فانتظر حتى رحل بديل ومن معه ، وذهب إلى مكان رحالهم فوجد النوى مختلطاً بروث إبلهم ، فقال : أحلف بالله ، لقد جاء بديل محمداً .

أنت رجل مشرك نجس

وقدم أبو سفيان المـدينة وقصد إلى ابنته أم حبيب زوج النبى عليه الصلاة والسلام ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله عليه الصلاة والسلام طوته عنه . فقال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟

فقالت أم حبيبة : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، ولا أحب أن تجلس عليه .

فقال لها أبو سيفيان : يابنية ، لقد أصابك بعدى شر !

يكذب على الرسول

وخرج أبو سفيان حتى أتى الرسول عليه الصلاة والسلام فى مسجده ، وعرض عليه توكيد العهد وزيادة المدة ، فقال الرسول : هل كان من حدث ؟ قال : لا ، فقال الرسول : فنحن على مدتنا وصلحنا .

---

(١) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة .

لا يشفعه أحد لدى الرسول

ولم يخف على أبى سفيان — وهو الداهية المجرب — حرج الموقف وما ينذر به من سوء العواقب ، فذهب إلى أبى بكر مستشفعاً به لدى الرسول ، فأبى عليه ذلك ، فقصد إلى عمر بن الخطاب ، فرده رداً عنيفاً ، وذهب إلى على بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت الرسول و بين يديها الحسن ابنها ، فقال لها :

يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

فقالت السيدة فاطمة : والله ما بلغ بُنَيَّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله .

يرجع خائباً

ولما لم يجد أبو سفيان مخرجاً من أمره ، رجع إلى مكة وأخبر قريشاً بما أصابه من الفشل ، فلم يصدقوا أنه كان جاداً فى تحقيق مطلبهم بل اتهموه بأنه خانهم وتابع محمداً على دينه ، فتنسك عند الأوثان لينفى عن نفسه هذه التهمة .

الرسول يأمر بالتأهب

وأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالجهاز ، وأرسل رسلا فى القبائل الإسلامية المحيطة بالمدينة تعزم عليها بعزيمة الرسول أن تنحدر إلى المدينة فتمضى شهر رمضان فيها ، فاستجابت لعزيمته قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، ولم يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام أحداً على عزيمته لئلا يفشو الخبر وتعلم به قريش فتعمل على حربه ، ولم يكن يخشى حربها فقد علم أن الحروب الماضية أنهكتها ، وكانت وفادة أبى سفيان الأخيرة إلى المدينة دليلا قوياً على أن قريشاً لا تريد حرب الرسول

ولا تستطيعها إن هى أرادتها ، إنما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يريد أن يفتح الله عليه مكة من غير حرب ليكون ذلك أدعى إلى تألف قريش وحملها على الإسلام ، ذلك إلى ما تجره الحرب من عداوات وأحقاد لا يحبها الرسول ولا يسعى إليها .

كتاب إلى قريش

ودعا الرسول الله ، فقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها ، وأمر بحراسة الطرق إلى مكة لرد كل من يستراب فيه ؛ وعلى الرغم من تكتم النبى عليه الصلاة والسلام نيته ، فقد عرفت ولو بالتخمين ، وكانت هناك بضع قرائن تحدد وجهة الجيش الذى يعده الرسول ، أهمها استغاثة خزاعة بالرسول و إعراضه عن أبى سفيان ، فكان أن كتب حاطب ابن أبى بلتعة — وهو ممن شهد بدراً — كتاباً إلى قريش يعلمها باعتزام الرسول حربهم ، وأعطى الكتاب امرأة وجعل لها أجراً مغرياً إن أوصلته إلى قريش ، فخرجت به تسعى إليهم .

وأوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه بالأمر ، فأرسل على بن أبى طالب والزبير بن العوام فى إثر المرأة ليأخذا منها الكتاب ، فلما أدركاها طلبا إليها أن تسلمهما الكتاب الذى معها فأنكرت أن يكون معها كتاب ، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال على :

إنى أحلف بالله ما كُذِبَ رسول الله ولا كُذِبْنا ، ولتخرجنَّ لنا هذا الكتاب أو لَنُكْشِفَنَّكِ .

فلما رأت المرأة الجد منه ، قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت المرأة شعرها وأخرجت الكتاب منه ، فدفعته إليهما .

من أهل بدر

وجاء الرسولان النبى بالكتاب ، فدعا حاطب بن أبى بلتعة وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ فقال :

يارسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدَّلت ، ولـكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم — أى قريش — أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب : دعنى فلأضرب عنقه . فإن الرجل قد نافق ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

وما يدريك ياعمر . لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لـكم .

ففاضت عينا عمر بالبكاء وأنزل الله تعالى قوله :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ »

خروج الجيش

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار والمهاجرين بالخروج ، فخرجوا جميعاً لم يتخلف منهم أحد وخرجت القبائل التى استدعاها الرسول إلى المدينة ، وتحرك الجيش لعشر خلون من رمضان السنة الثامنة للهجرة واستخلف الرسول على المدينة أبارُهم : كلثوم بن حصين الغفارى ، وكان عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل ، وخرج الناس صائمين حتى إذا بلغوا الـكديد أفطر الرسول وأمر الناس بالإفطار .

هجرة العباس

وأثناء الطريق لقى الجيش العباس بن عبد المطلب عم الرسول مهاجراً بأهله إلى المدينة ، ففرح به الرسول واستبقاه معه وأمره بإرسال أهله إلى المدينة .

غضب فعتاب فغفران

ولما بلغ الجيش الإبواء التقى بأبى سفيان بن الحرث بن عبد المطلب بن عم الرسول ومن أشد أعدائه لدداً وخصومة وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عمته

(١) الممتحنة : الآية الأولى منها

وشقيق زوجه أم سلمة ومن أكثر الناس إساءة إليه ، وقد بلغ من إساءته إلى الرسول أيام كان بمكة قبل أن يهاجر أن قال له ذات يوم :

والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك .

والتمس هذان القادمان الإذن على رسول الله عليه الصلاة والسلام وكلمته زوجه أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله : ابن عمك وابن عمتك وصهرك :

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى — أى أخى أم سلمة — فهو الذى قال لى بمكة ماقال!

فلما خرج الخبر إليهما بما قال الرسول حلف أبو سفيان لئن لم يأذن له الرسول هام على وجهه فى الصحراء هو وابن له كان معه حتى يموتا عطشاً وجوعاً .

فلما بلغ ذلك الرسول رق لهما فدخلا عليه فأسلما . وكانا من خيرة المسلمين وصفوة المجاهدين ، وسيرى القراء موقفاً ممتازاً لأبى سفيان مع الرسول عليه الصلاة والسلام فى غزوة حنين .

قريش تتوقع شراً

وكانت قريش تتوقع شراً ولكن الأنباء عُمِّيَتْ عليها فلم تسمع بمسير الرسول إليها ، وعلى ذلك لم تتخذ للحرب عدة ولا عصمت نفسها بحيطة ، حتى إذا نزل الرسول بجيشه مَرّ الظهران (١) ، أمر الجيش أن يكثر من إيقاد النار ليلا لإرهاب قريش فأوقد المسلمون ألوفا من النيران أضاءت الوديان وأنارت الجبال وألفت منظراً رهيباً .

---

(١) مكان على بعد يسير من مكة .

أبو سفيان بن حرب

وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام و بديل بن ورقاء خرجوا يتحسسون الأخبار فأشرفوا على هذه النيران الكثيرة فارتاع منها أبو سفيان ، وقال : ما هذه النيران ؟ والله لكأنها نيران عرفة ؟ فقال له أحد رفيقيه لعلها نار خزاعة ! فقال أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وهذا عسكرها .

وفى هذه اللحظة سمع أبوسفيان صوتاً يناديه : يا أبا حنظلة ، وعرف أبو سفيان صاحب الصوت ، وهو العباس بن عبد المطلب فقال : لبيك يا أبا الفضل .

وكان العباس بن عبد المطلب قد خشى أن يدهم الجيش الإسلامى مكة قبل أن ينذر أهلها فتهلك قريش ، فأراد أن يتصل بواحد من الناس ليحمل رسالة إلى قريش بأن محمداً قد أتاهم بما لا قبل لهم به ، فليسارعوا إليه ويستأمنوه على أنفسهم ، وإلا فهو هلاك قريش إلى آخر الدهر ، وكان أن ركب بغلة الرسول عليه الصلاة والسلام وتقدم الجيش فسمع أبا سفيان يحاور صاحبيه بشأن النيران التى شهدها فأذهلته لكثرتها وانتشارها ، وقال العباس :

ويحك يا أبا سفيان ؟ هذا رسول الله فى الناس واصباح[1] قريش ، والله .

قال أبو سفيان : فما الحيلة ؟ فداك أبى وأمى .

قال العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب خلفى حتى أستأمنه لك ثم أردفه خلفه على بغلة الرسول ورجع به إلى المعسكر ، فكان كلما مر بنار قوم وعرفوا بغلة الرسول وهو عليها تركوه إلى أن مر بنار عمر بن الخطاب ، فعرف أبا سفيان ، وقال :

أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ثم جرى نحو الرسول فدخل عليه بعد العباس بقليل ، وقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلأضرب عنقه .

---

(١) أى ما أسوأ صباحها وعبارة « واصباحاه » يهتف بها للنجدة عند هجوم الأعداء .

فقال العباس : إنى قد أجرته .

فلما ألح عمر على الرسول فى قتل أبى سفيان ، أراد العباس أن يحرجه ، فقال له : هل تريد قتله لأنه من بنى عبد مناف ؟

فقال عمر : والله لقد سررت بإسلامك أكثر مما لو كان أبى أسلم ، وما ذاك إلا لأننى عرفت أن إسلامك يسر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لعمه العباس : إذهب به إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به .

فلما أصبح العباس غدا بأبى سفيان على الرسول عليه الصلاة والسلام فلما رآه الرسول ، قال له :

وَيْحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أنْ لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى عنى شيئاً بعد !

فقال الرسول : ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً !

فقال له العباس بن عبد المطلب : ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك .

فأسلم أبو سفيان !

وقال العباس للرسول : إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئاً .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم . من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن .

وأراد الرسول أن يُظْهِر أبا سفيان على عظمة الجيش الإسلامى ، فقال للعباس : اذهب به فاحبسه عند خَطْم[١] الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها .

ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة ، قال أبو سفيان : من هذه يا عباس ؟ فيقول له : سليم ، فيقول : مالى ولسليم ، ومالى ولمزينة ومالى وجهينة ، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء[٢] ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ، يا عباس ، من هؤلاء ؟

قال العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار .

قال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك بن أخيك الغداة عظيما ؟

قال العباس : إنها النبوة ، قال : نعم هى إذن !

فقال له العباس : أسرع إلى قومك ، فجاءهم أبو سفيان مهرولا وهو يصرخ بأعلى صوته :

يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن

فقامت إليه زوجه : هند بنت عتبة فأخذت بشاربه وقالت : أقتلوا الخبيث . قبح من طليعة قومه !

فقال أبو سفيان : ويلكم ؟ لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك !

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن .

فتفرق الناس مسرعين إلى دورهم و إلى المسجد .

---

(١) خطم الجبل أنفه وهو مكان يبرز منه فيضيق الطريق .

(٢) كتيبته خضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها والعرب تسمى الاسود أخضر والاخضر أسود ، ومنه سواد العراق أى خضرته .

دخول الجيش الإسلامى

مكة من جميع نواحيها

ولما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام ذى طوى وأشرف عل مكة ، وقف وأمر بتركيز رايته ، ثم أطرق برأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه به من الفتح حتى إن ذقنه لتمس راحلة الركب ، ثم أصدر تعليماته للجيش ؛ فأمر الزبير بن العوام أن يدخل مكة بمن معه من الجيش من كُدَى ، وأمر سعد بن عبادة رئيس الخزرج أن يدخلها من كَدَاء ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخلها من أسفلها فيمن معه من الجيش ، وأمر القواد أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

فأما الزبير بن العوام فإنه لم يلق حربا غير أن اثنين من أفراد قوته انخلعا عن القوة ، وسلكا طريقا أخرى فتصيدهما نفر من قريش وقتلوهما .

وأما سعد بن عبادة فإنه لما أخذ طريقه قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة — أى حرمة مكة والبيت الحرام — فأمر الرسول بسحب الراية منه وتسليمها لابنه قيس ، وقال عليه الصلاة والسلام :

هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة .

وأما خالد بن الوليد ، فقد اعترضه جمع من فتيان قريش ومعهم نفر من بنى بكر أعداء خزاعة وقاتلوه فقاتلهم وانتصر عليهم ، وأصاب منهم اثنى عشر رجلا ، وأصيب واحد من رجاله .

دخول الرسول مكة

ودخل الرسول عليه الصلاة والسلام مكة راكباً راحلته مردفاً أسامة بن زيد خلفه فى صبيحة عشرين من شهر رمضان ، حتى وصل إلى الحجون فنصبت قبته فيها على زوجيه : أم سلمة وميمونة ، وقد استراح الرسول عليه الصلاة والسلام بعض الوقت ثم سار قاصداً إلى البيت وإلى جانبه أبو بكر فطاف سبعاً على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه .

وجعل عليه الصلاة والسلام يشير إلى الأصنام المشدودة بالرصاص على الكعبة بقضيب فى يده ، وهو يقول :

جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا فتسَّاقط واحداً أثر واحد وكانت أكثر من ثلثمائة صنم .

فقال تميم بن أسد الخزاعى حين رأى هذه المعجزة :

وفى الأصنام معتبر وعلم   لمن يرجو الثواب أو العقابا

وهكذا طهر الله الكعبة من الأصنام والأوثان وأزال عنها الرجس والبهتان .

ورأى النبى صلى الله عليه وسلم ، صورة لإبراهيم الخليل و بيده الأزلام (١) يستقسم بها فقال :

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٢) » .

ثم أمر بتلك الصور فطمست .

ودخل الرسول الكعبة وكبر فى نواحيها ، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه وشرب من ماء زمزم .

اذهبوا فأنتم الطلقاء

وكانت قريش قد تجمعت فى المسجد الحرام تنظر ما يفعله الرسول بأصنامها ولا تحرك ساكناً ، ثم راحوا يتطلعون إلى القضاء الذى سيصدره الرسول فيهم وقد آذوه وأخرجوه وحاربوه ، فلما قضى الرسول مناسكه ، خطب فيهم ، فقال :

يا معشر قريش ، ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ؟

---

(١) الأزلام : هى السهام و يستقسم بها : أى يضرب بها .

(٢) آل عمران : ٦٧ .

ثم قال :

يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا الآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِل لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [1] » الآية .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطابه فبين كثيرا من الأحكام الإسلامية والحدود والديات وحرم القتال فى مكة من جديد وقال :

إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة ،فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، ولا يعضد[2] فيها شجرا . لم تحلل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد يكون بعدى . ولم تُحللَ لى إلا هذه الساعة ، غضبا على أهلها ، الا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس .

أهل مكة يبايعون الرسول

ثم أخذ الناس يبايعونه على الإسلام ، وكان ممن أسلم هذا اليوم أبو قحافة والد أبى بكر الصديق وكان شيخاً ضريراً . فتلطف معه الرسول ، وقال لأبى بكر إنه كان يستحسن أن يذهب هو إلى الشيخ ، فقال أبو بكر :

هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت .

وأسلم فى هذا اليوم كذلك معاوية بن أبى سفيان .

وأصدر الرسول عليه الصلاة والسلام عفواً عاما لم يستثن منه إلا نفراً يسيرا لشدة إجرامهم وعظيم ذنبهم .

منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح فإنه كان مسلما ، وكان يكتب الوحى

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) يعضد : أى يقطع .

للرسول ثم ارتد وذهب يفترى الكذب ويزعم أنه كان يغير كلام الله ، فلما علم بإهدار الرسول دمه ، استجار بعثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فأخفاه حتى هدأت النفوس ، ثم ذهب به إلى الرسول ، فأعرض عنه مرارا ، ثم أمنه فأسلم وحسن إسلامه ، واستعمله عمر بن الخطاب فى خلافته .

ومنهم أناس غير معروفين . كانوا قتلوا بعض المسلمين عمدا فقتلوا بهم .

ومنهم عكرمة بن أبى جهل ، وقد هرب إلى البحر يريد أن يذهب إلى اليمن ، وكانت زوجه أم حكيم قد أسلمت قبل الفتح فطلبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤمن زوجها فأمنه فلحقت به وخبرته الخبر ، وعاد عكرمة فدخل على الرسول عليه الصلاة والسلام فقام له ورحب به وقال له . مرحباً بمن جاء مؤمناً مهاجراً ، فقال عكرمة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله ثم طأطأ رأسه حياء ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : ما تسألنى شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتك ، فقال عكرمة : استغفر لى كل عداوة عاد يتكها .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلم به .

ومنهم صفوان بن أمية ، وقد فر عند الفتح إلى جدة ، ليركب منها إلى اليمن ، فذهب عمير بن وهب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقال :

يا نبى الله : إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هار با منك ليقذف نفسه فى البحر فأمنه ، صلى الله عليك ، فقال الرسول : هو آمن .

فطلب عمير من الرسول علامة يظهرها لصفوان على أمانه ، فأعطاه الرسول عمامته التى دخل بها مكة يوم الفتح ، فذهب عمير مسرعا إلى جدة فأدرك صفوان ولما يرحل ، وأخبره بأمان الرسول إياه ، فقال له : اغرب عنى فلا تكلمنى . قال : أى صفوان إنه — أى الرسول — أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك ، عزه عزك ، وشرفه شرفك وملكه ملكك .

قال : أخاف أن يغدر بى .

قال : هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال يا محمد : إن هذا يزعم أنك قد أمّنتنى . قال الرسول : صدق ، قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين . قال الرسول : فأنت فيه بالخيار أربعة أشهر ، وقد أسلم قبل انقضاء هذا الأجل بكثير .

ومنهم الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية المخزوميين وقد استجارا بأم هانىء بنت أبى طالب أخت على رضى الله عنه ، وكانت متزوجة فى بنى مخزوم ، فجاءها على وأراد قتلهما ، فحالت بينه وبينهما ، ثم أقفلت عليهما بابها ، وذهبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخبرته الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم :

قد أجرنا من أجرت وآمنّا من أمنت ، فلا يقتلهما ، يعنى عليه السلام ، علياً .

ومنهم هبار بن الأسود وقد اختفى ثم لحق بالرسول عليه الصلاة والسلام بالجُعْرانة، مسلما وقال :

يا رسول الله ، هربت منك ، وأردت اللحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك . وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة ، فاصفح الصفح الجميل فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : قد صفحت عنك .

وهبار هذا هو الذى اعترض السيدة زينب بنت الرسول وروعها بحربته حين بعث بها زوجها أبو العاص بن الربيع من مكة إلى المدينة أثر غزوة بدر .

ومن الذين عظمت عليهم جناياتهم فاختفوا ، سهيل بن عمرو صاحب صلح الحديبية ، وكان ابنه عبد الله من خيرة المسلمين فطلب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤمن أباه فأمنه قائلا : إن سهيلا له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الإسلام . فلما بلغت مقالة الرسول سهيلا قال : كان والله برًّا صغيرا ، برًّا كبيرا ، ثم أسلم .

(١) موضع بين مكة والطائف .

إشفاق وطمأنينة

ولما فتح الله عز وجل على رسوله هذا الفتح المبين وكان منه ما كان من العفو عن قريش وكان الأنصار يحيطون به على عادتهم ، قالوا فيما بينهم :

أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو ربه حينئذ فلما فرغ من دعائه . قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال :

معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم .

فتهلل وجه الأنصار ، وحمدوا الله على هذه النعمة الكبرى .

بيعة النساء

وبايع النبي عليه الصلاة والسلام النساء اللائى أسلمن يومئذ على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين الرسول فى معروف .

وكانت طريقة بيعة النساء أن يؤتى بإناء فيه ماء ، فيغمس الرسول عليه الصلاة والسلام يده فيه ثم تغمس المرأة المبايعة يدها فيه إثر ذلك . لأنه كان عليه الصلاة والسلام لا يمس امرأة إلا إذا كانت زوجاً له أو ذات محرم .

هند بنت عتبة

وقد اختفت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان أياما ثم جاءت لمبايعة الرسول وهي منتقبة وقالت إنى امرأة مؤمنة : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، ثم كشفت عن نقابها ، وقالت : أنا هند بنت عتبة .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : مرحباً بك .

مفتاح الكعبة

وطلب الرسول عليه الصلاة والسلام مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة العبدرى وكان آل عبد الدار سدنة الكعبة فى الجاهلية فسلمه إياه ، فسأل العباس بن عبد المطلب الرسول عليه الصلاة والسلام أن يختص بنى عبد المطلب بالسدانة إلى جانب السقاية ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

فلما ولى عثمان ناداه الرسول فرجع ، فقال له : ألم يكن الذى قلت لك ؟

فتذكر عثمان أنه فتح الكعبة للناس فى الجاهلية يوما من الأيام فأراد محمد بن عبد الله دخولها معهم فأغلظ عثمان القول له ونال منه ، فقال له محمد :

يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت !

فقال عثمان قد هلكت قريش يومئذ وذلت .

قال محمد بن عبد الله : بل عمرت وعزت يومئذ .

ولما ذكره الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه الواقعة يوم الفتح ، قال : بلى ! أشهد أنك رسول الله .

بلال يؤذن على الكعبة

ثم أمر النبى عليه الصلاة والسلام بلالا أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة ، إيذاناً بعلو كلمة الإسلام ، وإعلاما بظهور دين الله .

وكان أبو سفيان بن حرب يجلس بفناء الكعبة ومعه عتاب بن أسيد والحارث ابن هشام ، فقال عتاب :

لقد أكرم الله أسيداً — يعنى أباه وكان قد هلك مشركا — ألا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه ؟

فقال الحارث بن هشام : أما والله ، لو أعلم أنه محق لاتبعته .

فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، لو تـكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى !

فخرج عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال : قد علمت الذى قلتم ، ثم ذكر لهم ما قال كل منهم .

فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله . والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك ! .

مائدة الفتح

وبعد أن أتم الله نعمته على نبيه بالفتح الأعظم ، وفرغ من قضائه فى أهم الأحداث فى تاريخ الإسلام ، ذكر عليه السلام أن لبدنه عليه حقاً ، فذهب إلى بيت أم هانىء بنت عمه أبى طالب ، فقال لها :

هل عندك من طعام نأكله ؟

قالت : ليس عندى إلا كسر يابسة وأنا أستحى أن أقدمها إليك !

فقال عليه السلام : هلمى بهن ، فـكسرهن فى ماء وجاءت بملح .

فقال عليه السلام : هل من أدم ؟

فقالت : ما عندى يا رسول الله إلا شىء من خل !

فقال عليه السلام : هلميه ! فصبه على الـكسر وأكل منه ، ثم حمد الله ، ثم قال : نعم الأدم الخل ، يا أم هانىء : لا يقفر بيت فيه خل !

هدم آلهة الجاهلية

ولما فرغ الرسول عليه السلام من أمر الفتح شرع فى هدم أصنام العرب التى كانوا يعبدونها فى الجاهلية .

فأرسل خالد بن الوليد لهدم العُزَّى ، وكانت مقامة بأرض تسمى نخلة ، والعُزَّى من آلهة قريش خاصة وكنانة ومضر عامة ، وكان يقوم بسدانتها نفر من بنى سليم ، فلما سمع سادنها بمسير خالد لهدمها علق عليها سيفاً وهرب وهو يقول :

أيا عُزَّ شدى شدة لا شوى لها[1] على خالد ، ألقى القناع وشمرى

ياعُزَّ إن لم تقتلى المرء خالداً فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

فلما انتهى إليها خالد هدمها ورجع إلى المدينة سالما .

وأرسل الرسول عليه الصلاة والسلام ، عمرو بن العاص لهدم سُوَاع ، وهو صنم تعظمه هذيل ، فلما انتهى عمرو إليه . قال له السادن : ماتريد ؟ قال : هدم سُواع . قال . لا تطيقه . فقال له عمرو : أنت فى الباطل بعد ! ثم هدمه ولم يجد فى خزانته شيئا وقال للسادن : كيف رأيت ! قال إنى أسلمت .

و بعث الرسول عليه الصلاة والسلام سعد بن زيد الأشهلى لهدم مُنَاة وهو صنم لـكاب وخزاعة فهدمه ولم يلق معارضة من أحد .

السيف ينبو !

غزوة الغميط [2]

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام وهو بمكة خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة بأسفل تهامة فى جمع كبير من المسلمين ليدعوها إلى الإسلام ، ولم يأمره بقتال ، فأخذ القوم السلاح ، فقال لهم خالد : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا فوضعوه فقتلهم ، وانفلت رجل منهم . وذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأنهى إليه الخبر ، فرفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد .

وقال خالد يعتذر عن فعله : إنه ما قاتل حتى أمره بذلك عبد الله بن حذافة السهمى وقال له : إن الرسول أمرك أن تقاتلهم لا متناعهم عن الإسلام .

وأرسل النبى عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب إلى بنى جذيمة ليتلافى خطأ خالد . وقال له :

---

(١) لا شوى لها : أى لا تبقى على شىء .

(٢) الغميط : اسم ماء لبنى جذيمة .

يا على ، أخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك .

فسار إليهم على ومعه مال كثير فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال ، وأعطاهم بقية ما كان معه من مال احتياطا لذمة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

يوم حنين (١)

عقوبة العجب !

لما سار النبى عليه السلام بجيشه من المدينة قاصدا إلى فتح مكة ، كتم عن الناس وجهته وأخفى عنهم قصده ، حتى لا تتلقف الخبر قريش فتأخذ للحرب أهبتها ، وكان من جراء هذا التكتم أن حسبت كل قبيلة من القبائل العربية التى تقع منازلها على طريق الجيش الإسلامى وما يتفرع عليه أن النبى عليه السلام يختصها بغزوته ، وكان مما طوع هذا الحُسبان أن القبائل المشركة كلها كانت فى حرب أو شبه حرب مع الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكانت قبيلة هوازن أكثر القبائل توقعاً لغزو النبى عليه الصلاة والسلام إياها ، ومن أجل ذلك أعدت عدة الحرب واستعانت بحلفائها وجيرانها من المشركين فأعانوها ، وكان من القبائل التى تجمعت لحرب الرسول عليه الصلاة والسلام مع هوازن ، ثقيف كلها ، ونصر وجشم كلها ، وسعد بن بكر وناس من بنى هلال ، وقد رأس هذا الجمع الحاشد من المشركين مالك بن عوف النصرى ، فكان القائد العام لجيش المشركين .

ولما عرفت هوازن أن وجهة الرسول مكة وعلموا أن الله قد فتح مكة على المسلمين زادهم ذلك غيظا منه وحنقاً عليه ، فقرروا أن يهاجموا النبى عليه الصلاة والسلام ولا يتركوا له الفرصة ليبدأهم هو بالهجوم ، ثم ساروا بجمعهم الكبير حتى نزلوا

---

(١) اسم موضع بين مكة والطائف .

أوطاس[1] ، وكان مالك بن عوف رئيس المشركين قد رأى من تدابير الحرب أن يحشد مع الجيش النساء والأطفال والأموال ، فخرج كل مقاتل من كل قبيلة ومعه أهله وماله ليحمى فى القتال ولا يفكر في الهرب تاركا وراءه أعزاءه وأمواله .

دريد بن الصمة

وكان ممن حضر هذه المعركة مع المشركين دُرَيْد بن الصَّمَّة وهو شيخ كبير قد جاوز المائة ، وكان يحمل فى هودج لعجزه عن الركوب ولم يكن له غناء فى الحرب إنما كان العرب يتيمنون بحضره ويسمعون لآرائه وتجاربه الطويلة ، فلما سمع ، رغاء الأبل ونُهاق الحمر ، وبكاء الأطفال ، قال ما أسمع ؟ قالوا لقد ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم ، فدعا به فجاءه وسأله عما حمله على هذا العمل فأجابه بما سبق أن بيناه ، فقال دريد .

راعى ضأن[2] والله ! وهل يرد المنهزم من شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

ثم أشار عليه برد النساء والأطفال فعصاه ، فقال دريد : هـذا يوم لم أشهده ولم يفتنى !

الرسول يستعد لحرب هوزان

وعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بتجمع القبائل لحربه ، فأرسل عينا له ليقتص له الخبر فذهب ورجع يخبره بصحة ما بلغه وأن القوم فى عدد كثير ، وعلى ذلك تجهز الرسول لغزو هوزان ومن معها ، وعلم أثناء إعداده عدة الحرب أن صفوان بن أمية — وهو مشرك على أمان من الرسول — عنده سلاح كثير فطلب إليه أن يعيره إياه ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد ! فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : بل عاريةً

---

(١) واد فى ديار هوزان .

(٢) يقول : إنه جاهل بالحرب جهل راعى الماشية بها .

ومضمونة حتى نؤديها إليك . فاستجاب صفوان لرغبة الرسول ، وزاد بأن أخرج من إبله ما يحمل السلاح إلى موضعه .

وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام فى شوال من السنة الثامنة فى جيش عدته اثنا عشر ألف مقاتل ، منهم العشرة الآلاف الذين قدموا معه لفتح مكة وانضم إليهم ألفان من أهل مكة بينهم بعض المشركين مثل صفوان بن أمية الذى ذكرناه آنفاً ، وسهيل بن عمرو وهما من زعماء قريش .

واستعمل النبى عليه الصلاة والسلام على المدينة عتاب بن أسيد .

تعبئة الجيش وتسليم الألوية

فلما بلغ الرسول بجيشه وادى حنين وشارف جيش الأعداء عبأ جيشه وعقد الألوية ، فأعطى لواء المهاجرين لعلى بن أبى طالب ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ولواء الأوس لأسيد بن حضير ، ولواء كل قبيلة لزعيمها .

وكان الجيش الإسلامى أكبر جيش تجمع منذ ظهور الإسلام وأكثر عدداً وقد أثِرَ عن النبى صلوات الله عليه قوله فى وصفه : لن نغلب اليوم من قلة ، وكأن الله سبحانه وتعالى قد كشف عن بصره الحجاب فرأى ما سيحدث فقال هذا القول ليقرر أن العبرة فى الجيوش ليست بكثرة العدد وإنما بقوة الروح المعنوى .

مباغتة خطيرة

وانحدر الجيش الإسلامى نحو العدو فى واد ضيق منحدر ، تحيط به مرتفعات ذات شعاب ومضايق ، وكان العدو قد سبقهم إليها وكمن لهم فيها ، فبينما المسلمون يسيرون فى الصباح الباكر وقد بقيت من الظلام بقية ، إذ بالعدو يفاجئهم بالهجوم الشديد من المضايق والشعاب التى كمن فيها ، فعملت المفاجأة عملها فاختلت الصفوف وسادت الفوضى وتراجع الناس لا يلوون على شىء .

أنا النبي لا كذب

وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين وانكشف عنه الناس إلا القليل فقال : أين أيها الناس ، هلموا إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله أنا النبي لا كذب ، أنا بن عبد المطلب ؟

وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وابنه وأخوه ربيعة وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن وقد استُشْهِدَ فى هذه الواقعة .

يا معشر الأنصار

وكان العباس بن عبد المطلب ممسكا بزمام بغلة الرسول وكان رجلا جسيما جهير الصوت فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : اصرخ ، يامعشر الأنصار ، يامعشر أصحاب السَّمُرَة[1] .

وما كاد الأنصار يسمعون الصريخ بهم ، حتى قالوا: لبيك ، لبيك ، ويريد الرجل منهم أن يوجه بعيره نحو الصوت فيعزه ذلك لشدة تدافع الناس وغلبة الفوضى عليهم فينزل عن بعيره ويحمل سلاحه ، ويتجه نحو الرسول حتى إذا تجمع منهم مائة هجموا على المشركين هجمة قوية رائعة ، فنظر إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقال : الآن حمى الوطيس !

أنا ابن أمك

والتفت الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب[2] وهو آخذ بمؤخرة سرج الدابة التى يركبها ليحفظه من خلفه ، فقال : من هذا ؟ قال أبو سفيان : أنا ابن أمك[3] يا رسول الله .

---

(١) السمرة : الشجرة . يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الشجرة التى بايعه الصحابة تحتها بيعة الرضوان فى الحديبية .

(٢) القراء حديثو عهد بما كان بينه وبين الرسول فى طريق الجيش الفاتح إلى مكة .

(٣) كناية عن أنه من آل الرسول الأقربين .

شاهت الوجوه

و بينما المعركة فى ذروتها والحرب تغلى غليان المرجل . هتف النبى عليه الصلاة والسلام ببغلته فأناخت به وهو على ظهرها حتى بلغت يده الأرض ، فأخذ حفنة من تراب رماها فى وجوه الأعداء ، قائلا : شاهت الوجوه ، وتلا بعض آيات الذكر الحكيم ، فأظهر الله المسلمين على المشركين ، وهزم الكافرين هزيمة منكرة ، فولوا الأدبار ، ولم يلقوا بالا إلى من خلفوا وراءهم من مال و بنين ، وهكذا صدقت فيهم نبوءة دريد بن الصمة حين قال : وهل يرد المنهزم شىء ؟

أخبار وأسرار

على هامش المعركة

وقعت هزيمة المسلمين فى أول المعركة على نفوس مشركى قريش وزائفى الإسلام منهم موقع الماء من ذى الغُلّة الصادى .

فقال أبو سفيان بن حرب الذى أسلم اتقاء ضرب العنق : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر !

وقال : كلدة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم ! فقال أخوه صفوان بن أمية وهو مشرك يزجره : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يَرُبَّنى [1] رجل من قريش ، أحب إلىَّ من أن يربّنى رجل من هوازن . وجاء رجل من شيعتهم يقول لهم :

أبشروا بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبداً .

فقال عكرمة بن أبى جهل يجيبه :

أمّا إنهم لا يجبرونها أبداً فليس بيدك . الأمر بيد الله ، ليس إلى محمد شىء منه ، إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً .

فقال سهيل بن عمرو لعكرمة : والله إن عهدك بخلافه لحديث :

---

(١) يربنى : أى يكون لى رباً بمعنى مالك أو سيد .

فقال عكرمة : يا أبا يزيد ، إنا كنا على غير شىء ، وعقولنا ذاهبة ، نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع .

ينوى اغتيال الرسول

وكان شيبة بن عثمان بن أبى طلحة العبدرى فيمن حضر الموقعة من مشركى قريش ، فلما رأى هزيمة المسلمين وانكشافهم عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، حدثته نفسه أن الفرصة قد واتته ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذاً بثأر أبيه الذى قتل ببدر ، فجاءه من خلفه ، فلما هم به تغشى فؤاده شىء حال بينه و بين إمضاء عزيمته ، فالتفت الرسول الكريم وعرف الذى أراد فَمَسَحَ صدره وزال عنه الشك وملأه الإسلام . فدعا له النبى عليه الصلاة والسلام وقال له : ادن فقاتل .

دعابة لطيفة

وفى إبان المعركة رأى الرسول عليه الصلاة والسلام ، أم سليم ابنة مِلْحان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة ، وهى حازمة وسطها و بيدها زمام جمل زوجها . فقال لها الرسول : أم سليم ؟

قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أُقْتُل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل !

فقال الرسول : أو يكفى الله يا أم سليم .

واشترك زوجها أبو طلحة فى الحديث ، وقد رأى زوجته تحمل خنجراً ، فقال لها : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته ، إن دنا منى أحد من المشركين شققت بطنه به ، فقال زوجها :

ألا تسمع يا رسول الله ما تقول الرُّمَيْصَاء[1] ؟ فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يبتسم .

---

(١) الرميصاء : التى بعينها ضعف ، كأنه يقول : العمشاء من باب المداعبة .

العلامة عضة ؟!

وكان فى سبى هوازن الشيماء بنت الحرث بن عبد العزى أخت الرسول عليه السلام فى الرضاع وأمها حليمة فمتَّت إليه بهذه الصلة ، فسألها عليه السلام : ما علامة ذلك ، فذكرته بأنه عضَّها وهى حاملته فى ظهرها ، فذكر الرسول الكريم ذلك و بسط لها رداءه ، فأجلسها عليه ، وخيرها بين أن تقيم معه محببة مكرمة ، أو أن يردها إلى أهلها ، فاختارت الثانية ، فمنحها الرسول منحة كريمة ، وردها إلى قومها .

مقتل دريد بن الصمة

وكان الرسول عليه السلام قد أمر بتعقب المنهزمين من المشركين ، فأدرك ربيعة ابن رفيع وشهرته ابن الدُّغُنَّة ، دريد بن الصمة فى هودجه ، فأخذ بزمام بعيره ، وهو يظن أن الراكب امرأة فلما تبين أنه رجل ، أراد قتله وهو لا يعرفه فضربه بسيفه فلم يصنع شيئاً ، فقال له دريد : بئس ما سلحتك أمك ! خذ سيفى هذا ثم اضرب به فإذا أتيت أمك فقل لها : قتلت دريد بن الصمة !

فلول المنهزمين

ولما انهزمت هوازن وحلفاؤها تفرقوا فرقاً ، فذهبت فرقة إلى الطائف وأخرى إلى نخلة وثالثة إلى أوطاس . وأرسل النبى عليه الصلاة والسلام إثر جماعة أوطاس سرية على رأسها أبو عامر الأشعرى ، فأبلى فى القتال بلاء حسناً ثم أصيب بسهم فاستشهد ، فأخذ الراية ابن عمه أبو موسى الأشعرى وقاتل القوم حتى هزمهم .

خالد يصاب

ومن المسلمين الذين أبلوا بلاء حسناً يوم هوازن خالد بن الوليد فقد قاتل قتال المستميت وأصيب بجراحات بالغة حتى أُثْقِل .

ولما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام مالاقاه خالد سار فى الجيش بعد انتهاء المعركة يقول : من يدلنى على رحل خالد ؟ ولما دُلَّ عليه وجده قد أسند إلى مؤخرة رحله من شدة مابه من الألم ، فنفث على جرحه فبرىء فى الحال .

العدل والحزم

يجتمعان فى قصة قتيل

كان النبى عليه الصلاة والسلام قد بعث عبد الله بن أبى حَدْرَد إلى إِضَم فى نفر من المسلمين لبعض الأغراض الحربية ، فلما بلغوه مر بهم عامر بن الأضبط الأشجعى وحياهم بتحية الإسلام فأمسكوا عنه ، ولكن محلِّم بن جثامة أحدهم وثب على الرجل فقتله لشىء كان بينه و بينه ، وأخذ بعيره وما عليه من متاع حقير .

فلما قدم القوم المدينة وأخبروا الرسول بما حدث أنزل الله تعالى قوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، إلى آخر الآية .

ولما كان النبى عليه الصلاة والسلام بحنين ، جاءه عيينة بن حصن رئيس غَطَفَان يطالب بدم عامر بن الأخبط ، ووقف الأقرع بن حابس يدافع عن مُحَلِّمَ ، فتداولا الخصومة ، وعرض الرسول على عيينة دية القتيل مائة من الإبل فأبى ، وأعاد الرسول العرض ، وكرر عيينة الرفض .

فخلا الأقرع بن حابس بعيينة ومن معه من المتشبثين بالقَوَد ، وقال لهم :

يامعشر قيس ، منعتم رسول الله ، قتيلا يستصلح به الناس ، أفأمنتم أن يلعنكم فيلعنكم الله بلعنته أو أن يغضب عليكم فيغضب الله عليكم بغضبه ، والله الذى نفس الأقرع بيده لتسامنه إلى الرسول فليصنعن فيه ما أراد أو لآتين بخمسين رجلا من بنى تميم يشهدون بالله كلهم أن صاحبكم قتل كافراً ، و بذلك يُطَلُّ دمه .

فلما سمعوا ذلك قبلوا الدية .

ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام : أين صاحبكم — أى القاتل — فجاءه محلم وكان قد تهيأ للقتل والقوم يظنون أن الرسول يريد به خيراً ، فلما مَثُل بين يديه سأله عن اسمه فقال : محلم بن جثامة .

فقال الرسول : أَمَّنْتَه بالله ثم قتلته ، ثم رفع يده ، وقال : اللهم لا تغفر لمحلّم ابن جثّامة .

فلم يمكث إلا سبعاً حتى مات ، ولما دفن لفظته الأرض مراراً حتى اضطروا إلى دفنه بين صدعى جبل وأثقلوا عليه بالحجارة .

غزوة الطائف

لم يكن هناك بدٌّ بعد أن ظاهرت ثقيف هوازن على حرب المسلمين أن تكون وجهة الجيش الإسلامى وغرضه الأول وأكّد هذا العمل ماحدث من لجوء فَلِّ حنين إلى الطائف ، وكان من بين من لجأ إليه مالك بن عوف رئيس جيش المشركين فى حنين ، وتطبيقاً لهذه الخطة سار الرسول عليه السلام إلى الطائف فيمن معه من المسلمين ، وجعل على مقدمة الجيش سيف الله خالد بن الوليد .

وبلغ الجيش الطائف فوجد أهلها قد تحصنوا واتخذوا عدتهم للحصار من مؤن وسلاح ، وكان الحصن منيعا جدا وبادر من فيه إلى رمى المسلمين بالنبال فأصابوا عددا منهم وكان فيمن أصيب أبو سفيان بن حرب جاءه سهم أصاب إحدى عينيه ففقأها ، وعبد الله بن أبى بكر وقد طاوله جرحه حتى استشهد فى خلافة أبيه ، وبلغ عدد من توفى بسهام المشركين اثنى عشر شهيدا .

وأمر النبى عليه الصلاة والسلام الجيش بالتأخر مسافة لا تصل إليه فيها نبال العدو ، وضرب قبتين لزوجيه أم سلمة وزينب بنت جحش وصلى بينهما ، فلما أسلمت ثقيف فيما بعد ، بنى عمرو بن أمية بن وهب مسجدا مكان مصلى النبى بين القبتين .

واستمر الحصار قرابة عشرين يوما ، ولم يكن هناك قتال ، لأن المشركين

اعتصموا بحصنهم ، وأقاموا على حراسته ، وقد أخذ خالد بن الوليد ، يتحدى المشركين كل يوم بطلب المبارزة فلا يستجيب له أحد ، فلما أكثر على العدو أطل عليه عبد ياليل رئيس ثقيف ذات يوم ، وقال له :

لن ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم فى حصننا فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا .

منجنيق ودبابة

ولما رأى النبى عليه الصلاة والسلام إصرار العدو على خطته أمر بنصب المِنْجَنيق[١] عليهم ، فكانوا أول من رمى به فى الإسلام ، ثم زحف جماعة من المسلمين فى دَبَّابة[٢] إلى الحصن يريدون نقب جداره فأرسل عليهم العدو قضبان الحديد محماة بالنار ، فاضطر المسلمون الذين فى الدبابة إلى الخروج منها اتقاء الحريق فرماهم العدو بالنبال .

وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة من الحصن وصاحا بالعدو ، أن أَمِّنُونا حتى نكلمكم ، فأمنوهما ، فأهابا بنساء قريش وكنانة المتزوجات فى ثقيف أن يخرجن إلى المسلمين مخافة السَّبْى ، فلم يستجبن لهما وآثرن البقاء مع أزواجهن وكان من بينهن آمنة بنت أبى سفيان كانت عند عروة بن مسعود ، ولهذه المناسبة يحسن أن نذكر أن عروة لم يكن فى الحصن وقت حصاره .

الله والرحم

ورأى المسلمون إكراه ثقيف على المناجزة من طريق قطع أشجارها من نخيل

---

(١) آلة حرب قاذفة .

(٢) سبق أن شرحنا الدبابة عند العرب .

وأعناب ، فلما شرعوا فى ذلك ، جزع العدو جزعا شديداً ونادى نفر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن دعها لله وللرحم ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

أدعها لله وللرحم .

وحدث أثناء الحصار أن كان النبى عليه الصلاة والسلام يرسل سرايا إلى القبائل والأعراب النازلين بقرب الطائف يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا له . وعلى ذلك عزل الطائف وأصبح لا سند له من أحد حوله .

الحرية لا تنزع

ونادى منادى الرسول عليه الصلاة والسلام : أيّما عبد نزل من الحصن فهو حر فخرج إليه من عبيد القوم اثنا عشر رجلا وأسلموا ، فأعتقهم النبى الكريم ، ولما أسلمت ثقيف فيما بعد طلبت إلى الرسول أن يعيدهم إلى ما كانوا عليه من الرق ، فأبى صلوات الله عليه أن يُرجع الحر عبداً ولكنه جعل ولاءهم إلى سادتهم الأقدمين .

ولما طال الحصار ، استشار الرسول عليه الصلاة والسلام ، نوفل بن معاوية الديلى فى المقام أو الذهاب ، فقال :

يارسول الله : ثعلب فى جُحر ، إن أقمت عليه أخذته و إن تركته لم يضرك !

وحمل شدة الموقف بعض الصحابة على أن يطلب من رسول الله أن يدعو على ثقيف ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين .

ثم أمر الجيش بالرحيل .

مُثُل وأخلاق

توزيع غنائم حنين على المسلمين

لم يكن ما لاقاه الرسول من بعض الأعراب الذين ظاهروه على هوازن وثقيف طمعاً فى الكسب وهم مشركون ومن بعض حديثى الإسلام ولما يدخل الإيمان

فى قلوبهم — أقل إعناتا و إحراجا مما لاقاه من أعدائه أنفسهم ، فقد تكشفت بعض النفوس عما يفعمها من الصغار والدناءة ، و بدا جفاء الأعراب فى أشنع صوره ، وعُمِّيَت سياسة الرسول عليه الصلاة والسلام على بعض أصحابه الصادقين فوجدوا عليها . وقد عنينا بالقسم الأخير جماعة من الأنصار ، وسيرد نبؤهم مفصلا .

وكان الذى حرك هذا كله عَمْد النبى عليه الصلاة والسلام إلى إجزال العطاء لحديثى الإسلام من قريش ليتألف قلوبهم ، وليخفف عنهم مضاضة التفكير فيما كانوا فيه من رياسة وسيادة وما صاروا إليه من تبعية وشعبية ، وهى حال لا يستعصى على على القراء تفهمها إذا استذكروا مامر بهم من جبروت زعماء قريش ، وما كان لهم من السيادة الروحية على العرب أجمعين إذ كانوا ولاة الكعبة وسدنتها و إليهم كل مراسمها .

***

لما فك النبى عليه الصلاة والسلام حصار الطائف سار حتى نزل بالجِعْرانة حيث كان قد خلف سبى هوازن وأموالها ، وكان ذلك شيئاً كثيراً جداً بلغ نحو ستة آلاف نفس وألوفاً مؤلفة من النعم على اختلاف أنواعها ، ويذكر القراء أن هوازن أحضرت معها أهلها وأموالها لتحث المقاتلين على الثبات — كما قدمنا ذلك — فلما انهزموا استولى المسلمون على ذلك كله ، فأحصى وأعد للتوزيع حسب الشريعة .

المؤلفة قلوبهم

وأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام فى توزيع الغنائم فأجزل العطاء لفريقين : أولهما حديثو الإسلام ليتألفهم ، وثانيهما زعماء القبائل وكبار الشخصيات من غير المسلمين الذين ظاهروه على هوازن وثقيف ليحبب إليهم الإسلام .

فمن الفريق الأول أبو سفيان بن حرب فقد أعطاه الرسول أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل . وأعطى ولديه : معاوية و يزيد كلا منهما مائة من الإبل . فقال أبو سفيان وقد بهره هذا العطاء : بأبى أنت وأمى ، لأنت كريم فى السلم والحرب .

ومنه حكيم بن حزام من سادة قريش وقد أعطاه الرسول مائة من الإبل ، فاستزاده فأعطاه مائة أخرى فاستزاده فأعطاه مائة ثالثة ، ثم قال :

يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

وقد أثرت هذه الحكم البليغة فى نفس حكيم فأخذ العطاء الأول وترك ماعداه . ثم قال : والذى بعثك بالحق لَا أَرْزَأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا .

وقد بَرَّ حكيم بقسمه ، فتنازل عن عطائه العادى فى بيت المال طوال حياته وأبى أن يسمع للخلفاء فى أخذه .

ومن الفريق الثانى : عيينة بن حصن الفزارى ، وهو مشرك ، وكان كثير المناوشة للمسلمين وهو إلى ذلك مُحَمَّق وقد سماه الرسول عليه الصلاة والسلام : الأحمق المطاع ، وقد كان عطاؤه مائة من الإبل .

ومنه صفوان بن أمية — صاحب حديث السلاح الذى استعاره منه النبى عليه الصلاة والسلام فى حرب هوازن — وقد أعطاه الرسول قطعة كبيرة من نعم وشاء رآه يرمقها فقال عليه الصلاة والسلام له : هل أعجبتك ؟ قال : نعم . قال هى لك .

فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد ! وكان ذلك الكرم النبوى حافزاً له على الإسلام . ومنهم عروة بن مسعود الثقفى أعطاه الرسول مائة من الإبل .

ولما جاء دور التوزيع على الغزاة ، أمر عليه الصلاة والسلام بإحصاء ما بقى من الأموال ، والتف الأعراب الجفاة حول رسول الله عليه الصلاة والسلام يهتفون به : أقسم علينا فيئنا ، حتى ألجؤوه إلى شجرة فعلق رداؤه بغصن منها فارتفع عنه . فقال عليه الصلاة والسلام :

ردوا علىَّ ردائى أيها الناس فوالله لو كان لى عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم ، ثم ما لقيتمونى بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً .

ثم قام عليه الصلاة والسلام إلى بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها ، فقال :

أيها الناس ، إنه والله ليس لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول[1] يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة .

فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر وذكر أنه كان قد أخذها ليعمل منها برذعة لجمل مريض له ، فقال الرسول : أما نصيبى منها فلك ، فقال الرجل : إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لى بها ، ثم طرحها من يده .

وجاء عقيل بن أبى طالب بإبرة كان قد أخذها ليخيط بها ثيابه ، وقد أصاب الرجل أربعة من الإبل وأربعين شاة ، وأصاب الفارس ثلاثة أمثال ذلك .

الحلم شيمته

وأقبل رجل من أعراب تميم فوقف على النبى عليه الصلاة والسلام وقال له : يا محمد ، لم أرك عدلت .

فغضب الرسول الحليم ، وقال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى . فعند من يكون ؟

واستأذن عمر بن الخطاب الرسول فى قتله فأبى ، وكان الحلم من شيمه والعفو من أسمى صفاته .

وأعطى الرسول عليه الصلاة والسلام عباس بن مرداس دون ما أعطى بعض زعماء العرب المشركين ليحبب إليهم الإسلام ، فلم يتسام عباس لفهم سياسة الرسول ، فقال قصيدة يعتب فيها ويقول إنه ليس دون من أجزل لهم العطاء ، ولا آباؤه بدون آبائهم .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اقطعوا لسانه عنى ، فأعطى حتى رضى .

---

(١) الغلول : إخفاء شىء من الغنائم قبل التوزيع .

بين النبى والأنصار

لما أعطى الرسول عليه الصلاة والسلام عطاءه الجزيل قريشاً وزعماء العرب ولم يكن للأنصار نصيب من هذه الخصوصية ، وجدوا فى أنفسهم شيئاً من ذلك .
وقال قائلهم : لقى رسول الله قومه فهو يعطيهم ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم .

وذهب سعد بن عبادة رئيس الخزرج إلى الرسول فبلغه عتب الأنصار عليه .
فسأله : وأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله . ما أنا إلا من قومى .
قال : فاجمع لى قومك بهذه الحظيرة[١] ، فلما اجتمعوا أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال :

اللهم ارحم الأنصار

يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وموجدة[٢] وجدتموها على فى أنفسكم ؟
ألم آتــكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة[٣] فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ، الله ورسوله أَمَنّ[٤] وأفضل .

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل .

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : أما والله لو شئتم لقلتم فَصَدَقْتُمْ ولَصُدِّقْتُمْ : أتيتنا مُــكَذَّباً فَصَدَّقْناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك .

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعَاعَة[٥] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس

---

(١) الحظيرة : مربط الإبل والماشية .

(٢) الموجدة : العتاب .

(٣) عالة : جمع عائل أى فقير .

(٤) من المنة : أى النعمة .

(٥) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْبا وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا[1] لحاهم . وقالوا : رضينا برسول الله قَسَماً وحظاً .

إسلام هوازن

ورد أهلها إليها

و بينما كان النبى عليه الصلاة والسلام مقيما بالجعرانة جاءه وفد من هوازن يعلن إسلامها و يطلب إليه أن يمن عليهم برد أهلهم وأموالهم إليهم ، وكان رئيس الوفد زهير بن صُرَد . فقال قائلهم .

يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامْنُن علينا مَنَّ الله عليك . وقال زهير بن صُرَد رئيسهم .

إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك[2] ، ولو أنا ملحنا[3] للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعَائِدته[4] علينا وأنت خير المكفولين .

فقال عليه الصلاة والسلام : إن أحب الحديث إلى أصدقه : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ وقد كنت استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون[٣] .

فقالوا يا رسول الله : خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تَرُدُّ إلينا نساءنا وأبناءنا .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

---

(١) أخضلوا لحاهم : بلوها بالدموع .

(٢) يشير بذلك إلى أن النبى عليه الصلاة والسلام رضع فى بنى سعد بن بكر من هوازن .

(٣) ملحنا : أرضعنا .

(٤) العائدة : الفضل .

(٥) لما رجع النبى عليه الصلاة والسلام من الطائف إلى الجعرانة أقام بها بضع عشرة ليلة قبل أن يوزع ما غنمه من ذرارى وأموال هوازن انتظار مقدمها مسلمة فلما لم تقدم وزع الغنيمة .

ثم طلب إليهم عليه الصلاة والسلام أن يقوموا بعد أن يصلى الظهر، فيستشفعوا به إلى المسلمين، و بالمسلمين إليه فى أبنائهم ونسائهم، فلما فعلوا ذلك، قال الرسول: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم.

فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله.

وقال الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله.

وأبى بعض أجلاف العرب أن ينزلوا على هذا القضاء الشريف فأخذ النبى عليه الصلاة والسلام جميع من بأيديهم من سبى هوازن وردهم إلى أهلهم. على أن يعطيهم بكل إنسان ست فرائض[1] من أول غنم يصيبه.

مثل أعلى فى التسامح

وأمر عليه الصلاة والسلام بحبس آل مالك بن عوف رئيس المشركين فى معركة حنين، فقال وفد هوازن: إنهم خيرنا، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أريد بهم الخير. وسأل عن مالك بن عوف أين هو؟ فقالوا: إنه فى الطائف، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: بلغوه أنه إن جاءنى مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل.

ولما بلغ مالكا هذا العرض الكريم سارع بالهرب من الطائف قبل أن تعلمه ثقيف فتحبسه، وسار إلى الرسول فأسلم واسترد أهله وماله. وقد ولاه الرسول عليه الصلاة والسلام على من أسلم من هوازن. ثم صار بعد إسلامه ألدّ عدو لثقيف وأشد الناس نكاية بها.

عمرة الجعرانة

ثم خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من الجِعْرانة معتمراً فى ذى القعدة من

---

(١) الفريضة: اسم البعير الذى يؤخذ فى الزكاة.

السنة الثامنة فلما فرغ من عمرته ، خرج من مكة عائداً إلى المدينة واستخلف على مكة عتاب بن أسيد وجعل له درهماً كل يوم يعيش به ، فقال عتاب :

أيها الناس ، أجاع الله كَبِدَ من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً كل يوم ، فليست بى حاجة إلى أحد .

وخلف الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ، معاذ بن جبل يفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن .

وحج العرب الذين لم يسلموا هذا العام — ومكة فى أيدى المسلمين — على ما كانوا يحجون عليه فى الجاهلية ، وكانت لذلك حكمة سامية هى أن يتصلوا بالإسلام ويتعرفوا تعاليمه ويقفوا على أوامره ونواهيه فيطلعوا على فرق ما بينه وبين عقائدهم الوثنية فيسهل عليهم اعتناقه ، وقد كان ذلك .

وحج بالمسلمين عتاب بن أسيد أمير مكة من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام .

قصة شاعر

كان لزُهَيْر بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى ولدان شاعران أحدهما : بُجَيْر ، وقد أسلم ، وثانيهما كعب ظل على شركه ، ولما بلغه إسلام أخيه لامه لوماً شديداً فى شعر أرسله إليه ، فلما فتحت مكة وفر من كان فيها من الشعراء الذين كانوا يؤذون رسول الله بشعرهم خوفاً منه . ذهب بجير إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأطلعه على الشعر الذى جاءه من أخيه ثم كتب إلى أخيه ينذره بالقتل إن هو لم يسلم ، ويقول له : إن الرسول لا يقتل أحداً جاءه مسلماً .

فلما تسلم كعب رسالة أخيه ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأرجف به أهل الحى أنه مقتول فاعتزم الإسلام وقدم المدينة ونزل على صديق له بها من جهينة فأخذه الجهنى معه إلى مسجد الرسول عند صلاة الصبح ، فلما فرغ النبى عليه الصلاة والسلام من صلاته ، أشار الجهنى إلى كعب يعرفه بالرسول . فذهب كعب إلى الرسول وهو لا يعرفه ، ووضع يده فى يده ، وقال :

يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء يستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم .

قال : أنا كعب يا رسول الله ، ثم أسلم ، واندفع ينشد النبى عليه الصلاة والسلام قصيدته العصماء :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول　　متيم إثرها لم يفد مكبول

وهى قصيدة من جيد الشعر وعيون القصيد فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتغنى بمحامده والإشادة بمآثره الشريفة . ولما بلغ كعب فى إنشاده قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به　　مهند من سيوف الله مسلول

نظر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه كالمُعَجِّب لهم من حسن القول وجودة الشعر .

مولد إبراهيم عليه السلام

وفى ذى الحجة من السنة الثامنة ولدت مارية القبطية إبراهيم ابن الرسول عليه السلام ،فدفعه الرسول إلى أم بردة بنت المنذر زوج البراء بن أوس من بني النجار لترضعه .

واشتد الأمر على نساء الرسول حين رزقت مارية منه الولد ولم يرزقن .

وقد توفى إبراهيم عليه السلام فى السنة العاشرة الهجرية وعمره ثمانية عشر شهراً، فحزن الرسول عليه الصلاة والسلام لوفاته حزناً شديداً فاضت منه عيناه الكريمتان .

وقد صادف يوم وفاته كسوف الشمس فكان لذلك وقع عظيم فى النفوس ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام نبه إلى أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده ، فلا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته .

الإسلام فى اليمن

إسلام صداء

وبعث النبى عليه الصلاة والسلام قيس بن سعد فى أربعمائة رجل إلى صداء من قبائل اليمن ، فجاء رجل من هذه القبيلة إلى النبى وقال له : إنى جئتك وافداً عمن ورائى ، فاردد الجيش وأنا لك بقومى ، فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام برد الجيش .

وانقلب الرجل إلى قومه فجاء بخمسة عشر رجلا من خيارهم ، ونزل هو ومن معه ضيوفا على سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، ثم قابلوا الرسول وبايعوه على الإسلام ، وقالوا له نحن لك على من وراءنا من قومنا .

وقد كان هؤلاء القوم من الصادقين ، فإنهم عملوا على نشر الإسلام فى قبيلهم حتى فشا فيهم ، وقد قدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام مائة من خيارهم أثناء حجة الوداع .

المنادون من وراء الحجرات

إسلام تميم

وحدث فى أخريات السنة الثامنة الهجرية أن أرسل النبى عليه الصلاة والسلام بشر بن سفيان العدوى إلى بنى كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم ، فعز على بنى تميم وهم جيران لهم أن يأخذ الرسول الصدقات من الأغنياء ليوزعها على الفقراء ، فمنعوا بنى كعب بالقوة أن يسلموا نائب الرسول صدقاتهم .

ولما بلغت الرسول عليه الصلاة والسلام حماقة بنى تميم أرسل إليهم الأحمق المطاع : عيينة بن حصن الفزارى - وكان قد أسلم - فى رهط من الأعراب ، فأغار عليهم وأسر اثنى عشر منهم ، وسبى إحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً .

وجاءت أشراف بنى تميم فى إثر أحسابها ، وكان من بينهم عطارد بن حاجب ابن زرارة ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وقيس ابن

عاصم، وغيرهم من زعماء تميم وأهل البيوتات فيها ، ولكنهم على ذلك أعراب أجلاف ، فلما قدموا المدينة دخلوا مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونادوا الرسول من وراء حجراته ، أَنِ اخرج إلينا يا محمد ، فآذى ذلك رسول الله فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد ، جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا .

ثم أذن بلال للظهر وصلى الرسول الفريضة ، فالتف حوله بنو تميم ، وخطب عطارد بن حاجب فقال :

الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاماً ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عدداً ، وأيسره عدة ، فمن مِثْلُنا فى الناس ؟ ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فاخرنا فَلْيُعَدِّدْ مثل ما عَدَّدْنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا وأنا نعرف بذلك .

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لثابت بن قيس بن الشَّمَّاس الخزرجى : قم فأجب الرجل فى خطبته . فقام ثابت ، فقال :

الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسباً ، وأصدقه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعالا .

ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن

آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات . والسلام عليكم .

ثم قام الزبرقان بن بدر فألقى قصيدة يفخر فيها بقومه .

وقام حسان بن ثابت فرد عليه بقصيدة من روى قصيده ، افتخر فيها بقومه ونصرهم الإسلام .

فلما فرغ حسان بن ثابت من إنشاده ، قال الأقرع بن حابس :

وأبى ، إن هذا الرجل لَمُؤَتى له ، لَخَطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا .

ثم أسلم القوم ، وفيهم نزلت الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[1] » .

السنة التاسعة الهجرية

غزوة تبوك[2]

بعد أن فتح الله مكة على المسلمين ، وهزم جموع القبائل فى حنين ، وأسلمت القبائل التى حول الطائف ، وأخذ الإسلام ينتشر بين القبائل ، اتجهت أنظار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الروم فى الشام ، لينشر الإسلام فيه ، وخاصة أنه علم أن الروم تتهيأ لغزوه ، وأن للمسلمين عليهم دماء بما أصابوه منهم فى غزوة مؤتة التى قتل فيها أمراء الجيش الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، ومن أجل هذا كله أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالتجهز لغزو الروم .

---

(١) الحجرات : ٤ ، ٥

(٢) تبوك : اسم لعين تقع فى مكان على مشارف الشام . وهذه التسمية أطلقت عليها فى هذه الغزوة ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام نهى عن المساس بها فخالفه أربعة من المنافقين وعبثوا بها فجاءهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم : ما زلتم تبوكون بها ، والبوك كالحفر فى شىء ، فأطلق عليها هذا الاسم وعرفت هذه الغزوة به .

وكان من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام فى الغزو أن يكتم وجهته ليفجأ العدو الذى يقصد إليه ، أما فى هذه المرة فقد صرح بها لبعد الشقة وكثرة العدو الذى يقصد إليه ، لكى يتأهب الناس لهذا السفر الطويل الشاق بما هو أهل له من زاد وعدة .

امتحان شديد

وكان ذلك فى زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، وأحب الناس المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ولذلك امتحن المسلمون فى هذه الغزوة امتحاناً شديداً ، وراجت سوق النفاق بين المنافقين ، وابتلى فيها نفر صِدْق من المسلمين ، لم يشكّوا ولم يرتابوا ولكنهم ابتلوا فصبروا حتى عفا الله عنهم .

الباذلون الخيِّرون

و بعث الرسول عليه الصلاة والسلام رسله إلى مكة و إلى القبائل العربية يستنفرها للقتال فنفر كثير منها ، ورغب عليه الصلاة والسلام إلى موسرى المسلمين فى تجهيز المعسرين ، فاستجاب بعضهم لرغبته ؛ وكان عثمان بن عفان على رأس الباذلين فى سبيل الله ، فقد خرج من ماله عن عشرة آلاف دينار ، وأمد الجيش فوق ذلك بثلاثمائة بعير وخمسين فرساً ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه .

وخرج أبو بكر عن كل مايملك معونة لتجهيز الجيش ، وهو أربعة آلاف درهم ، فسأله الرسول : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ فقال : لهم الله ورسوله ، وتبرع عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وتبرع عبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب بمال كثير .

وتسابق المهاجرون والأنصار فى التبرع حتى أرسلت النساء حُلِيَّهُنَّ ، مشاركة منهن فى إعداد الجيش .

وثقل على بعض المسلمين الغزو فى الظروف التى أسلفنا وصفها ، فأخذوا ينتحلون الأعذار المصطنعة للتخلف ، وقد أنزل الله فى كل من اعتذر بسبب كاذب قرآنا .

فمن المتخلفين : الجد بن قيس ، فقد أقام عذره على أنه رجل محب للنساء يخشى الفتنة إذا نظر إلى نساء الروم ، فأنزل الله فيه :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ(١) » .

وقال قوم من المنافقين لا تنفروا فى الحر ، زَهَادَةً فى الجهاد و إرجافا بالرسول ، فأنزل الله فيهم :

« وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(٢) » .

البكّاءون

ثم إن بعض الصادقين من المسلمين الفقراء ، وكانوا سبعة ، جاءوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام يبكون لعجزهم عن اقتناء دواب تحملهم ، فقال لهم الرسول : لا أجد ما أحملكم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

فجهز عثمان ثلاثة منهم ، وجهز العباس اثنين ، وجهز يامين بن عمرو اثنين .

وبلغ النبى عليه الصلاة والسلام أن ناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت أحد اليهود ، يثبطون الناس عن الجهاد ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم البيت ، ففعل وذعر المنافقون ففروا هاربين .

وخرج النبى عليه الصلاة والسلام بالجيش وضرب عسكره على ثنية الوداع(٣) واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة ، وكان عدد الجيش أكثر من ثلاثين ألفاً ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس .

وضرب عبد الله بن أبى رأس المنافقين عسكره على حدة ، وكان معه خلق كثير ، فلما سار الرسول بجيشه تخلف رأس النفاق ومعه عسكره .

وكان هناك نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله حتى تخلفوا عنه

---

(١) التوبة : ٤٩ (٢) التوبة : ٨١

(٣) مكان مشرف على المدينة .

من غير شك ولا ارتياب ، منهم : كعب بن مالك ، ومُرَارة بن الربيع ، وهلال بن أمية وأبو خَيْثَمة ، وكانوا نفر صدق لا يتهمون فى إسلامهم .

على يخلف النبى فى أهله

وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا له وتخففاً منه ، فحمل على سلاحه ولحق بالرسول وهو على ثلاثة أميال من المدينة ، فقال :

يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى ، استثقالا وتخففاً !

فقال عليه الصلاة والسلام : كذبوا ، ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى !

فرجع على ومضى الرسول لشأنه .

أصحاب الرايات

وأعطى رسول الله عليه الصلاة والسلام لواء الجيش لأبى بكر ، وأعطى راية المهاجرين للزبير بن العوام ، وراية الأوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج للحباب ابن المنذر .

ولما مر الجيش بالحِجْر ، وهى ديار ثمود ، أمر النبى عليه الصلاة والسلام أن لا يشرب أحد من مائها ولا يتوضأ به ، ثم غطى وجهه بثوبه واستحث راحلته ، ثم قال :

لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

فلما أصبح الناس ولا ماء معهم ، شكوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فدعا ربه فأرسل — سبحانه — سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

وحدث أثناء الطريق أن ضلت ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأرجف به

أحد المنافقين المصاحبين للجيش طمعاً فى الغنيمة ، وقال : يزعم أنه نبى ولا يعرف مكان ناقته ، وأوحى الله إلى نبيه بذلك ، فقال :

إن رجلا قال : هذا محمد يخبركم أنه نبى ، و يزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ، و إنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى هذا الوادى ، فى شِعْب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها . فذهبوا فوجدوا الناقة فى المكان الذى وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثم مضى الرسول فى طريقه فجعل يتخلف عنه أفراد من الجيش ، فيقولون يارسول الله : تخلف فلان ، فيقول : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، و إن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

كن أبا ذر

وكان أبو ذر الغفارى يركب بعيراً بطيئاً فاته الجيش ، فقال الصحابة : تخلف أبو ذر يارسول الله ، فقال العبارة نفسها التى قالها فيمن تخلف قبله .

أما أبو ذر — وكان رجل صدق و إيمان — فإنه لما رأى كلال بعيره نزل عنه وحمل متاعه على ظهره وسار فى إثر الجيش ، و بينما النبى عليه الصلاة والسلام فى بعض منازله رأى أحد المسلمين شبحاً يسعى من بعد نحو الجيش ، فنظر إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقال :

كن أبا ذر ، وكان أبا ذر ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، و يموت وحده ، و يبعث وحده .

فأما الاثنتان اللتان من شأن الدنيا فقد صدق الله رسوله فيهما ، فكان أبو ذر أمة وحده فى أمر الدين والدنيا ، يعرف ذلك القارئون لحياته ومماته (انظر سيرة ابن هشام : غزوة تبوك) .

نبوءة تحققت

ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم مكان العين التى سميت بتبوك وهو أول مشارف الشام من الجنوب ، نزل بالجيش فى أرض لا عمارة بها ، فقال الرسول لمعاذ بن جبل : يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا ملىء بساتين . وقد تحقق ذلك .

ثم شرع الرسول فى تنفيذ الغرض الذى جاء من أجله ، وقبل أن نهمك فيه نحب أن نروى الطريقة الآتية :

كن أبا خيثمة

أسلفنا أن من بين النفر الصدق الذين تخلفوا عن رسول الله لا عن ريبة أو شك ، أبو خيثمة ، وحدث بعد سفر الرسول عليه الصلاة والسلام بأيام أن خرج أبو خيثمة من داره لبعض شأنه ، ثم رجع إليها فى الظهيرة فوجد امرأتين له فى عريشين[1] لهما فى بستانه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وهيأت له طعاما ، فلما رأى ذلك قال : رسول الله فى الشمس والحر والريح وأبو خثيمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف !

ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيآ لى زاداً ، ففعلتا ، ثم ركب بعيره وخرج فى طلب الرسول حتى أدركه وهو نازل بتبوك ، فلما دنا من الجيش ، قال الناس : هذا راكب مقبل ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : كن أبا خيثمة .

فقالوا يا رسول الله : هو والله أبو خيثمة .

فلما أناخ راحلته وأقبل على الرسول عليه الصلاة والسلام يسلم عليه قال له :

---

(١) العريش : شبه خيمة يتخذ فى الحر للطف هوائه عن البيوت .

أولى لك[1] يا أبا خيثمة .

وأخبر أبو خيثمة الرسول بقصته فدعا له بخير .

مصالحة النبى لأهل البلاد

واستقصى الرسول عليه الصلاة والسلام الأنباء فلم يجد أثراً لجيش الروم المزعوم ، ولكن رؤساء البلاد التى تجاور تبوك وهى أيلة وجرباء وأذرح وميناء ، بادروا بالوفود إليه حين علموا بمقدمه ، وطلبوا إليه الصلح ، فأجابهم عليه الصلاة والسلام إلى ما طلبوا وكتب لهم كتبا بذلك ، وفرض عليهم فروضاً إما عينا وإما ثماراً .

أسر صاحب دومة

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد إلى ملك دُومة وهو أُكَيْدِر بن عبد الملك وكان نصرانياً من كندة ، وقال الرسول لخالد : إنك ستجده يصيد البقر ، فخرج خالد إلى الحصن فى ليلة مقمرة حتى إذا كان منه بمنظر العين ، حدث أمر عجيب ؛ فقد جاءت البقر تحك بقرونها باب الحصن ! وكان أكيدر يجلس على سطح له ومعه امرأته ، فقالت له : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ! قالت : فمن يترك هذا ؟ قال : لا أحد !

فأخذ سلاحه وركب فرسه وخرج فى نفر معه ، فما هو أن برز من باب الحصن حتى تلقته خيل رسول الله فأخذته أسيراً ، وقدم به خالد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فحقن دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله .

الرجوع إلى المدينة

وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام بتبوك بضع عشرة ليلة ، ثم استشار أصحابه هل يمضى إلى ما وراء ذلك من الشام أو يرجع إلى المدينة ؟ فقال عمر بن الخطاب: إن كنت أمرت بالسير فسر . فقال الرسول : لو كنت أمرت بالسير لم أستشر . فقال عمر :

---

(١) أولى لك : كلمة تفيد التهديد ، أى دنوت من الهلكة .

يا رسول الله ، إن للروم جموعا كثيرة ، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام ، وقد أفزع الروم دنوك منهم ، فلو رجعنا فى هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً .

فأخذ الرسول برأى عمر ، وانصرف قافلا إلى المدينة .

هدم مسجد الضرار

حدث أثناء اشتغال النبى صلى الله عليه وسلم بتجهيز الجيش لغزوة تبوك أن جاءه جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يعارضون به مسجد قباء ، يدعونه للصلاة فيه فاعتذر لهم عن عدم استطاعته ذلك لمـا هو فيه من الاهتمام بأمر الغزو ، وهو عليه الصلاة والسلام يعلم أنهم إنما بنوه ضراراً وتفرقة .

فلما بلغ الرسول فى مقدمه إلى المدينة عائداً من غزوة تبوك ذى أوان ، وهو على مسير ساعة منها ، أرسل جماعة من المسلمين فهدموا مسجد الضرار وحرقوه .

وقد نزل فى هذا المسجد قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[١] » .

المخلفون الكاذبون

وعلى إثر مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة سارع إليه المخلفون الكاذبون من أهل النفاق ، يعتذرون عن تخلفهم عنه و ينتحلون أعذاراً كاذبة ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل ما ظهر منهم ووكل ما بطن إلى الله واستغفر لهم ، وقد أنزل الله عز وجل فيهم قوله :

« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ[٢] » الآية .

---

(١) التوبة : ١٠٧ (٢) التوبة : ٩٤

الثلاثة الذين خلفوا وكانوا مؤمنين

وكان من حديث الذين خلفوا وهم مؤمنون صادقون ، وقد ذكرنا أسماءهم أول الكلام عند غزوة تبوك وكانوا أربعة ، سلم أحدهم وهو أبو خيثمة ، وقد مرت بالقراء قصته ، أما الثلاثة الآخرون فإنهم سارعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم إثر عودته إلى المدينة ، وصدقوه عن ذات أنفسهم ، فلم ينتحلوا أعذاراً ، ولم يوهموا بأسباب ؛ بل اعترفوا بتقصيرهم وكان من بينهم كعب بن مالك وهو ممن بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، فجاء النبى وقال له :

إنى يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ولقد أُعطيت جَدَلًا ، ولـكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عنى ، وليوشكن الله أن يُسْخِطَك على ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تَجِدُ على فيه ، إنى لأرجو عقباى من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك .

وأمر النبى عليه الصلاة والسلام المسلمين أن لا يكلموا كعباً وزميليه ، ثم أمر الثلاثة المخلفين أن يجتنبوا نساءهم ، فاشتدت عليهم الحال وعظم عليهم الأمر ، وظلوا كذلك خمسين ليلة حتى أنزل الله رحمته بهم فتاب عليهم وعفا عنهم ، يقول سبحانه وتعالى :

« لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[١] » .

---

(١) التوبة : ١١٧ ، ١١٨

ولما بشر الله المسلمين بهذه التوبة سارع بعضهم إلى الثلاثة المخلفين فبشرهم بذلك ، وجاء كعب بن مالك إلى النبى عليه الصلاة والسلام فسلم عليه ، فقال له المصطفى :

أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك ، فقال كعب : أَمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله .

قال كعب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه ، فقلت :

إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله و إلى رسوله .

فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام :أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك .

وقال كعب : فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام كانت أعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا .

نكتة بيائية

قال كعب بن مالك فى حديثه إلى الرسول بعد عودته إلى المدينة : « ولقد أعطيت جدلا » يقصد به إلى أنه لو اتجه إلى التمويه والسفسطة لوجد متسعاً من القول ، ولكنه آثر الصدق . وقد أعجبنا منه تفسيره للآية التى نزلت فيه هو وزميلاه وفيها « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » فقد فسرها بقوله :

وليس الذى ذكر الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة ولكن لتخليفه إيانا و إرجائه أمرنا عمن حلف له — أى للرسول — واعتذر إليه ، فقبل منه .

رضى الله عنه ، ما أبلغه وأعلمه بمرامى الذكر الحكيم !

إسلام عبدة اللات وتحطيم معبودهم

كان عناد ثقيف يشبه من وجوه كثيرة عناد قريش قبل إسلامها ، وربما كانت أشد جفاء منها لغلبة البداوة عليها ولاعتزازها بحصنها المنيع وثرائها المستند إلى الزرع

والفاكهة الكثيرة بأرضها ، وكانت حتى الآن هى القبيلة الوحيدة ذات الشأن التى ظلت سادرة فى عمايتها وسط الرقعة الإسلامية التى عمها الإيمان بالله وتخلصت من الشرك وعبادة الأوثان ، ولذلك كان أمرها يشغل المسلمين كثيراً و يحملهم على التفكير فيها طويلا .

إنهم قاتلوك

وكان عروة بن مسعود أحد سادة ثقيف قد هداه الله للإسلام وسأل النبى عليه الصلاة والسلام أن يأذن له فى الذهاب إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام ، وخشى عليه الصلاة والسلام جفاء قومه ، فقال له : إنهم قاتلوك . فقال عروة : يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم !

وذهب عروة إلى قومه معتزاً بجاهه عندهم ومنزلته فيهم ،فأشرف على مرتفع ودعاهم إلى الإسلام وأخبرهم بإسلامه ، فكان ردهم عليه أن رشقوه بالنبل من كل مكان فأصاب سهم منه مقتلا فسقط شهيدا ، وسئل قبل وفاته ، ما ترى فى دمك ؟ قال : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فِىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم .

ورأت ثقيف بعد ذلك أنها أصبحت فى عزلة من العرب وأن غربان العرب أخذوا يتخطفونها من كل جانب ، فأدركت أنه لا طاقة لها بحرب العرب كلهم ، ذلك إلى ما كان يتناهى إليها من انتشار الإسلام وازدياد شوكته كل يوم ، فكان أن اجتمعت للتشاور ، فاقترحت على عبد ياليل بن عمرو بن عمير وكان فى موضع الرياسة منها أن يذهب فيقابل الرسول عليه الصلاة والسلام ، فخشى أن يصيبه ما أصاب عروة بن مسعود إذا رجع إليهم بغير ما يرضونه ، فأبى إلا أن يبعثوا معه وفداً يمثل عشائرهم فاختاروا خمسة من بينهم ضموهم إليه ، ثم سار الوفد حتى أتى المدينة ، فكان أول من لاقاه المغيرة بن شعبة الثقفى ، فلما عرفهم أسرع ليخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بقدوم وفد ثقيف ، فلقيه أبو بكر ، فسأل ما الخبر ؟ فلما عرّفه بقدوم وفد ثقيف ،

سأله بالله أن يترك له حمل هذه البشرى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان أن تولى أبو بكر إخبار الرسول بمقدمهم .

ولما قدموا على رسول الله عليه الصلاة والسلام ضرب عليهم قبة فى ناحية من مسجده ، وتولى خالد بن سعيد بن العاص السفارة بينهم و بين الرسول ، وكانوا من الغلظة والجفاء بحيث أنهم لم يكونوا يتناولون طعاماً يأتيهم من عند الرســول إلا بعد أن يأكل منه خالد قبلهم !

ولا شيئاً مسمى

وقد كانوا سألوا الرسول فيما سألوه ، أن يدع لهم معبودهم « اللّات » ثلاث سنين ثم يهدمها بعدها ، فأبى الرسول عليهم ذلك ، فسألوه أن يبقيها سنتين فسنة فشهراً بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى (١) .

فسألوه أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم .

فأجابهم الرسول إلى الثانية وقال : سنعفيكم منها ، أما الصلاة فإنه قال لهم : لا خير فى دين لا صلاة فيه .

إسلام وفد ثقيف

وعلى أثر ذلك أسلم القوم من غير قيد ولا شرط ، وأرســل النبى عليه الصلاة والسلام معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات ، وأمر أبا سفيان أن يدفع دين عروة بن مسعود وأخاه الأسود من كنوز اللات ، وأمَّر الرسول على ثقيف عثمان بن أبى العاص أحدث الوفد سناً لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الإســلام وتعلم القرآن .

ولما عاد القوم إلى ثقيف وشرع المغيرة بن شعبة فى هدم اللات ، خرج نساء ثقيف حسّراً يبكين عليها ، و يقلن :

---

(١) أى ولا أى جزء من مقومات الزمن .

لَتبْكَيَن دُفَّاع[1] أسلمها الرضاع[2]

لم يحسنوا المِصَاع[3]

ثم أسلمت ثقيف ، و بذلك انهار أ كبر حصن من حصون الشرك فى قلب الجزيرة العربية .

حج أبى بكر بالناس

آخر حجة للمشركين وإبراء الذمة منهم

كان فتح مكة فى رمضان من السنة الثامنة الهجرية ، وفيها حج بالناس عَتَّاب بن أسيد أمير مكة من قِبَل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد مضى الحج على ما كان عليه فيما يتصل بالمشركين ، فحجوا على حسب تقاليدهم وأ كثرهم كان يطوف بالكعبة عارياً من ثيابه . وقد اقتضت الحكمة إبقاء العرب على حالهم فى هذه الحجة ليتثنى لهم الاختلاط بالمسلمين وتعرف تعاليم الدين الحنيف .

فلما كانت حجة السنة التاسعة ، ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أمر الحج بالناس وأمضى للمشركين حجهم فيها على أن تكون آخر حجة لهم .

وفى هذا الوقت نزلت سورة براءة فى نقض ما بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه من أنه لا يُصَدُّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام ، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت هناك إلى جانب ذلك عهود خاصة بين الرسول وبين قبائل من العرب إلى آجال مسماة ، فبين الله سبحانه وتعالى الحكم فى ذلك كله فى هذه السورة .

ولما كان نزول سورة براءة بعد مسير أبى بكر ، فقد ألحق به الرسول ، على ابن أبى طالب ليعلن ما فيها من أحكام على الناس فى الحج ، وسئل الرسول

---

(١) أى المدافعة عنهم .

(٢) الرضاع : أى اللئام .

(٣) المصاع : المضاربة بالسيوف .

أن يكل ذلك إلى أبى بكر ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى .

وخرج علىّ حتى لحق أبا بكر ، فلما رآه قال : أأمير أم مأمور ؟ قال على : بل مأمور ، وأخبره الخبر وكان يصلى وراءه .

فلما كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب فأذن فى الناس بما كلفه الرسول تبليغهم إياه ، فقال :

أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته .

وكان المشركون حين يسمعون نداء علىّ يقولون :

سترون بعد الأربعة الأشهر بأنه لا عهد بيننا و بين ابن عمك إلا الطعن والضرب ، إلا أن الناس بعد ذلك رغبوا فى الإسلام بعد إسلام قريش حتى دخلوا فيه أفواجا ، وحج النبى صلى الله عليه وسلم فى العام القابل وقد عاد الدين كله واحد لله رب العالمين .

وفاة رأس المنافقين

فى شهر ذى القعدة من هذا العام ، توفى عبد الله بن أبى بن سلول ، رأس المنافقين بعد مرض دام عشرين يوماً ، ودعى رسول الله عليه الصلاة والسلام ليصلى عليه فلبى الدعاء ، فلما تهيأ للصلاة ، نهض عمر بن الخطاب وقال : يا رسول الله ، أتصلى على عدو الله ، القائل كذا يوم كذا ، والقائل كذا يوم كذا ، وعدّد أيامه والرسول يبتسم ، فلما أكثر ، قال الرسول عليه السلام : أخِّر عنى ، لقد خيرت فاخترت ، قد قيل لى : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ

اللهُ لَهُمْ »[١] فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت . ثم صلى عليه ومشى معه حتى قام على قبره ، ولم يمض غير يسير حتى نزل قوله تعالى :

« وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ[٢] » .

تشريع واجتماع

فى السنة التاسعة فرضت الصدقات فنزلت الآية الكريمة « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا[٣] » فأرسل النبى عليه الصلاة والسلام عماله لجمع الصدقات من المسلمين .

وفيها توفيت السيدة أم كلثوم ابنة رسول الله وزوج عثمان بن عفان .

سورة النصر

إيذان للرسول بلقاء ربه

وفى هذه السنة نزلت سورة النصر :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

وقد أعلم الله نبيه فى هذه السورة بقرب انقضاء أجله . والتوبة هنا — فى رأى أئمة العلماء — الرجوع عما كان بسبيله مما أرسل به من إظهار الدين إذ قد فرغ من ذلك وتم مراده فيه .

والتقدير : إذا جاء نصر الله والفتح ، فقد انقضى الأمر ودنا الأجل وحان اللقاء ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .

وفود العرب على الرسول

كما كانت هجرة الرسول من مكة إلى المدينة بدء تاريخ الإسلام باعتباره قوة مؤثرة وحركة دافعة ، كذلك كانت عودة الرسول إلى أم القرى فاتحا ، بداية عهد

---

(١) التوبة : ٨٠ (٢) التوبة : ٨٤ (٣) التوبة : ١٠٣

جديد ، انتشرت فيه الدعوة الإسلامية بقوة الإيحاء أكثر مما انتشرت بقوة السيف ، وأصبحت الرغبة فيه عاملا متفوقاً فى دخوله على الرهبة ، وصار الأمر فى شبه الجزيرة كلها أشبه بالمسابقة والمنافسة بين زعماء العرب ، أيهم يكون له شرف الأولوية فى الحظوة بالإسلام ، ومن منهم يكون له فضل القدوم إلى محمد عليه الصلاة والسلام قبل منافسيه فى الجاه ، وهم كثيرون ؟

وكان النبى عليه الصلاة والسلام بعد غزوة تبوك قد استقر بالمدينة ولم يخرج بنفسه فى غزوة بعدها ، بل كان يرسل فى رياسة الغزوات والمهمات ذات الصفة الحربية أو السياسية أحد أصحابه ، وكان مما أعان على تنفيذ هذه الخطة نبوغ كثيرين من الصحابة فى فنون الحرب والسياسة ، وتمرسهم الكثير بها ونجاحهم فيها .

وكان استقرار النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة فى هذه الفترة — من فتح مكة حتى لحوقه بالرفيق الأعلى — حتما مقضياً ، وذلك لكى يتهيأ له الوقت لوضع قواعد السياسة وضرب المثل على تعاليم الإسلام الاجتماعية ، وصحيح أنه كان عليه الصلاة والسلام مصدر تعليم و إرشاد فى جميع مناهج الحياة إن حالاً و إن راحلا ، و إن كان على حرب أو جانح إلى سلم ، ولكن مما لاشك فيه أن حال السلم والاستقرار أعون على ذلك وأهدى سبيلا .

ثم إن هناك مُهِمَّةً سياسية كبرى أُضيفت إلى الأسباب السالفة وأوجبت أن يكون الرسول فى أكثر أوقاته مقيما بعاصمته؛ألا وهى مهمة استقبال الوفود العربية التى أخذ النور الساطع من المدينة يبهر أبصارها و يجذب أفئدتها إليه . وسنذكر فى هذا الفصل أمر هذه الوفود التى كثر عددها وعظم شأنها ، وكان فيما انطلقت به ألسنة خطبائها وشعرائها فى حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، تصوير متقن لمبلغ ما عم العرب جميعاً من التأثر بالدين الجديد الخالد، والانجذاب إلى قطبه الأعظم و بطله الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وفد عبد القيس

كان من أكرم الوفود التى قدمت على رسول الله عليه الصلاة والسلام وأشرفها مكانة وأحسنها أدبا ، وفد عبد القيس ، وقد بشر بهم النبى الكريم أصحابه قبل مقدمهم ، فقال :

سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل المشرق ، لم يُكْرَهُوا على الإسلام ، قد أنضوا الركاب وأفنوا الزاد ، اللهم اغفر لعبد القيس .

وما هو إلا قليل حتى قدم الوفد ، ولما وقعت أبصارهم على النبى عليه الصلاة والسلام رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد ، وسارعوا إليه يسلمون عليه ، فقال لهم : مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى .

فقالوا يا رسول الله ، إنا نأتيك من شقة بعيدة ، وإنه يحول بيننا و بينك هذا الحى من كفار مضر ، وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل . فقال عليه الصلاة والسلام : آمركم بالإيمان بالله ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغانم الخمس . ثم نهاهم عن الخمر جملة ، فقال أحدهم وهو الأشج : يا رسول الله ، إن أرضنا ثقيلة وخمة ، و إنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا ، فَرَخِّص لنا فى مثل هذا ، وأشار بيده إلى هيئة مقدار صغير ، فقال الرسول : يا أشج ، إن رخَّصْت لك فى مثل هذه ، شربته فى مثل هذه — وفرج بين يديه و بسطهما — حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه ، قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف .

ومن المعجزات الشريفة للرسول عليه الصلاة والسلام أن أحد أعضاء هذا الوفد كان قد حدث له ما ذكره النبى، فقد سكر القوم وعدى أحدهم عليه فضربه فجرحه وكان يخفى جرحه ، وذلك الرجل هو جهم بن قيس ، فعجبوا من علم الرسول بهذا الأمر و إشارته إليه .

وكان فيما قاله النبى عليه الصلاة والسلام للمنذر بن عائذ الأشج : إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة .

وذكر الوفد للرسول أن معهم ابن أختهم : مطر بن هلال العنزى ، فقال : ابن أخت القوم منهم .

وقد زودهم النبى عليه الصلاة والسلام الأراك يستاكون به ، ودعا لهم خيراً .

أبرك وافد على قومه

ضمام بن ثعلبة رائد بنى سعد بن بكر

وبعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة رائداً عنهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقدم عليه ثم دخل المسجد والرسول بين أصحابه ، وكان ضمام رجلا جلداً أشعر ذا غديرتين[1] ، فأقبل حتى وقف على المجلس ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال الرسول : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أمحمد ؟ قال : نعم ، قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدَنّ بها علىّ فى نفسك . قال : لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدا لك .

قال : أنشدك : الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم .

ثم كرر عليه القسم السابق بالألفاظ نفسها مرات وسأله فيها هل أمره الله بأن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ، وأن نصلى الصلوات الخمس ، وأن نؤدى الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها . والرسول يجيبه بعد كل قسم : أن نعم .

فلما فرغ من أسئلته ، قال :

فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف عائداً إلى قومه ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : إن صدق ذو الغديرتين دخل الجنة .

---

(١) الغديرة : الذؤابة من الشعر .

ورجع ضمام إلى قومه فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى !

قالوا : مه ، يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون !

قال : ويلكم ! إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ؛ فما أمسى من ذلك اليوم أحد فى حيه من رجل أو امرأة إلا وهو مسلم .

ولما بلغت هذه الأخبار الطيبة المدينة فرح بها النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، وقال عبد الله بن عباس معلقاً عليها :

ما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة .

قوم شرح الله صدورهم للإيمان

وفد تُجيب

وقدم وفد تجيب ، وهى قبيلة كندية ، على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعهم صدقات أموالهم ، وقالوا :

يا رسول الله ، إنا سقنا إليك حق الله فى أموالنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : ردوها ، فاقسموها على فقرائكم ، فقالوا : يا رسول الله ، ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا ! فقال عليه الصلاة والسلام : إن الهدى بيد الله ، فمن أراد به خيرا شرح صدره للإيمان .

وجعل القوم يسألون الرسول عن القرآن وأحكام الدين فسره ذلك منهم وزاده إقبالا عليهم ، ولما هموا بالرحيل ، سألهم المسلمون أن يطيلوا إقامتهم بعض الوقت ، فقالوا إنهم يتعجلون العودة ليخبروا قومهم بما أفادوه من العلم وأسرار التنزيل وأخبار الرسول ، فلما جاءوه يستأذنونه فى السفر قال لهم هل بقى منكم أحد ؟ فقالوا غلام خلفناه فى رحالنا وهو أحدثنا سناً ، قال : فأرسلوه إلينا ، فجاء وسلم على النبى عليه الصلاة والسلام

وقال : يا رسول الله ، اقض حاجتى كما قضيت حاجة قومى .

قال الرسول : وما حاجتك ؟

قال : حاجتى أن يغفر الله لى و يرحمنى ، و يجعل غناى فى قلبى .

فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه .

زيد الخيل ووفد طيء

وقدم على النبى عليه الصلاة والسلام وفد طيء وعلى رأسه زيد الخيل ، وكان سيد قومه وفارسا عظيما من فرسان العرب ، قد جمع إلى حسن الْخُلُق جسامة الْخَلْق ؛ حتى إنه كان يطأ الأرض بقدميه وهو على فرسه ، وكان مغرما بالخيل يقتنى جيادها ولذلك سمى زيد الخيل .

وقد أسلم زيد ومن معه وحسن إسلامهم ، وسر بهم النبى عليه الصلاة والسلام سروراً كبيراً ، وقال :

ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ،إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه .

ثم سماه الرسول : زيد الخير ، وأقطعه بعض الأرض ، وقال :

أى فتى إن لم تدركه حمى المدينة .

وأهدى زيد الخير إلى النبى عليه الصلاة والسلام سيفين كانا معلقين على صنم من أصنام العرب فى الجاهلية .

ومات زيد بالحمى وهو فى طريقه إلى وطنه

وفد همدان

وقدم على الرسول عليه الصلاة والسلام وفد همدان وهو يجمع خيار القوم ، فأنشده شاعرهم مالك بن نمط قصيدة جيدة يمتدحه بها و يقول فيها :

حلفت برب الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هضب قردد(١)

---

(١) الراقصات : الإبل ترقص فى سيرها . صوادر : رواجع . القردد : ما ارتفع من الأرض .

بأن رسول الله فينا مصدق رسول أتى من عند ذى العرش مهتدى
فما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد
وأعطى إذا ما طالب العُرف جاءه وأمضى بحد الْمَشْرَفِيِّ المهنّد

ثم تكلم مالك فأكد إسلام قومه وحبهم العظيم لله ولرسوله وحفاظهم على العهد ما أقام لعلع[١] وما جرى اليعفور[٢] بصلع[٣].

وقد كتب لهم الرسول عليه الصلاة والسلام كتابا يسوغهم فيه استثمار أرضهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقاموا فرائض الإسلام ، وأمَّر عليهم مالك بن نمط ، وقال عليه الصلاة والسلام يصف همدان :

نعم الحى همدان ؛ ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد ، وفيهم أبدال وفيهم أوتاد[٤].

كرام فى كرام

قصة عدى بن حاتم وأخته

كان من أمر عدى بن حاتم وأخته:ولدى كريم العرب وسخيها المشهور : حاتم طى ، أن النبى عليه الصلاة والسلام أرسل على بن أبى طالب فى ربيع الأول من السنة التاسعة فى خمسين فارساً لهدم الفلس صنم طىء ، فقاومه عباد الصنم فانتصر عليهم ، وملأ يده من السبى والغنائم ، ثم هدم الصنم وأحرقه ، وكان من بين السبى : سفانة بنت حاتم طى ، فلما وصل علىّ إلى المدينة هو ومن معه أوصى سفانة أن تستشفع عند رسول الله عليه الصلاة والسلام بأبيها ومآثره ففعلت ، فمنّ عليها بالحرية وأعطاها عطاء جزيلا أطلق لسانها ، فقالت :

---

(١) لعلع : اسم جبل .
(٢) اليعفور : ولد الظبية .
(٣) صلع : اسم موضع .
(٤) أبدال وأوتاد صفتان لأهل الخير والفضيلة يقيمونهما بين الناس وكلما مات بعضهم حل محله آخر.

شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردها عليه .

ثم استضافها الرسول حتى تجد من تذهب فى حراسته إلى موطنها ، وجاء المدينة وفد من عشيرتها فذهبت معه حين عاد .

وكان أخوها عدى قد امتلأ ضغنا على رسول الله ، فكان يقول : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية للنبى عليه الصلاة والسلام حين سمع به منى ، وبلغ من كراهيته للنبى والإسلام أنه أعد خيلا جياداً ليركبها ويفر إلى الشام إذا غشيت خيل محمد بلاده ، فلما حدث ذلك فر إلى الشام وترك أخته فكان من أمرها ما قدمناه .

وبينما هو ذات يوم فى مقامه بالشام إذ وفدت إليه أخته وأنَّبته على هربه وتركها ، ثم قصت عليه قصتها مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال لها وماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تلحق به سريعاً ؛ فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تَذِل فى عز اليمن ، وأنت أنت ، فقال : إن هذا لهو الرأى .

وخرج عدى حتى قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، فسلم عليه ، فقال له : من الرجل ؟ قال عدى بن حاتم ، فاصطحبه النبى إلى بيته ، وبينما هما سائران إذ لقيت النبى امرأة ضعيفة فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها ، فقال عدى فى نفسه : والله ما هذا بملك . ثم مضى به الرسول إلى بيته وقدم له وسادة يجلس عليها ، فأبى عدى مفضلا أن يجلس عليها الرسول ، ولكنه أصر على ذلك فجلس عليها عدى وجلس الرسول على الأرض . ومرة أخرى قال عدى فى نفسه : ليست هذه أخلاق الملوك .

ثم قال له النبى عن مخالفته لعقيدته النصرانية ما أدرك معه أنه عارف بخفايا نفسه ، مطلع عل مروقه من دينه ، وأنه يخلط بين عقيدة أهل الكتاب وشطحات الجاهلية ، ودعاه إلى الإسلام وهو يقول له :

لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخولٍ فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ! ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ! ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وَأَيْمُ الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم !

وما كاد عدى يسمع كلام الرسول ، حتى شرح الله صدره للإسلام فأسلم ، وقال فيما بعد :

قد مضت اثنتان و بقيت الثالثة ، والله لتـكونن ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وايم الله لتـكونن الثالثة ، ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه .

معجزة الرسول تتحقق فى أقل من ثلاث سنين

سـذاجة عربى شهد وعد الرسول

لما فتح خالد بن الوليد الحيرة فى السنة الثانية عشرة أى بعد أقل من ثلاث سنين من إنباء الرسول عدى بن حاتم بفتح القصور البيض من أرض بابل على المسلمين ، جاءه عربى مسلم من جيشه اسمه شويل ، ومعه شهود بأنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يذكر ذات يوم ما رفع له من البلدان ، فذكر الحيرة فيما رفع له ، وكأن شرف قصورها أضراس الكلاب ، فعرف أنها ستفتح له فطلب أن يعطى يومئذ كرامة بنت عبد المسيح ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : هى لك إذا فتحت عُنوة .

ولما كانت الحيرة قد فتحت عنوة فإن خالدا جعل من شروط الصلح مع أهل الحيرة تسليم كرامة بنت عبد المسيح إلى هذا العربى ، وفاءً بعهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت كرامة أخت عمرو بن عبد المسيح وهو أكرم رؤساء

الحيرة على أهلها وسفيرهم إلى المسلمين فى الصلح ، فاشتد ذلك الشرط على أهل كرامة والحيرة كلها وأعظموه جدا ، فقالت لهم كرامة : هونوا عليكم ! فما تخافون على امرأه بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحمق : رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد فسلمها إلى شويل .

فلما تم التسليم ، قالت كرامة لشويل : ما أَرَبُكَ إلى عجوز كما ترى ؟ فادنى — أى خذ منى فدية ودعنى — فقال لها شويل : لا ، إلا على حكمى .

قالت : فلك حكمك مرسلا .

فقال : لستُ لِأُمِّ شويل ، إن نقصتك من ألف درهم !

فتظاهرت كرامة باستكثار ذلك لتخدعه ، حتى إذا أصر عليه وتشدد ، جاءته بالمبلغ الذى عينه فدفعته إليه ، ثم رجعت إلى أهلها .

وتسامع الناس بذلك فعنفوا شويلا ، وعرفوه أنه قد خدع ؛ إذ أنه لو ضاعف هذا المبلغ أضعافاً كثيرة لحصل عليه ، فقال شويل فى سذاجة عجيبة :

ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف !..

وأبى القوم على شويل إلا أن يخاصم أهل كرامة فى ذلك ، وعرض الأمر على خالد ، وقال شويل : كانت نيتى غاية العدد ، وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف !

فقال خالد : أردت أمراً ، وأراد الله غيره ، نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك ، كاذباً كنت أو صادقاً .

ملوك حمير يسلمون

وقدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، رسول يحمل كتباً من ملوك حمير وأقيالها[1] بأنهم أسلموا ، وهؤلاء الملوك هم : الحارث بن عبد كُلال ، ونُعَيْم بن عبد كُلال ، والنعمان قَيْل ذى رعين ، ومعافر وهمدان ، وزرعة ذويزن ، فكتب إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، يحمد الله على إسلامهم و إقامتهم شعائر الدين وأدائهم فرائضه ، ثم

---

(١) الاقيال : جمع قيل ، وهو رئيس دون الملك وفوق زعيم القبيلة .

بيّن لهم طائفة من تعاليم الإسلام وأحكامه وأنه أرسل إليهم معاذ بن جبل وعبد الله ابن زيد ومالك بن عُبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، ليفقهوهم فى الدين ويقرئوهم القرآن وجعل رئيس البعثة معاذ بن جبل وأوصاهم بهم خيراً .

وأوصى الرسول معاذاً بقوله :

يسِّر ولا تعسِّر ، و بشر ولا تنفر ، و إنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

يسلم فيقتـــل

قصة فروة بن عمرو الجذامى

كان فروة بن عمر الجذامى عاملا للروم على من يليهم من العرب بمعان وما حولها من أرض الشام ، فأسلم وحسن إسلامه ، و بعث إلى الرسول عليه الصلاة والسلام رسولا يعلمه بذلك ، وأهدى إليه بغلة بيضاء .

فلما بلغ الروم إسلامه ، قبضوا عليه وقتلوه ، فقال وهو مقدم للموت :

بلغ سَرَاة المسلمين بأننى   سَلْم لربى أعظمى ومقامى

إسلام بنى الحارث بن كعب

على يد خالد بن الوليد

و بعث الرسول عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران[1] فى جيش من المسلمين ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا قبل منهم ، و إن لم يفعلوا قاتلهم ، فخرج خالد حتى قدم إليهم ، و بعث رسله يدعون القوم إلى الإسلام و يقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس ، فأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وكان الرسول قد أمره بذلك . ثم كتب خالد إلى الرسول :

---

(١) بلد بين اليمن وهجر .

كتاب خالد إلى الرسول

بسم الله الرحمن الرحيم : من خالد بن الوليد إلى محمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله و بركاته ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثنى إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا أقمت فيهم وقبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، و إن لم يسلموا قاتلتهم ، و إنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و بعثت فيهم ركباناً قالوا : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، آمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى صلى الله عليه وسلم . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله و بركاته .

كتاب الرسول إلى خالد بن الوليد

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن كتابك جاءنى مع رسولك ، تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى مادعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله و بركاته .

فأقبل خالد بن الوليد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ومعه وفد بنى الحارث ابن كعب ، منهم : قيس بن الحصين ذى الغصة ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد ابن المحجّل ، وعبد الله بن قُراد الزيادى ، وشداد بن عبد الله القنانى ، وعمرو ابن عبد الله الضبابى .

فلما قدم القوم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ .

قيل يا رسول الله ، هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب . فلما وقفوا عليه سلموا عليه ، وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله .

فقال الرسول : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، ثم قال :

أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا ؟ فسكتوا ، ثم أعادها الثانية ، فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الرابعة ، فقال يزيد ابن عبد المدان :

نعم ، يا رسول الله ، نحن الذين إذا زجروا استقدموا ، قالها أربع مرات .

ثم قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام عبارة معناها أنهم لو لم يسلموا لحلت عليهم العقوبة القاتلة .

فقال يزيد بن عبد المدان :

أما والله ما حَمِدناك ولا حَمِدنا خالداً .

قال : فمن حمدتم ! ؟

قالوا : حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله .

قال : صدقتم !

ثم سألهم الرسول عليه الصلاة والسلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ .

قالوا : لم نكن نغلب أحداً .

قال : بل قد كنتم تغلبون من قاتلكم .

قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ، ولا نبدأ أحداً بظلم .

قال : صدقتم .

وأمَّر عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام قيس بن الحصين ، و بعث إليهم بعد

أن سافر الوفد عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ، و يعلمهم السنة ومعالم الإسلام ، و يأخذ منهم صدقاتهم ، وكتب له كتاباً مفصلا لوظيفته ، جامعاً لأصول الدين فى العبادة والمعاملات .

مؤامرة لقتل الرسول غدراً

عامر بن الطفيل وشريكه فى التآمر

لم يكن كل وافد على المدينة من العرب ، محباً لله ولرسوله ، بل كان منهم الكذابون وفيهم الغادرون ، ولولا عصمة الله نبيه من كيد الناس لما كان هناك شىء يعصمه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يمشى فى الأسواق و يغشى المجالس و يقعد لأصحابه والوافدين عليه فى المسجد ، يفعل هذا كله من غير حرس يلزمه ولا حيطة يعول عليها . ونحن نقص على القراء قصة غدر أُحكمت تفاصيلها و بُيِّتَتْ تدابيرها لقتل الرسول ، ونهض بها شيطانان من أخبث شياطين العرب ، وهما : عامر بن الطفيل وأرْبَد بن قيس من بنى عامر .

فقد اتفق هذان الخبيثان أن ينتهزا التفاف الوفد الذى انتخبه قومهما : بنى عامر لزيارة الرسول ومبايعته على الإسلام ، فيشغل عامر الرسول بحديثه و يعلوه أَرْبد حينئذ بالسيف .

وقدم الوفد على الرسول ، و بدأ عامر فى تنفيذ كيده ، فقال للنبى عليه الصلاة والسلام : يا محمد ، خَالِّنى — أى اتخذنى خليلا — فقال النبى : لا والله حتى تؤمن بالله وحده ، وأعاد عامر الطلب وسمع الجواب نفسه ، ثم قال حين غضب من زهد الرسول فى صداقته وهو على شركه :

والله لأملأنها عليك خيلا جردا ، ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرسا .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم اكفنى عامر بن الطفيل .

كل هذا وعامر ينتظر من شريكه فى المؤامرة أن يقوم بما اتفقا عليه من قتل الرسول ، وشريكه لا يفعل شيئاً وهو واقف فى ذهول وارتباك !

ولما صرح عامر بن الطفيل وشريكه أربد بن قيس بعداوتهما للرسول جعل أُسَيد بن حضير ، يضرب فى رءوسهما ، ويقول : اخرجا أيها الهجرسان[1] ، فقال له عامر : ومن أنت ؟ قال : أنا أسيد بن حضير . فقال له عامر : أبوك كان خيراً منك ! فقال أسيد : بل أنا خير منك ومن أبى ، لأن أبى كان مشركا وأنت مشرك .

وحين خلا عامر بأربد بعد طردهما من حضرة الرسول . قال له : ويلك يا أربد ، أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض ، رجل هو أخوف عندى على نفسى منك ، وأيْمُ الله لا أخافك بعد اليوم أبداً .

فقال أربد : لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخَلْتَ بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضر بك بالسيف ؟

وقفلا راجعين إلى بلادهما ، فلما توسطا الطريق أصيب عامر بمرض قاتل ، فلجأ إلى بيت امرأة من سلول ، وجعل يقول :

أَغُدَّة كَغُدَّة البعير وموت فى بيت سلولية ، ثم هلك حيث هو .

ومضى أربد وبقية بنى عامر إلى منازلهم ، فلما جاءوها سألت بنو عامر أربد ، ما وراءه ؟ فقال : لا شىء والله ، لقد دعانا إلى عبادة شىء ، لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله .

فخرج بعد مقالته هذه بيومين معه جمل يتبعه ، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما .

وفود أخرى

وقدمت على الرسول وفود أخرى تبايعه على الإسلام من سائر أنحاء الجزيرة العربية ، نذكر منها وفد زبيد وكان من بين أفراده عمرو بن معديكرب الزبيدى فارس الجاهلية المشهور ، وقد أسلم ، فلما اختار الله رسوله إليه ارتد فيمن ارتد من المسلمين ثم أسلم ثانية ، وكانت له مواقف حميدة فى حرب المسلمين مع الفرس يوم القادسية .

---

(١) الهجرس : ولد الذئب واللئيم .

ومن رجالات العرب المشهورة ، فروة بن مسيك المرادى والجارود بن عمرو من بنى عبد القيس ، والأشعث بن قيس فى وفد كندة ، ورفاعة بن زيد الجذامى .

ومن الوفود كذلك ، وفد فزارة ووفد بنى عذرة ووفد بنى محارب ووفد غسان .

وكان شأن هذه الوفود متماثلا : تسلم وتبايع وتتفقه فى الدين ، ثم يرسل النبى عليه الصلاة والسلام معها واحداً أو أكثر من أصحابه ليعلمهم الإسلام ويبصرهم بالدين ، ويكون بمثابة السفير بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام .

الكذابون الأربعة

مسيلمة . سجاح . الأسود العنسى . طليحة الأسدى

لما أظهر الله الإسلام بالجزيرة العربية ، ودخل الناس فيه أفواجا ، دوّى اسم الرسول عليه الصلاة والسلام فى الشرق والغرب ، وملأ أفواه الناس وآذانهم . فمن آمن به فهو يردده فى صلواته ويحمد الله فى غدواته وروحاته ، ومن كفر به حسداً وبغياً ، خافه فأصبح همّه المقيم المقعد وشغله المخيف المقلق .

وتفرد بسوء الذكر وشين القالة من بين أعداء الله ورسوله ، أربعة أوغاد ، نخر الحسد قلوبهم وأعمى الحقد أبصارهم وبصائرهم ، فراحوا يزعمون لأنفسهم نبوة مثل نبوة محمد ، ورسالة مثل رسالته ، ولما كان لكل ناعق أتباع فى كل زمان ومكان فقد التف حولهم خلق كثير ممن لم يكن الإيمان قد عمر قلوبهم وطهر نفوسهم ، وقد خيبهم الله جميعاً وقضى عليهم وعلى دعوتهم بالفشل والخسران ، وتكفلت كتب التاريخ ببيان ذلك على نحو مفصل ، وسنعرض لهم بالقدر الذى يقتضيه سياق السيرة فحسب .

مسيلمة الكذاب

هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير من بنى حنيفة ، وكان معروفا قبل ولادة عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسمى نفسه « الرحمن » ، وقد عمر طويلا حتى قيل إنه قتل يوم اليمامة وله خمسون ومائة سنة .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد رأى فى منامه أن فى يديه سوارين من الذهب فكرههما ، فأُلْهِمَ أن ينفخهما فطارا ، وذكر هذه الرؤيا لأصحابه وأوَّلها بأن السوارين هما : مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى .

ولما قدم وفد بنى حنيفة ليبايع النبى على الإسلام كان من بينه مسيلمة وقد أسلم معهم ، ثم وقف على النبى وفى يده عليه الصلاة والسلام عسيب[1] من سعف النخل ، فسأله مسيلمة أن يجعل له الأمر من بعده ، فأبى عليه ذلك وقال له : لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتكه ، إنى لأُراك الذى منه رأيت (يشير عليه الصلاة والسلام إلى الرؤيا التى أسلفنا ذكرها) .

ولما رجع وفد بنى حنيفة إلى بلاده ، ارتد مسيلمة عن الإسلام ، وادعى أنه شريك محمد فى الرسالة ، وجاء بكذابين من مهرجيه شهدا عند بنى حنيفة أن محمداً أقر له بالشركة فى النبوة ، وكان يرى من أسباب قوته أن يعترف بمحمد نبياً لكى يفيد من الشهادة الملفقة التى تزعم أن الرسول أشركه معه فى الأمر .

فلما اختار الله الرسول إلى جواره صرح مسيلمة بالكفر ، وأرسل إليه أبو بكر جيشاً على رأسه سيف الله خالد بن الوليد فقتله وفتك بأذنابه ، وهذه الواقعة تعرف بواقعة الردة وهى مفصلة فى كتب التاريخ ولا يتحمل المقام الاستطراد إلى التوسع فيها .

وكان مسيلمة يوهم قومه بأشياء تدخل فى أبواب الشعوذة المختلفة ، وقد استخف قومه فأطاعوه إذ كانوا يطمعون أن يوصلهم إلى السيادة على العرب ، وأن يكون لهم بواسطته من الزعامة الروحية ما كان لقريش فى الجاهلية ولمحمد فى الإسلام .

ويقول التاريخ : إن مسيلمة أول من أدخل البيضة فى القارورة ووصل جناح الطائر المقصوص ، وكان يدعى أن ظبية تأتيه من الجبل فيحلب لبنها .

وكان مشئوما جداً وآياته منكسة على الإطلاق : تفل فى بئر قوم سألوه ذلك ليبارك لهم فيها فملح ماؤها ، ومسح رأس صبى فأصابه القراع ، وعلى عينى رجل استشفى

---

(١) عسيب : أى جريدة نخل .

ـيه فابيضتا ، ودعا لرجل بالبركة فى ابنيه فسقط أحدهما فى البئر وأكل الذئب الثانى .

ولما طالبه أتباعه أن يأتيهم بمعجزة حين أعمل فيهم خالد بن الوليد سيفه ، وأوغل فيهم ضربا وقتلا — قال لهم : يا بنى حنيفة دافعوا عن أحسابكم . و بذلك صرح عدو الله قبل وفاته بكذبه وأقر ببهتانه .

وكان الذى قتله وحشى قاتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب فى وقعة أحد ، رماه بحربته على طريقته فأصماه ، ودعا الله أن يجعل هذه كفارة لتلك .

سجاح

كانت سجاح امرأة من تغلب تفقهت فى النصرانية التى كانت شائعة فى قومها، وقد حافظت هذه القبيلة على نصرانيتها فكانت آخر القبائل العربية إسلاما .

ولما اختار الله نبيه إلى جواره ادعت سجاح النبوة ، فالتف حولها قومها وأخلاط من القبائل الأخرى ، حطب كل فتنة ، وتُبَّاع كل دعوة ، فكثر جمعها واستفحل خطرها ، ثم خرجت بمن مالأها على خبثها من أرض الجزيرة مخترقة نجد ، فكانت القبائل التى تمر بها تمالئها خوفا منها ، ثم قصدت نحو اليمامة تريد مسيلمة الكذاب فخافها وتحصن منها ، ثم عمل على أخذها باللين والرفق ليأمن شرها حتى يتفرغ لما كان يتوقعه من حرب الجيوش الإسلامية،فصالحها على أن يؤدى لها جزية ثم تزوجها. و بعد قليل تركت لديه اثنين من كبار أتباعها ليحصلا الجزية ورجعت إلى بلادها .

فلما قتل مسيلمة تفرق أتباع سجاح فأسلمت وخمل ذكرها .

الأسود العنسى

الأسود العنسى ، اسمه : مسعود بن كعب العنسى ، وعنس من مذحج ، ولذلك اتبعته قبائل من مذحج واليمن وغلب على صنعاء ، وكان يقال له : ذو الخمار، وقد ادعى أن سحيقاً وشريقاً يأتيانه بالوحى وأنهما ملكان وهو يضاهى بهما فى زعمه ، جبريل وميكائيل ، وقد اتخذ خدعاً كثيرة يموه بها على من اتبعه .

وقد قتله المسلمون وهو سكران، وكان قد اغتصب امرأة مسلمة بعد أن قتل زوجها فدلت عليه حتى تمكن منه أنصار الله بعد أن استفحل أمره واستشرى شره وغلب على اليمن كلها .

طليحة الأسدى

أسلم طليحة بن خويلد الأسدى ثم ارتد فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام وقبيل لحاقه بالرفيق الأعلى ، وقد وجه عليه الصلاة والسلام عماله إلى بنى أسد وأمرهم بمناجزة طليحة وكل من شايعه ، فنشطوا لذلك وكادوا يقضون عليه لولا أن جاء الخبر بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وارتداد قبائل كثيرة عن الإسلام ، فانعكس الأمر وأصبح طليحة فى المركز الأقوى وتابعته غطفان وعلى رأسها الأحمق المطاع: عيينة ابن حصن الفزارى ، فقد ارتد إثر وفاة الرسول .

وقد أرسل أبو بكر خالد بن الوليد إلى طليحة فهزمه هزيمة منكرة وقضى على دعوته قضاء مبرماً ، وقد أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد فى سبيل الله ، وكانت له مواقف محمودة و بلاء عظيم فى فتح فارس وخاصة فى موقعة القادسية .

***

نعود مرة أخرى فنبرئ ذمتنا من الإيجاز الشديد فى سرد حوادث هؤلاء الكذابين إذ أنها أوسع وأعمق بكثير مما أشرنا إليه بها ، ولكن المقام ليس مقامها ، إنما ذكرناها لأنها وردت فى سياق السيرة الشريفة فلم نشأ أن نذرها معلقة ، فاكتفينا بإشارات موجزة إليها ، ومن أراد التوسع فعليه بموسوعات التاريخ .

حجة الوداع

فتح الله مكة على المسلمين فى السنة الثامنة الهجرية ، وحج بالناس فى تلك السنة عتاب بن أسيد ، وفى السنة التاسعة ولَّى الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر ليحج بالناس ، وفى السنة العاشرة اعتزم النبى صلى الله عليه وسلم الحج فيها ، فاحتفل

المسلمون بحجه وتجمعوا من كل حدب وصوب ليحجوا معه حتى بلغ عددهم قرابة مائة ألف حاج ، ومما ينبغى ذكره أن الحج فى السنة العاشرة كان وقفاً على المسلمين ، فقد أنذر المشركون فى السنة التاسعة بتحريم الحج عليهم ، ولعل النبى عليه الصلاة والسلام أخر حجه حتى هـذه السنة ليخلص الحج من الشرك ولا يكون بالبيت الحرام إلا من يعبد الله مخلصاً له الدين .

وقد استصحب النبى عليه الصلاة والسلام فى حجه أمهات المؤمنين جميعاً ، ولم يتخلف عن صحبته من الصحابة إلا من أقعده عذر من مرض أو سفر ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أوفد على بن أبى طالب إلى نجران ليفقه أهلها فى الدين ، فلما علم بحج الرسول قدم إلى مكة وحج معه .

و إنما سميت هذه الحجة حجة الوداع ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام لم يحج بعدها ، ولأنه صرح فيها بما يفيد قرب لقائه مولاه ، فقد قال عليه الصلاة والسلام :

أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهـذا الموقف أبداً .

وقد خرج النبى عليه الصلاة والسلام من المدينة يريد الحج يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة ، وساق معه الهدى واستعمل على المدينة أبا دُجانة الساعدى ، حتى إذا كان بسَرِف[1] أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلا من ساق الهدى .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يُلَبِّى ويقول فى تلبيته : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

ودخل الرسول مكة ضحى من ثنية كداء ، ولما وقع بصره على البيت ، قال : اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبِرًّا ، ثم طاف بالبيت سبعاً ، واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ثم سعى بين الصفا والمروة

---

(١) سرف : اسم مكان بين مساجد عائشة وبطن مرو .

سبعاً راكباً على راحلته ، وكان إذا صعد الصفا يقول : لا إله إلا الله ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

وفى الثامن من ذى الحجة قصد إلى مِنًى فبات بها ، وفى التاسع منه توجه إلى عرفة .

الخطبة الجامعة

ولما استقر به المقام بعرفة وتهيأ المسلمون لسماع خطابه ألقى عليهم الخطبة الجامعة التى بينت الحدود ورسمت المعالم ، وكان عليه الصلاة والسلام يلقى عبارته فيسمعها القريب منه ويقوم بعض الرجال ذوى الصوت الجهورى بنقلها إلى من يلونهم من الناس ، فأما هذه الخطبة فها كما :

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير .

أما بعد : أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، إن ربا الجاهلية موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر[1] بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السّدانة والسقاية ،

---

(١) كان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل .

والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به فيما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إن النسىء[1] زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم : ثلاث متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : فإن لكم على نسائكم حقًّا ، ولهن عليكم حقًّا ، لكم عليهن أن لا يُوطِئن فُرُشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مُبَرِّح ، فإن انتهين وأطعنكم ، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان[2] ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى ؛ فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فلا ترجِعُنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .

---

(١) كانت العرب تعمد عند الحاجة إلى تأجيل شهر من الأشهر الحرم وسيرد ذكرها فى خطبة الرسول .

(٢) جمع عانية : وهى الأسيرة .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمىٍّ إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجَر ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل . والسلام عليكم ورحمة الله .

آية الكمال والتمام

وبينما كان النبى عليه الصلاة والسلام راكبا ناقته وهو على عرفة نزل قوله تعالى : «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً[1]» فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحى .

وبكى عمر بن الخطاب ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : ما يبكيك يا عمر ؟

فقال عمر : أبكانى أنا كنا فى زيادة ، أما إذا كمل فإنه لا يكمل شىء إلا نقص .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : صدقت .

وقد كانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نفسه ، فإنه لم يعش بعدها إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام .

الرجوع إلى المدينة

وبعد أن فرغ الرسول عليه الصلاة والسلام من أداء بقية مناسك الحج قفل راجعا إلى المدينة بعد أن أقام بمكة عشرة أيام .

---

(١) المائدة : ٣ .

من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه

ولما بلغ الركب الإسلامى مكانا بين مكة والمدينة يقال له « غدير خم » جمع الرسول الصحابة وألقى فيهم خطابا كريما ختمه بأن رفع يد على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقال : من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، وأعن من أعانه ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

السلام على همدان

وفى السنة العاشرة من الهجرة أرسل النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى همدان من قبائل اليمن يدعوها إلى الإسلام فأقام فيهم ستة أشهر وهم لا يجيبونه .

فبعث النبى عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب إليهم وعممه بيده الكريمة ، وقال له : سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ، فإن قالوا : نعم ، فمرهم بالصلاة ولأن يهدى الله بك رجلا واحدًا ، خير لك مما طلعت عليه الشمس ، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، ثم أمره أن يُرْجِعَ خالداً إلى المدينة .

وسار علىٌّ حتى أتى القوم ، فخرجوا له فصف رجاله ودعا القوم إلى الإسلام ، فأبوا ورموه ورجاله بالنبل ، فهجم عليهم علىٌّ بجيشه هجمة لم يتحملوها فولوا مدبرين .

ولم يتعقبهم علىٌّ بالجيش بل أعاد دعوتهم إلى الإسلام فاستجابوا إليه ، وأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب علىٌّ إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بالنبأ العظيم فلما قرأ كتابه خر ساجداً ، ثم جلس ، فقال :

السلام على همدان ، السلام على همدان .

السنة الحادية عشرة الهجرية

بعثة أسامة بن زيد إلى الروم

لما رجع النبى عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع ، وكان قد أجهده السفر وأرهقه الكفاح المتصل عشرين عاما فأكثر ، أمر المسلمين فى المحرم من السنة الحادية عشرة بتجهيز جيش كبير ينخرط فيه كبار المسلمين كأبى بكر وعمر ، وجعل أمير هذا الجيش أسامة بن زيد ، مولاه وابن مولاه ، وكانت وجهة هذا الجيش « ابنى » وهو موضع يقع على تخوم الشام بجهة البلقاء والداروم قريب من مؤتة التى قتل بها أمراء الجيش : زيد بن أسامة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة فى الغزوة المعروفة بهذا الاسم ، وكانت فى السنة الثامنة الهجرية .

وكان أسامة بن زيد فى هذا الوقت لمّا يبلغ العشرين من عمره . ولما أمره الرسول على هذا الجيش المنتظم للسابقين الأولين من شيوخ المهاجرين والأنصار ، قال له :

سر إلى موضع أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحا على أهل ابنى وحرّق عليهم ، وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن أظفرك الله فأقل اللبث فيهم ، وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك .

ثم عقد له اللواء ، وقال له : اغز باسم الله فى سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله .

شكوى الرسول

وعلى أثر ذلك اشتكى الرسول عليه الصلاة والسلام وحجبه المرض عن الناس ، وانتشر خبر مرضه فى شبه الجزيرة بسرعة شديدة فارتد مسيلمة الكذاب والأسود العنسى وطليحة بن خويلد وسجاح ، وانضم إليهم من حولهم من ضعاف العقيدة وصعاليك العرب ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فيما مضى من هذا الكتاب .

وحملت هذه الحوادث الجسيمة الصحابة على التريث فى إخراج الجيش ، ثم انضاف إليها إرجاف المنافقين بأسامة بن زيد متخذين من حداثة سنه و إمارته على أناس فى سن أجداده ، موضعا للقيل والقال !

فلما بلغت النبى عليه الصلاة والسلام أراجيف المنافقين ، خرج عاصبا رأسه وخطب المسلمين ، قائلا :

إنى رأيت البارحة فيما يرى النائم أن فى عُضُدى سوارين من ذهب فكرهتهما ونفختهما فطارا ، فأولتهما هذين الكذابين : صاحب اليمامة وصاحب اليمن (١) . وقد بلغنى أن أقواما يقولون فى إمارة أسامة ، ولعمرى ، لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله و إن كان أبوه لخليقاً بالإمارة و إنه لخليق لها . فَأَنفِذُوا بعث أسامة واستوصوا به خيراً فإنه من خياركم .

وخرج أسامة بالجيش فضرب عسكره بالجرف (٢) ، وثقل المرض على النبى عليه الصلاة والسلام وتمهل الناس ، وشاء الله أن لايخرج هذا الجيش إلا بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام (٣) .

مرض الرسول

ومتابعته الجهاد أثناء مرضه

فى أخريات شهر صفر من السنة الحادية عشرة الهجرية ابتدأت رحلة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . واستأذن المرض على هذا الجسم الكريم الذى حمل

---

(١) صاحب اليمامة : مسيلمة الكذاب ، وصاحب اليمن الأسود العنسى .

(٢) الجرف : مكان على فرسخ من المدنية .

(٣) حدث بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام واستخلاف أبى بكر وشيوع الردة والانتقاض بين العرب ، أن أشار جماعة من المسلمين ، فيهم عمر بن الخطاب ، على أبى بكر أن يعدل عن خروج جيش أسامة أو أن يعزله ويولى غيره من ذوى الأسنان ، فأبى أبو أبكر الاستماع لأحد الرأيين ، وقال فى الأول : لو لم يكن هناك غيرى لخرجت وحدى غازيا ، وفى الثانى : أيوليه النبى عليه الصلاة والسلام ويعزله أبو بكر ؟ ثكلتك أمك ياعمر !

الأمانة الإلـهية وأداها على خير ماتؤدى به الأمانات وتُوفىّ به الـكرامات . وكان من خصائص الشرف التى آثر الله بها رسوله الأمين أن وقف به المرض عند جسمه ، ولم ينل من نفسه الـكبيرة ولا أثر فى همته الشماء ؛ فقد ظل أثناء المرض الذى دام بضع عشرة ليلة يتابع جهاده و يوالى إرشاده ، بل تمت له صلوات الله وسلامه عليه ، معجزة كبرى أثناء مرضه كان لها من الأثر الحميد فى نصر الإسلام وامتداد نوره ما لم تـكن الجيوش الـكثيرة تصمد له ، ولـكنها بركات الله وآثار نعمته على نبيه الـكريم وحفظه لدينه القويم : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[1] » .

وتفصيل هذا الإجمال ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لما بلغه فى مرضه استفحال أمر الـكذابين الأسود العنسى ومسيلمة الـكذاب حاربهم بالرسل ، فبعث إليهم رجالا من المسلمين يخوفونهم و ينذرونهم ، ثم أرسل رسلا آخرين إلى جميع زعماء القبائل ، ليحاربوا هؤلاء الـكذابين ، و يقفوا فى وجه دعاواهم الـكاذبة وأباطيلهم الملفقة ، وقد استجاب كثير من الزعماء لأمر الرسول فتجردوا لمحاربة هؤلاء الـكذابين ووقف بعضهم — ممن لم تـكن أحوالهم تساعدهم على الحرب الصراح — موقف المثبت لقومه ، المثبط لدعاة الفتنة والارتداد .

وكان أعظم نفحات هذه البركات ما تم فى أمر الأسود العنسى ، فقد استطاع أمراء المسلمين الذين تلقوا كتب الرسول القضاء عليه قبل وفاته عليه السلام بليلة واحدة ، وجاءت الأخبار بذلك المدينة بعد أيام ، فـكان لها وقع حسن هوّن على المسلمين ماهم فيه من بلاء بسبب ارتداد القبائل وانتقاضها .

ومن دلائل العظمة البالغة على أن مرض الرسول لم يشغله عن أمر الله عز وجل والذب عن دينه ما سبق أن تحدثنا عنه بشأن إرجاف المنافقين بالجيش الذى عقد لواءه لأسامة بن زيد ، فقد تحامل الرسول على نفسه ، وخرج من سرير مرضه ليقطع الأراجيف و يدحض الأباطيل ، وقد مرّ بالقراء بيان ذلك .

---

(١) الحجر : ٩ .

زيارة البقيع

لما أحسّ الرسول عليه الصلاة والسلام المرض أرسل فى جوف الليل إلى مولاه أبى مُوَيْهِبَة ، فجاءه ، فقال له : يا أبا مُوَيْهَبَة ، إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معى ، فانطلق معه فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، لِيَهْنِ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى .

ثم أقبل على أبى مويهبة فقال له :

يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، خيرت بين ذلك و بين لقاء ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة .

فقال له أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : لا والله ، يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربى والجنة ، ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف.

دعابة لطيفة

قالت عائشة رضى الله عنها : رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع ، فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى وأنا أقول : وارأساه ! قال : بل أنا والله ياعائشة ، وارأساه ، ثم قال : ما ضرك لو مُتِّ قبلى ، فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟ . فقلت : والله لكأنى بك لو فعلت ذلك رجعت إلى بيتى فأعرست ببعض نسائك . فتبسم الرسول عليه الصلاة والسلام . وتَتَامَّ به وجعه .

العدل حتى فى التمريض

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حريصاً كل الحرص حتى فى مرضه على العدل بين زوجاته ، فكان يدور عليهن حسب النظام الذى كان متبعاً ، فلما حل دوره عند السيدة ميمونة اشتد به المرض فدعا بنسائه واستأذنهن فى أن يمرض ببيت السيدة عائشة فأَذِنَّ له . فخرج عليه الصلاة والسلام بين على بن أَبى طالب والفضل ابن العباس تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيت عائشة .

يطلب إلى من ظلمه أن يقتص منه

وجلس النبى عليه الصلاة والسلام ذات يوم من أيام مرضه على المنبر ، ثم أمر الفضل بن العباس أن ينادى فى الناس فاجتمعوا ، فقال :

أما بعد أيها الناس ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، و إنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد[1] منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ألا و إن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له أو حللنى ، فلقيت الله وأنا طيب النفس .

إخوة الإسلام

وجلس عليه الصلاة والسلام على المنبر يوماً آخر وهو فى مرضه الأخير فقال :

إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيـــا ما شاء ، و بين ما عند الله ، فاختار ما عند الله .

فبكى أبو بكر ، ثم قال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله . وعجب الحاضرون وقالوا : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله عن عبد يُخَيَّر ، ويقول فديناك بآبائنا

---

(١) فليستقد : أى يقتص

وأمهاتنا ، ولـكنهم أدركوا فيما بعد أن أبا بكر كان أعلمهم بمرمى كلام الرسـول عليه الصلاة والسلام .

وقال الرسول مستأنفاً كلامه :

إن أَمَنَّ الناس علىَّ فى صحبته وماله ، أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولـكن أخوة الإسلام ، لا تبقى خوخة فى المسجد إلا خوخة أبى بكر .

وصاته بالأنصار

وأوصى عليه الصلاة والسلام بالأنصار خيراً «فإنهم الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلـكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم فى الثمار ، ألم يوسعوا لـكم فى الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم » .

وكان فيما قاله النبى عليه الصلاة والسلام فى موضوع الأنصار : يا معشر المهاجرين إنـكم قد أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم والأنصار عيبتى [1] التى أويت إليها .

صلاة أبى بكر بالناس

ولمـا اشتد بالرسول عليه الصلاة والسلام المرض ، قال : مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت السيدة عائشة : إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن ، وإنه متى يقوم مقامك لا يطيق .

فقال عليه الصلاة والسلام : مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت السيدة عائشة مثل قولها الأول ، فغضب الرسول وقال ، إنكن صواحب يوسف ! مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس ، وقد صلى أبو بكر بالناس فى حياة الرسول سبع عشرة صلاة ، ذكر ذلك الواقدى .

---

(١) العيبة : ما يجعل فيه الثياب ؛ والمعنى : أنهم موضع ثقتى وسرى .

وقد كان قصد السيدة عائشة من الاعتذار عن أبيها رغبتها فى إبعاده عن ولاية المسلمين العامة لما تعلمه من شدة الصعوبات التى يلقاها من يخلف الرسول ، ولكن الرسول كان يعلم من هو أبو بكر وأى طراز هو من الرجال ، وقد قام أبو بكر بالعبء الثقيل الذى ألقى عليه خير قيام . يشهد بذلك الله ورسوله ، وتؤذّن به مواقفه المشهورة وأعماله المبرورة وفضائله التى لا عد لها ولا حصر رضى الله تبارك وتعالى عنه .

صلاة الرسول الأخيرة

مع جماعة المسلمين

ولما كان يوم الاثنين الذى اختار الله فيه رسوله إلى جواره الكريم خرج إلى الناس عاصباً رأسه وهم يصلون الصبح ، وإمامهم أبو بكر ، فتفرج له الناس وعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكص عن مصلاه ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظهره ، وقال : صَلِّ بالناس .

وجلس الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جنبه ، فصلى قاعداً عن يمين أبى بكر ، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس ، فكلمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد ، يقول :

أيها الناس، سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، و إنى والله ما تمسَّكون على بشىء ، إنى لم أُحِلّ إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن .

فلما فرغ رسول الله عليه الصلاة والسلام من كلامه ، قال له أبو بكر : يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب ، ثم استأذنه فى الذهاب إلى أهله بظاهر المدينة ، فأذن له .

وقد استبشر المسلمون بخروج النبى عليه الصلاة والسلام إلى الصلاة ، وحسبوا أنه قد نقه من مرضه ، وقال أنس بن مالك :

ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحسن هيئة منه تلك الساعة .

الرفيق الأعلى

قالت السيدة عائشة :

رجع إلى رسول الله صلى عليه وسلم فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع فى حجرى ، فدخل على رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فى يده نظراً عرفت أنه يريده ، فقلت : يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال : نعم ، قالت : فأخذته فمضغته حتى لينته ، ثم أعطيته إياه ، فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط ثم وضعه .

« ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

قالت : فقلت ! خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق . وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام فى ضحى يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة الهجرية (٨ يونيو من سنة ٦٣٣ ميلادية) وقد بلغ من العمر ثلاثا وستين سنة قمرية و بضعة أيام .

وكان مرضه الذى توفى به الخاصرة وهو عرق فى الكلية إذا تحرك وجع صاحبه .

وكان آخر ما أوصى به عليه الصلاة والسلام أن قال : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » حرك بها لسانه وما يكاد يبين ، وقد فهمت وصاته بملك اليمين على وجهين ، فإما أنه عليه الصلاة والسلام يوصى بالرفق مع الأرقاء و إما أنه يوصى بالزكاة لأنها تجب فيما يملك وقد جاءت مقترنة بالصلاة فى القرآن وكلا الفهمين سائغ مقبول ولا معارضة فى الجمع بينهما .

مصاب زلزل النفوس وهدّ العقول

وما كاد المصاب برسول الله صلى الله عليه وسلم ينتشر بين المسلمين ، حتى زلزل منهم النفوس وهد العقول ، وأذهل المدارك وحير الألباب ، وفتن كبار المسلمين الأولين عن أنفسهم حتى راح عمر بن الخطاب — وهو من هو ، عقلا وحزما ، وإيمانا وعلما — يمسك بسيفه ويقول : من زعم أن رسول الله مات علوته بسيفى .

ودهش الناس وأفحموا واختلطوا ، فمنهم من خُبِل ، ومنهم من أُصمت ومنهم من أقعد إلى الأرض ، فكان ممن خبل عمر — على ماقدمنا — وكان ممن أخرس ، عثمان بن عفان حتى جعل يُذْهَبُ به ويُجاء ، ولا يستطيع كلاما ، وكان ممن أقعد على ، فلم يستطع حراكا ، وأُضْنِيَ عبد الله بن أنيس حتى مات كمدا .

أخو الرسول فى الإسلام وصاحبه فى الهجرة

ينقذ الإسلام والمسلمين

وبلغ المصاب العظيم مسامع أبى بكر الصديق ، أخو الرسول فى الإسلام ، وصاحبه فى الهجرة ، وخليفته على الصلاة بالمسلمين ، وهو بماله بالسُّنح بأعلى المدينة فجاء وعيناه تهملان وزفراته تتردد ، وهو فى ذلك ، رضوان الله عليه ، جَلْد العقل والمقالة ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكبَّ عليه ، وكشف وجهه ، ومسحه وقبل جبينه ، وجعل يبكى ، ويقول :

بأبى أنت وأمى ، طبت حيا وميتا ، وانقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولو أن موتك كان اختيارا لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء ، لأنفدنا عليك ماء الشئون ، فأما مالا نستطيع نفيه ، فكمد وإدناف يتحالفان لا يبرحان .

اللهم ابلغه عنا ، اذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ماخلفت

فينا من السكينة لم تقم لما خلفت من الوحشة . اللهم ابلغ نبيك عنا واحفظه فينا .

ثم خرج أبو بكر إلى الناس فوجد عمر يخطب فيهم بمثل ما كان يخطب من انكار موت الرسول ، وكان عمر قد قال أثر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام :

إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله مامات ، ولكنه قد ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ، ثم توعد من يقول أن الرسول قد مات بسيفه .

وجاء أبو بكر والناس ملتفون حول عمر يسمعون إليه ، فقال على رسلك ياعمر فأنْصِتْ ، فأبى عمر إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لاينصت ، أقبل على الناس يتكلم فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فخطب أبو بكر الناس بخطبة جُلها الصلاة على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال فيها :

أشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حَدَّث ، وأن الله هو الحق المبين ، فى كلام طويل من هذا القبيل ، ثم قال :

أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لم يمت . ثم تلا الآية الكريمة :

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ [1]»

وإن الله قد تقدم لكم فى أمره ، فلا تدعوه جزعا ، وإن الله تبارك وتعالى ، قد اختار لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرّق بينهما أنكر « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ (١) »

ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولا يلفتنكم عن دينكم ، وعاجلوا الشيطان بالخزى تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم .

ولما فرغ من خطبته ، التفت إلى عمر بن الخطاب ، وقال له : أأنت الذى بلغنى عنك أنك تقول على باب نبى الله ! والذى نفسُ عمر بيده ما مات نبى الله ، أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يوم كذا : كذا وكذا ، وقال الله عز وجل فى كتابه : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ؟

فسقط عمر إلى الأرض أثر سماعه هذه الآية وقال : والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله تعالى قبل الآن لِمَا نزل بنا ، أشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الحديث كما حدث ، وأن الله تبارك وتعالى حى لا يموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، صلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله .

أمر ثقيفة بنى ساعدة

وبينما أبو بكر وعمر فى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، جاءهما من أخبرهما أن الأنصار تجمعوا فى سقيفة بنى ساعدة على أن يبايعوا سعد بن عبادة ، فخفا إليهم ولقيا فى الطريق أبا عبيدة بن الجراح فأخذاه معهما ، فقابلهم عاصم بن عدى وعُوَيم بن ساعدة ، وهما من الأوس وقالا لهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون ، فأبوا أن يسمعوا إليهم ومضوا حتى أتوا القوم وسعد بن عبادة جالس وهو مريض متدثر ببعض ثيابه فقام فيهم أبو بكر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

إن الله بعث محمداً رسولا إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حجر منحوت وخشب منجور ، ثم قرأ قوله تعالى :

---

(١) النساء : ١٣٥ .

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُون هَؤُلاَء شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ [١] » ، « مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى [٢] » .

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه الإيمان به والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشنف [٣] الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض وآمن بالله والرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يامعشر الأنصار من لاينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفْتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر وحرض الأنصار على الثبات والتشبث بحقهم . وطلب أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير .

فقال عمر : هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن ! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مُدْلٍ بباطل أو مُتَجَانِف لإثم ، أو متورط فى هلكة ؟

فقام الحباب بن المنذر ، وطلب من قومه الاستمساك بحقهم ، فإن أبى المهاجرون عليهم ذلك أجلوهم عن المدينة وتولوا الأمر دونهم ، ثم قال : أنا جذيلها [٤] المحكك وعذيقها [٥] المرجب ، والله إن شئتم لنعيدنها جذعة ؟

---

(١) يونس : ١٨ (٢) الزمر : ٣

(٣) الشنف : البغض

(٤) الجذيل : تصغير جذل ، وهو عود يوضع وسط مبرك الإبل لتحتك به ويضرب به المثل للرجل يستشفى برأيه .

(٥) العذق المرجب : هو النخلة تبنى حولها دعامة ترفدها لكثرة حملها .

فقال عمر : إذن يقتلك الله !

وقال أبو عبيدة : يا معشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغيَّر . فقام بشير بن سعد الأنصارى ، فقال : يامعشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أُولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا . فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى به من الدنيا عرضاً ، فإن الله ولى النعمة علينا بذلك ، ألا أن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا .

فقالا : لا ، والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك . ابسط يدك نبايعك .

فلما ذهبا ليبايعاه ، سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه ، ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قام أسيد بن حضير أحد النقباء فى بيعة العقبة فبايع أبا بكر ، وتابعته الأوس على ذلك فبايعت وانكسر أمر سعد بن عبادة ، وبايعت الخزرج وأتم الله نعمته على المسلمين فجمع كلمتهم ووحد بينهم حتى أصبحوا — كما كانوا — بنعمة الله إخواناً .

جهاز الرسول ودفنه

أَهَمَّ المسلمين بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أمر وحدتهم وتنصيب من يقوم بالأمر فيهم إذ أنهم كرهوا أن لا تظلهم راية إمام مجمع عليه من عامة الناس يوماً واحداً ، فلما أطفأ الله الفتنة التى كانت على وشك الاضطرام فى سقيفة بنى ساعدة وتمت بيعة أبى بكر ، انصرف الناس إلى جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام بغسله العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبى طالب ، والفضل بن العباس وقثم بن العباس

وأسامة بن زيد وشقران مولى الرسول ، وناشد أوس بن خولى الأنصارى ، وهو ممن شهد بدراً ، على بن أبى طالب ، الله وحظ الأنصار من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون معهم فأدخله علىّ ، فحضر الغسل .

وكفن الرسول عليه الصلاة والسلام فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ، ثم وضع الجثمان الشريف على السرير ، وصلى عليه المسلمون جماعات جماعات : الرجال أولا ، ثم النساء ، ثم الصبيان .

واختلف الناس على المكان الذى يدفن فيه ، فشهد أبو بكر أنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام ، يقول :

ما قُبِض نبى إلا يدفن حيث قبض .

فرفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحفر له تحته ، ونزل القبر على بن أبى طالب ، والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وشقران مولى الرسول ، وأوس بن خولى ، وقد تم الدفن ليلة الأربعاء التالية ليوم الاثنين الذى اختاره الله لجواره الكريم فيه .

الغزوات

التى غزاها الرسول بنفسه

بلغ عدد الغزوات التى غزاها الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه ، سبعاً وعشرين غزوة ، أولها غزوة ودّان فى أوائل السنة الثانية الهجرية ، وآخرها تبوك فى رجب من السنة التاسعة الهجرية .

وجملة السرايا والبعوث ثمانية وثلاثون سرية و بعثاً .

حجات الرسول عليه السلام

حج الرسول صلى الله عليه وسلم طوال حياته المباركة ثلاث حجج : اثنتان منها قبل الهجرة والثالثة بعد الهجرة فى السنة العاشرة منها وكان معها عمرة وهى حجة الوداع .

واعتمر عليه الصلاة والسلام أربع عمرات منها العمرة التى قرنها بحجة الوداع .

أمهات المؤمنين

وتزوج عليه الصلاة والسلام خمس عشرة امرأة ، دخل بثلاث عشرة منهن ، وجمع بين إحدى عشرة ، وتوفى عن تسع ، وكانت أول زوجاته السيدة خديجة ولم يتزوج فى حياتها امرأة غيرها .

سرارى الرسول

وتسرى عليه الصلاة والسلام بمارية بنت شمعون القبطية ،وقد عاشت حتى السنة السادسة عشرة الهجرية وماتت فى زمن عمر بن الخطاب وقد مشى فى جنازتها ومعه من حضر موتها من المسلمين .

وتسرى كذلك صلوات الله عليه بريحانة بنت زيد القرظية ، وكانت مسلمة صادقة الإيمان .

كُتاب الرسول

وكتب للرسول عليه الصلاة والسلام كثيرون أشهرهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن سعيد ، و إبان بن سعيد ، والعلاء بن الحضرمى ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وحنظلة الأُسَيْدِى ، وخالد بن الوليد .

صفة الرسول عليه السلام

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، يصف الرسول عليه السلام :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبيض اللون مُشْرَباً حمرة ، أدعج (١) ، سبط (٢) الشعر ، دقيق المسْرُبَة (٣) ، سهل الخدين ، كث (٤) اللحية ، ذا وَفْرة (٥) ،

---

(١) أدعج : شديد سواد العين .

(٢) سبط الشعر : مرسله .

(٣) المسربة : الشعر من وسط الصدر إلى البطن .

(٤) كث اللحية : غزير شعرها .

(٥) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، أوما سال على الأذنين منه ، أوما جاوز شحمة الأذن

كأن عنقه إبريق فضة . كان له شَعَر من لبّته[١] إلى سُرَّته يجرى كالقضيب ، لم يكن فى أبطه ولا صدره شعر غيره ، شثن[٢] الكف والقدم ، إذا مشى تكفأ كأنما ينحط من صبَب[٣] ، وإذا التفت التفت جميعاً ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، ولا العاجز ولا اللئيم ، كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ ولَرِيحُ عرقه أطيب من المسك ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، صلى الله عليه وسلم .

ختامه مسك

أما بعد : فإنى أحمد الله الذى وفقنى لإخراج هذه السيرة المهذبة لحياة نبيه ومصطفاه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وأحمده سبحانه وتعالى مرة ثانية إذ رزقنى الصبر ومنحنى القوة فى هذا المقام ، وهما لا غنى عنهما فيه ولا أمل فى الحصول على شىء ذى بال بدونهما .

وأحمده مرة ثالثة ورابعة وخامسة بل حمداً لا يحصى عدده ولا يتناهى أمده إذ كتب لى شرف اللصوق بصاحب السيرة صلوات الله وسلامه عليه ، والانتماء إليه . وألقى محبته فى نفسى وملأ بعظمته صدرى ، وشغلنى به عن كل ما سواه ، وهيأ لى نعمة التخيل حتى أصبحت وكأنى أعيش فى عصره وأحيا على عهده وأسمع صوته وأرى شخصه صلى الله عليه وسلم .

والحق أن اشتغالى بتأليف هذه السيرة قد هيأ لى الحياة زمنا مباركا بين موسوعات كتب السيرة ووسط مطولات كتب التاريخ ، أقابل الروايات بعضها ببعض ، وأقارن بين الوقائع وأتحرى الحقائق ، وكلما أنجزت شيئاً وارتضيته عدت إليه كثيراً وأقمت عنده طويلا ، واطردت هذه العادة فى كل جزئية من جزئيات الكتاب حتى كونت حقيقة كنت فى شغل بالموضوع نفسه عن الفطنة إليها ، وهى أننى قد أُخذت بجلال العظمة المحمدية وبهرت مما قرأت عن مكارم عصر

---

(١) اللبة : المنحر ، وموضع القلادة من الصدر .
(٢) شثن الكف والقدم : ضخمهما . (٣) صبب : مرتفع .

الرسالة ، حتى وددت أن أظل فيه وأن يكون تفكيرى وتصورى وخيالى وكل ما أملك من جهد وما يقع لى فى طوق وقفاً عليه ومحصوراً فيه .

والآن وقد استحضرت الرسول وعهده والإسلام ومجده ، فإنى أحس رغبة قوية جامحة تستفزنى للحديث عن هذا المقام ، ولو أنى استجبت لها لما رويت وشبعت إلا بعد تحرير ما يتجاوز حجم هذا الكتاب أضعافاً مضاعفة ، و إنى أستعين الله عليها فأرجئها إلى حين قد يكون قريباً إن شاء الله .

و يقتضينى عرفان الجميل أن أشكر للسيد محمد حلمى المنياوى ، صاحب دار الكتاب العربى ما هيأه لى من أسباب التيسير والمعونة فى إخراج هذا الكتاب المبارك ، أسأل الله أن يغفر لى وله ولكل من عاون فى إخراج هذا الكتاب ، إنه سميع مجيب

والحمد لله أولا وآخراً ، وصلوات الله وسلامه على محمد نبيه ورسوله ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وعلى جميع من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

الجيزة فى : ١١ ربيع الأول سنة ١٣٧٥
٢٧ أكتوبر سنة ١٩٥٥

محمد خالد

تمت هذه الطبعة بعون الله تعالى فى يوم الجمعة المبارك ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٥ هـ الموافق ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٥٥ م وهو يوم الاحتفال بذكرى مولد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه

الفهرس